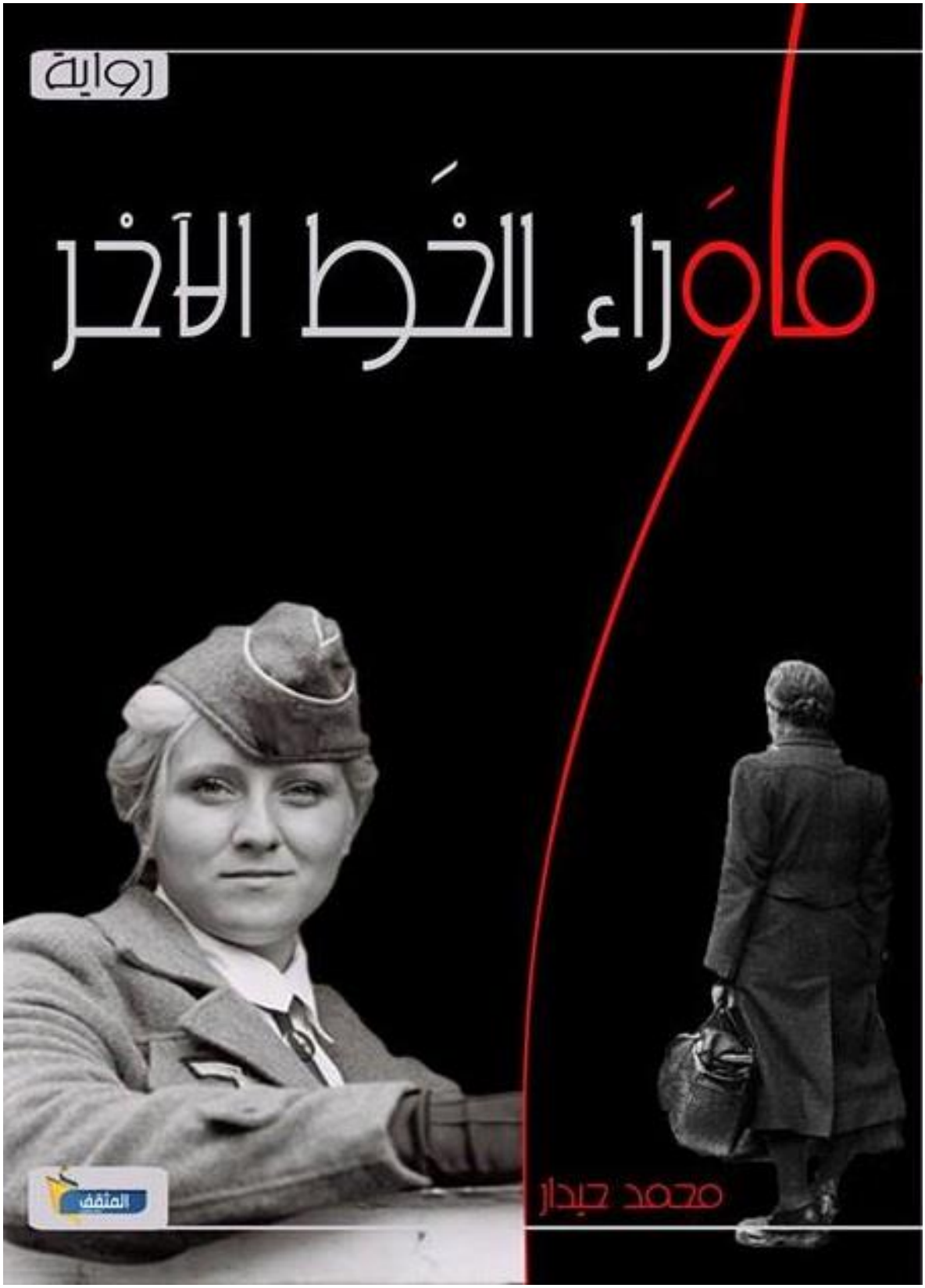
رواية
ماوَراء الخَط الآخَر
محمد جبدار
المثقف

لفتة مدخلية:

حين تصبح لك قراءتك المستقلة عن سلطة المؤرخ وعن سلطة صانع التاريخ ، عندها فقط يمكنك ـ ككاتب او كقارئ ـ ان تعتقد انك صرت طرفا في مغالبة المعنى بشكل ما ، ولان المعنى بدوره خاضع لقاعدة التوالد بحكم انفتاحه على الزمن كمتغير، فهو من هذه الزاوية يتملص من فهم المؤرخ ومن فهم صانع التاريخ معا ، ليشرك اكثر من هذين الطرفين في دورة استنتاج الأعراض والرصد في عملية تمتد عبر الزمن دون ان تنتهي ايحاءاتها عند جيل معين اوعند شخص بعينه. ولولا هذا الامتداد في الزمن لقضي على المعنى ولتم استهلاكه من طرف اول مستخدم له ..وصدق الشيخ الاكبر محي الدين بن عربي في قوله :" الطريق إلى الحقيقة تتعدد بتعدد السالكين "

الكاتب

مفتتح:

في تركيز مطول نظرت ضابطة الغيستابو الشقراء الى اول أسير يمثل امامها من الدفعة الفرنسية الجديدة التي حلت بالمعتقل الحربي قبل غروب هذا اليوم ثم قالت :

ـــ تبدو كما لو انك غير فرنسي

ما جنسيتـــــك ؟

وفاجأه السؤال فعلا الى ان امتقع لونه لانه سؤال لم يوجه اليه من قبل كاي سؤال معروف الاجابة فقال وهو لايزال يحافظ على وضع الاستعداد العسكري :

ـ سيدتي ولكنني في عداد الجيش الفرنسي

وقالت كمن عثر على اكتشاف جديد :

ـ وتحسن الفرنسية بكل هاته الطلاقة ايضا ؟

وهي تعود الى.صميم السؤال بدا له كما لو ان طيف بسمة

مر عبر شفتيها بسرعة فكاد يضفى على انقباض قسمات وجهها شيئا من الطلاقة حين قالت:

ـ معظم الجيش الفرنسي اليوم من المجندين

والمرتزقـــة .

ثم اكملت سؤالهـــا في لهجة لما تتعال بعد :

ـــ من اي الجهات في فرنسا انت ؟

وسبقت جوابه مردفة كلمة بدا له كما لو انها ساخرة :

ـ ايها الفرنسي .

فقال صادقا وقد فكت حالة استعداده :

ــ انا يا حضرة من بلدة "الثيران "

منطقة " الراس" ..

وعقدت حاجبيها ذي الشكلين الهلاليين الدقيقين وسالت :

ــ عن اي منطقة تتحدث؟

فقال على الفور:

ـ تقع بما يسمونه الان الولايات الفرنسية الثلاث ..

وهزت راسها وقالت وهي تنظر الى منضدة المكتب :

ـ اما نحن والعالم كله فنسميها الجزائر..

وكأنها انتظرت حتى تتراجع الحدة التي كانت قد اخذت تتشكل في عينيها لتقول :

.ـ واذن لست فرنسيا بالضرورة كما توهم نفسك

ولم يجب وقد خالجه من الاحساس الغريب ما جعله يعتقد ان الضابطة الشقراء قد غمرها شعور من الرأفة به عكس ما بلغه عن الالمان وعن افراد الغيستابو بالتحديد تجاه اسراهم ..

واكتفى بان ترك عينيه تسرحان عبر فضاء محياها ، كان جمالها خارقا وعيناها تحملان وداعة لم تستسلم امام الشدة التي يوحي بها مظهرها العسكري الصارم..

كان في انتظار اسئلتها وهي تديم النظر الى اوراق قد وضعت امامها بانتظام ولم يحتج بوداود الى مزيد من الذكاء لكي يدرك ان الاوراق المنصصة امام الضابطة وبحكم الزمان والمكان معا لا تخرج عن موضوع الحرب المستعرة ..

فيومها كانت شرارة الحرب العالمية الثانية تمتد وتمتد لتلتهم اطراف اوربا بجناحيها الغربي والشرقي فتصدر اوارها الى حيث تتموقع جيوش فرنسا وانجلترا خلف المحيطات عبرالقارات كاكبر قوتين استعماريتين عرفهما القرنان التاسع عشر والعشرون .

فما كان بدا لهاتين القوتين من ان تعززا كنانتيهما من ابناء مستعمراتيهما لمؤازرة جيوشهما في وجه الاطماع الالمانية،لتنفردا لوحدهما بالاطماع ، بل و ليموت ابناء المستعمرات عوضا عن الفرنسيين والانجليز باعتباران ابناء المستعمرات انما هم ابناء بالتبني وربائب تسهل التضحية بهم ثم بعد ذلك لا احد سيطالب بدمائهم فالدولتان في حل من كل التزام عائلي او قبلي او قطري اوحتى دولي..

وكان بوداود ـ وهو الشخصية الرئيسة في هذه الرواية ـ واحدا من ابناء المستعمرات هؤلاء، لكنه كمغترب سابق وكواحد ممن بلغتهم **الوصية** ، ظل يتأبط سؤاله الكبير الى ان نبشته الضابطة الالمانية منذ حين، بعد ان حمله معه الى خطوط النارعلى الجبهة الالمانية ، ثم

الى المعتقل الحربي النازي الذي يتواجد به منذ اليوم حيث التقى هاته الالمانية الشقراء بكل وسامتها وتدفق حيويتها ودقة اسئلتها ، صحيح انه ملم بجوانب الاجابة ، غير ان السؤال لم يواجهه بكل هذه الصرامة التي يواجهه بها اليوم ..

مرة اخرى ، وهو بين الحيرة وبصيص من اطمئنان ، سمح لبصره ان يسرح بتحفظ عبر وهج جمالها الرائق الذي يوفر للعين البشرية نزهة من نوع خاص حتى وهو يقف صاغرا بمكتب الاستنطاق الرهيب أي بين مخالب الاسد الذي يمثله جهاز المخابرات الالمانية بكل رهبته وصولته بل وبكل المخاوف التي تنتاب من يحل ضيفا على عرينه ..

لكن بماذا يجيب ؟ الم تقل الضابطة منذ حين ان معظم العسكريين الفرنسيين هم من المرتزقة و المجندين ؟ مستشهدة بالمثل الفرنسي القائل " ما الليث الا عدة خراف مهضومة "(+) ؟

الكـــاتـــــــــب

(+) هذه المقولة مأثورة عن الكاتب الفرنسي " بول فاليري" ، وقد كان يؤيد بها مسالة الانتحال في الادب ..

القســـــم الاول :

الفصل الاول

ذهبيـــــــــة

وضعت ذهبية سطل الماء الذي جاءت به من خارج الاسطبل وانهمكت في ترتيب اكوام التبن بحيث تكون في متناول الحصان فور رواحه فهو عادة ما يعود منهكا جائعا ليقضي ليلته داخل بعض الدفء الذي يوفره الاسطبل .. وضعت كل شيء في مكانه بانتظام معروف عنها ..وتراجعت بقامتها المديدة لتقف الى جانب الجدار منتظرة مقدم الحصان..

وذهبية ابنة العم بوحجلة صاحب عربة معروف يظل يمخر ازقة القرية يتقدمه حصانه الابيض الذي افقدته الحرارة لونه الاصلي وجعله جر العربة يتخلى عن حيويته كحيوان نشط سبق لميادين الفروسية الريفية ان شهدت له بريادة الحلبة لكنه صارالان يخب في خنوع واحباط واضحين يدل عليهما عنقه المنحني دائما في عياء نحو الامام وعيناه المنغرزتان في الارض وكأن ما خارج الارض لا يعنيه ..بل انه اعتزل حتى صهيله المدوي الذي كان يدل على انه من فصيلة الاحصنة فلم يعد جيران بوحجلة يعرفون متى انصرف ولا متى عاد عكس ما كان عليه الحال اوان حداثة عهده بالحي..

اما الفتاة ذهبية المنتصبة في وجوم فقد كان يشغل بالها امران اولهما خدمات الحصان ليلا من علف وماء بجناحه الذي اصطلح على تسميته بالاسطبل رغم انه مكان بالغ الضيق ذو سقف متداع وباب خشبي تتخلله منفرجات واسعة بفعل تأكل الالواح وانكماشها مما ادى الى تباعدها عن بعضها مخلفة ثغرات متسعة بين اللوحة والاخرى ..

وثانيهما بوداود هذا الفتى الذي تحلم به اكثر من واحدة ويلهب مشاعر فتيات القرية بمظهره العصري جدا و بخلقه الذي لم يتغير وربما بافكاره التي تجاوزت قواعد الحياة الريفية وانساقها الراكدة واخيرا بمغامراته الجريئة بحيث تعوّد على الطيران الى خارج قفص القرية الغافية المحدودة الحركة والهواء ليقضي اعواما بفرنسا التي قيل انه يفكر في العودة اليها ..

لقد اختار طريقا اخر عكس زميله محمود المعروف بابن رملية الذي منعته وحدة امه كارملة من ان يتطوف في الافاق ..بل وعكس الهدّارالمعروف بالجودام الذي فضل البقاء في صفوف الجيش الفرنسي بعد انهائه الفترة الاجبارية الى ان بلغ رتبة مساعد ليصير مباشرة وجها من وجوه القرية بطريقته ، صحيح ان حصوله على هذه الرتبة لم يات نتيجة كفاءة او اختراق ما بقدر ما جاء نتيجة مسعى يكتنفه الغموض ، ذهب الاحتمال ببعضهم الى تفسيره بالقضاء على احد المشبوهين الفارين اثناء محاولة اعتقال ولو ان محمود لم يتلق من خاله وهو في نظره اوثق مصدر في مثل هذه المسائل.ـ تاكيدا بهذا الخصوص .

وذلك تميّز ظل يسترعي اهتمام الجميع بمن فيهن ذهبية التي لا يشدها الى بوداود مجرد كونه عائدا من فرنسا لان في ذلك امرا قد جاءه كثيرون قبله ولايزالون ومن ثمة لم يعد ينطوي على اية اثارة او مفاجاة ولكنها تحب فيه وسامته و استكانته وسمعته التي لاتزال طيبة

بالقياس الى سمعة كثيرين .

بل وتستشعر في حبها لبوداود نوعا من التحدي و المكابرة فالفرنسيات لسن وحدهن الجديرات بالحب..بل ان في قريتها من يمكن لها ان تميل الاف القلوب . ووفق اسلوب لايثير اي مزايدة على احد ايضا..

كل هذا التفكير جرى وذهبية بين سطل الماء ومعلفة الحصان ضمن قضبان الاسطبل الضيق ذي الفانوس الشحيح الانارة تنظم بقايا التبن و الروث والماء التي تستقل بارضيته مما استدعى ـ وعلى عجل ـ اسرابا من الذباب الى التحليق كما لو انها استلطفت المكان على قذارته فارسل بعضها بطنينه احتفاء .وانشغل بعضها الاخر في الاستمتاع بالمادة المبذولة امامه ببالغ اهتمام.

واخذ الوقت يقترب ..وهو عند ذهبية وقتان ايضا ..موعد عودة الحصان الى علفه ومائه وقد هيئا معا ووقت مرور بوداود بالقرب من الاسطبل عادة كلما انصرف مساء من متجر العم بوجمعة الذي يقضي به امسياته غالبا ..وللامانة فبوداود لايفاتح ذهبية بالكلام حين ينفرج الباب في وجهه لامر تفتعله الفتاة بل يحيها باشارة من يده وهو يواصل طريقه وهي ترى في ذلك سلوكا من الاحتشام قد ترحب به القرية وتطمئن اليه هي كمقدمة لتحقيق حلمها ..

في هذه اللحظات بالذات كان بوداود لايزال يخوض في احاديث مع العم بوجمعة تاجر القرية كما درجت العادة ..غير ان الحديث هذه المرة دخل جدية غير معهودة وهو يقول وقد اخذ مكانا له بحيث اصبح مقابلا لبوداود :

ـــ وما حقيقة خبر رغبتك في الالتحاق بالجيش الفرنسي ؟

فقال بوداود وقد سبقته تنهيدة عميقة :

ـــ والدي يصر على رفضه ووالدتي لاتجرؤ على مفاتحته

..في الامر من جديد

قال العم بوجمـــــــــــــــــعة ضاحكا :

ـــ لااعتقد ان الجيش الفرنسي في حاجة الى مدد جديد لكي

يحكم طوقه علينا يا بوداود ..لماذا لاتهاجر من جديد ؟

فالهجرة اشرف ..

فقال بـــــــــــــــــوداود وقد ابتسم مجاراة لضحك العم بوجمعة :

ـــ التحاقي بالجيش يعني بقائي قريبا من امي وابي

و من قريتي يا عمي بوجمعة

وصادقا تساءل العم بوجمعة دون ان يغير من وضع جلوسه على صندوق خشبي خلف الجدار النصفي الذي يفصل البضائع عن الجهة الامامية التي يقف بها الزبون عادة ليطلب المادة

التي يرغب في اقتنائها وكان جدارا قصيرا من حجارة وطين فقط و لايحمل اي طابع يجعله في عداد واجهات عرض البضائع :

ـــ وان حدث وتم نقلك الى بلد اخر فلفرنسا

اكثر من مستعمرة كما تعلم ؟. .

ـــ نادرا ما يحدث ذلك ..

وعلق بوجمعة كما لو انه معرضا به :

ـــ يبدو ان الجودام زودك بما يكفي من الاطمئنان ..

ونفى بوداود ذلك بقوله :

ـــ لم اعرض عليه الامر ..

عندها افرغ بوجمعة ما تبقى بجعبته في صيغة سؤال :

ـــ اخشى ان تكون دعاية القائد واتباعه

قد تمكنت منك كما فعلت بالهدار واخرين قبلك..

ـــ الهدار ترقى الى رتبة مساعد وصار

لسان حال القرية وهو ذا اليوم لايعرف الا بالجودام

قال بوداود وضحك العم بوجمعة حتى تبعثر نظام عمامته فوق راسه مختتما قهقهته المتعبة بقوله :

ـــ انه لا يترقى الا نحو الحضيض في نظر الناس

بئس الترقية .. ايــه.لكم تجهلون ما كان قد

انتهى اليه **الكولونيل بن داود يا هؤلاء (1)**

وابتسم بوداود لائذا بصمته ثم وحتى لايعيد عليه العم بوجمعة قصة الكولونيل بن داود التي سبق له ان قصها عليه اكثر من مرة ..سارع الى القول :

ـــ تعرف يا عمي بوجمعة انه لاعلاقة لي برجال القائد

فضلا عن ان يدعوني هؤلاء الى ما تقول..

واضاف بعد برهة من صمت :

ـــ انا لااحد لي الا انت و محمود، وكل سكان بلدة

الثيران يعرفون هذا ..

وهز العم بوجمعة راسه مصدّقا على قول بوداود الذي كان مدركا في قرارة نفسه ان ماقاله العم بوجمعة هو ما يردده الجميع لان الجميع همه الحكم على المظاهر ..لكن بوداود كان يكن

للعم بوجمعة من الاحترام ما ساعده على تحمّل تعنيفه وعتابه وغضبه ايضا.لمدة طويلة .

انصرف بصر بوداود الى محتويات الدكان،كان ضيقا ، وقد امتد حجمه الى الداخل كلسان منتهيا الى باب خلفي مجلل بالحديد ، ومعظم رفوفه شبه فارغة لا تحتفظ الا ببقايا سلع قد تناثرت عبرها في شيء من نظام ..وهي فترة انتقالية تمر بها دكاكين القرية في انتظارالسوق او زيارات الممونين الذين يتقاطرون فرادى من مدينة " الراس "..

محتويات الدكان عبارة عن دزينات من صابون ،وعلب حناء ، واكياس سكر وسميد منصصة قريبا من الباب الداخلي ،فضلا عن احذية وبرميل زيت ترصّع اسفله بحنفية نحاسية ، مضافا الى ذلك شمع وجهاز كيل ذو صفحتين فولاذيتين ومصابيح يدوية للانارة يقبل القرويون على استخدامها كوسيلة للعمل الليلي في الحقول التي اصبح معظمهم خماسين فيها لدى رجال الكولون ..واشياء اخرى تعب بصر بوداود من ملاحقتها عبر زوايا الدكان .

وبعد هاته الجولة البصرية عبر زواياه ، غادربوداود متجرالعم بوجمعة ضجرا وقد اعتلته هواجسه ، ليمر باكبر انهج القرية ،وقد اخذت تتبدى من خلاله جدران ذات طوابق ارضية ونوافذ ضيقة واسطح من صفيح ، وبعضها من قرميد مهشم الجنبات بفعل الامطار، ثم انصرفت عيناه نحو مأذنة المسجد التي تعلو الجميع كسند احتماء روحي، يتيح الى النفس الهروب من هجير الحياة وقتامتها ..والمسجد يعني الشيخ عبد الدايم الذي يناهض انضمام الشباب الى الجيش الفرنسي، و لكن في جهد فردي لايخلومن سرية هو الاخر.

وكان بالطريق احمرة قد انهمك اصحابها في شغل ما ..احمال واثقال ..وعربات خيل ..ذكرت بوداود بجواد بوحجلة والد ذهبية صاحب اشهر عربة بالقرية ..والى الجانب الشرقي تحتفظ باحة مستطيلة الشكل باهمية ما في نظر القرويين، لانها تشكل محطة للحافلة الاسبوعية الوحيدة ...فهذه الحافلة على تواضع تقنياتها، تمثل افضل واسرع وسائط تنقلهم المتاحة ،على قدمها وثقل حركتها ،لاسيما اذا حل موعد سوق المدينة ،حيث يتجه الكل على متن دواب وبعض الجرارات ، الى جانب قلة من الشاحنات القديمة المتاكلة البطيئة الحركة وهي عبارة عن مخلفات كان يستغنى عنها المعمرون الاوربيون فتمر عليها سيارات هؤلاء النفعية الخفيفة مر البرق يقودونها بانفسهم او يقودها بعض القرويين من الاجراء عندهم بينما تستلقي زوجات المعمرين الاثيرات وابناؤهم بالمقاعد الخلفية غالبا ..وفي السوق يخف الجميع للتفاعل مع المعاملات التجارية التي تتم هناك ، من تبضع وتسويق اغنام وبقر واحصنة وخضر وثياب وحاجيات غير محدودة،وبالمختصر فالسوق هي الفرصة الوحيدة لتجديد دورة الحياة في القرية وما حولها كل اسبوع حتى بالنسبة لمن لا تجارة له ..((**واللي ما شرا يتنزه**)) (2) كما يقول المثل ..

ويفكر بوداود كيف ان طريقه هذه تمر حتما بمنزل ذهبية ..وهو عبارة عن صفيحة فولاذية ضخمة ممتدة الى وجهتين ،حاولت جدران اسمنتية من غير ملاط ان تلاحقها على علو شاهق من الامام ، لتنبسط من الخلف في اجهاد واضح ،وباحدى الزوايا ارتسم باب الاسطبل ليعتلي قناة مفتوحة لصرف المياه المستهلكة ، كما لو انها تزيد من عفونة الاسطبل ..

فخلف هذا الوصيد المتداعي يكمن سر الرحلة التي تقود بوداود الى منزله عبر هذا النهج الذي اخذ يغادره الناس مع اقتراب المغيب كما يفعلون كل مساء.

وكعادته مر بوداود ولم يبخل بالتحية حينما انفرج الباب ، كما ولم تختف ذهبية بسرعة

خلافا لتوقعه ..بل انشغلت عيناها المسكونتان بترحاب مكبوت اكثر من يديها الممسكتين بدفة الباب ..

وفعلا انبهر بوداود لهذه الطلعة البهية ...اذن لقد صدقت القرية بل وصدقت كل القرى من حولها ، في الاحتفاء بملامح هذا المخلوق الذي يكابد اشغال التبن والروث والظلام فبدا كمعدن من ذهب تعفر بالتراب .وذهبية تدرك بمرارة او بزهو ان السر الذي يجعل ألسنة القرية تلهج باسمها بمناسبة،او بدون مناسبة انما هو جمالها الفائق الذي ربما تسرب الاعجاب به الى اسماع سكان القرى النائية وشباب الضيع البعيدة ، لكنه مع الاسف لايذاع الا مقرونا بوضع العائلة المزري، ومهنة ابيها الشديدة الاتضاع .

لذلك كانت غالبا ما تنتهي الى القول ، ان الله لايفقدك زاوية ما الا ليعوضك باخرى ، وهذا حكمه ..فحسبها انه قد عوضها بما تتمناه كل امرأة حتى ولو كانت مسنة ،الا وهو الجمال الفائق.

بلغ بوداود منزله الذي يقع بزاوية خلفية من النهج ، وقد اقيم وفق هندسة ممتدة على علو منخفظ بشكل محسوس كباقي ما يجاوره من ابنية عتيقة قوامها اللبن والقرميد و الصفيح احيانا ، غير انه اصبح مميزا بباب خشبي ناصع الطلاء سرعان ما تأكد القرويون انه من فضل الهجرة ومردودها الوافر، فموارد الانسان القروي لاتتسع عادة لاقتناء باب بمثل هذا الحجم ، وهذا التأنق غير الريفيين على الاطلاق،على الاطلاق ...بل ان ذهبية ذاتها ينتابها نوع من التخوف امام هذا التمايز الذي اخذ ينشأ بين الاسرتين من جراء الهجرة، اذ ماذا لو تخلى عنها بوداود او مانعت عائلته في مصاهرة عائلتها نتيجة تباين الموقعين الاجتماعيين بينهما؟

قالت مرة لزميلتها جمعة :

ـ لقد صار في مصاف مساكن المدن التي يكاد المعمرون

وحدهم هم من يستأثر بها .

وهذا رغم اعتراف بوداود بان المنزل من الداخل لم تمسسه يد الاصلاح بعد، فهو لايتجاوز ممرا ضيقا لايزال تطويره الى ردهة قيد التفكير، وغرفا ثلاثا يخمن في اعادة تاهيل بلاطها وارضيتها ومطبخا ينبغي اعادة توجيه بابه نحو ردهة داخلية بدل شبه باحة غير مسقوفة ، كما وان دورة المياه مرشحة بدورها للتوسعة ان امكن، ومع انجاز كل ذلك لو حدث ، سيظل المنزل ذا طابق ارضي فقط كبقية المنازل، وهذا ما يقلق بوداود ..

وما ان فتح الباب حتى وجد العائلة في احدى جلساتها، لعلها كتلك التي كانت تحدث اثناء أزمنة رحيله الاول الى فرنسا ، او ما اصطلح عليه في القرية بازمنة الغربة

كان بالقاسم والد بوداود ضخم الجثة دائم الاحتفاظ بزيه التقليدي الذي يقره الوسط الزراعي ، وهو مكون من طاقم متجانس قوامه عمامة وجلباب قماشي، و كمقدمة وقار وخط الشيب لحيته التي ترفض التقاليد الريفية كل مساس بشعيراتها مهما تضاءلت الا ضمن عملية تشذيب دورية وعكس بدانة الوالد كانت نحافة الام التي تجلس قريبا منهما بلباسها ، الذي تتصدره عباءة من بقايا ما احتفظت به منذ ايام عودة بوداود من فرنسا ، الى جانب عصابة رأسية لم تعد مزدانة برسومها العشبية كما كان العهد بها ، بينما استقرت مخلفات وشم اخضر فاتح على جبينها وخديها وتحت شفتها السفلى .

ولم يغب الابن الاكبر (علي) عن الجلسة ببنيته القوية،و بشاربيه ذوي الطول الملفت الذي لطالما نبه الاب الى وجوب اخضاعهما الى نوع من الاعتدال المعروف عادة الذي تواضع عليه شباب القرية ممن هم في سنه ،ولكن عليا ظل متميزا بهما فبدا كما لو انه مشروع سيد تركي. من اجيال القرن التاسع عشر ولو انه مشروع لما يكتمل بعد سيما وقد كان يرتدى سروالا واسع الساقين وصدارا قصير الكمين وطاقية بيضاء باهتة اللون تعود الى ابناء احد المعمرين سبق له ان استغنى عنها منذ اشهر ..اما الابن الاصغر مصطفى فعلى شيء من رشاقة وسمرة والاهم من كل ذلك انه من تلاميذة الشيخ عبد الدائم إمام المسجد و صاحب كتاب القرية..وقد جلس بعيدا بحيث يعتزل المجلس بما فيه صنية شاي احتفظت ببعض كؤوسها فارغة منذ المساء..

وقبل ان ياخذ بوداود مكانه قريبا من "علي" وجه الاب كلامه اليه كما لو ان شكله المميزقد لفت نظره اكثر من اخوته :

ـــ منذ عودتك من فرنسا لم تنسجم مع واقع القرية

و لا ادري ماذا خلفت هناك ؟

وقالت الام وهي تضع الطعام امامهم :

ـــ مع أي واقع تريد له ان ينسجم يا بالقاسم ؟

وظل بوداود حائرا و عيناه مركزتان على الارض ثم قال في تذمر :

ـــ الفراغ لا يمحو شيئا

يا ابي ..

وثارت ثائرة الوالد كعادته ، الى ان وضع ملعقته جانبا بعد ان كان قد امسك بها وسأل :

ـــ ولماذا عدت الى هذا الفراغ اذن؟

واضاف وقد تراجعت حدة صوته تحت نظرات زوجته :

ـــ الفراغ ..الفراغ ..من الذي حوّل حياتنا الى فراغ

غير فردوسك المنتظر ..؟؟

كان وضع الوالد في نظر بوداود يستحق الشفقة ، انه يجهل مقدار تحفظ ابنه ازاء هذا الفردوس المفترض..ولكن ما الحيلة في زمن اصبحت فيه تلك الضواحي وحدها مصدرا لثمن الرغيف ؟ ..

كانت الغرفة التي يجلسون فيها ضيقة الى درجة لم تتحمل كل هذا الغضب الذي يئن به كل واحد منهم ، وربما لذلك احتفظ حذاء الاب بموقع له خارجها ..لقد صار الحوار وسيلة اغضاب لااكثر ، بحيث يئس كل واحد من اقناع مجادله ،وربما لذلك لف الاب عمامته باتقان ، وارتدى جلبابه البني اللون وغادر محمولا على ثقيل صمته ،اما بوداود فالتحق بالمطبخ حيث شقيقته ضروى ووالدته ، التي نظرت اليه في اشفاق كدأبها ، وقد وضعت قصعة لتنظيفها من بقايا الطعام ، وهو يتقدم منها ليقول في توسل :

ـ ارجوك اخبري ابي بما اعتزمته

...تشجعي ولو لمرة واحدة ..

:وقالت وقد انصرفت نحوه مشيرة بيديها :

ــ لو هاجرت ثانية الى فرنسا لكان اليق بك وبنا

اما ان تحمل السلاح الفرنسي ..سلاح الكفرة ..

اعدائنا واعداء نبيينا ؟!

وتوقفت ضروى عما كانت تشتغل به قريبا من مجلس امها ونبست :

ــ انه القايد هو من يحرضهم على ذلك..

ودون ان ينتظر كلماتها غادرالمنزل مسكونا بكل همومه ..الهجرة ..التجنيد ..خياران لاثالث لهما في اهتمامه ، ولو انهما لم يبعداه عن التفكير في ذهبية ، وقد وصل الى منزل ملقى باحد مخارج القرية ، حيث تكاد بنايات الصفيح تستقل بالمكان ، وارضية الانهج تعكس رائحة عفن خاص ، واطفال يستغلون ظلال الجدران لتنظيم ما يشبه حلقات لعب ، واتربة وحجارة وحفر ،وكثير من المنازل شبه مفتّحة الابواب مكتفية في سدها ببعض الاسترة القماشية المتباينة الالوان والاحجام جلبا للهواء.

لم يكن باب المنزل الذي اتجه نحوه بوداود مميزا ،بل هو من خشب مجلل بقطعة صدئة من فولاذ ، قد تراجع حجمها عن تغطية اسفله ، و اهترئ وسطه كما لو ان دفتيه ترفضان أي عناق او توافق بينهما.

ومهما يكن من امر فقد كان على قطعة الفولاذ تلك ، ان توصل طرقات بوداود الهادئة غير الشديدة الى اذان محمود ووالدته بالداخل .

ومحمود فتى قوي البنية ، ذو شخصية متفتحة ، مع انه في نظر بوداود مندفع الى حد التهور وسريع الانفعال، توفى والده بمرض ما ،فكفلته امه رملية بعزيمة المرأة الريفية وقوة ارادتها رغم ضنك المعيشة وقسوة الوسط، الى ان صار شابا جلدا ، ولانه من اعز اصدقائه حاول بوداود استدراجه الى مرافقته حين هم بهجرته الاولى الى فرنسا ، لكن الارملة رملية اعترضت بشدة ،وقالت صادقة وقد اجهشت يومها :

ـ لن اغامر بالجميع دفعة واحدة يا بوداود ..

ايام رحيل بوداود ظل محمود كاسف البال ، لايدري ماذا يصنع في قرية لم يكن في امكانها ان تخفي شيئا من عمق فاقة ابنائها ، وانغلاق افاق سد الرمق في محيطها بالنسبة لمن لايمتلكون أي شبر من الارض ، ومع ذلك احس محمود بنوع من الندية تجاه زميله ، فابان السنوات التي قضاها بوداود بفرنسا ، امتهن محمود كل الوان الكدح والمشقة ، من رعي وخماسة و بناء و شحن و تفريغ و حفر،.. وكل عمل الا التسوول ..وكان اهم عمل بالنسبة اليه هو ذلك الذي ياتي به فصل الصيف من كل سنة .حيث يتاح العمل موسميا بحقول الكولون . الامر الذي مكنه من حذق سياقة الجرارات بل واصلاح حتى بعض اعطالها البسيطة.

وكفتيان القرية ممن اعيتهم سبل العيش ، ظل يحز في نفسه ، فوق ذلك ، ان يعيرهم القايد بقوله مرارا :

ــ كسالى ..لن تتسع لكم الا صفوف الجيش الفرنسي .

و لكنكم كسالى ..اللعنة على قوة شباب منهار.

ولكن في هذه اللحظات بالذات تحققت نبوأة القايد ..وبشكل سيجبر ليس محمودا فقط على الانفراد برايه دون موافقة والدته رملية ، بل و سيدفع ببوداود ايضا الى شق عصا طاعة ابيه لاول مرة ، وفوق ذلك سيتصرف بوداود عكس ارادة والدته التي قالت له في اصرار:

ــ لك ان تهاجر الى فرنسا مرة اخرى ،

.. عوض ان تتجند في صفوف جيشها ..

وكان قد قال لها :

ــ وهل تعتقدين ان الهجرة نعيم؟ انها هي

الاخرى عذاب نقضـــــــــــيه تحت حظائر

الصفيح ليلا ..وسط زمجرات اليات البناء الضخمة ،

فضلا عن التعنيف والاستهزاء ..

وقالـــــــــــت :

ــ ولو.. ولو..فانتم تكدون من اجل العيش..لكن

بشرف ..

وواصل بوداود كما لو ان والدته لم تقاطع حديثه :

ــ .. ولانعيش في مقاولات الاشغال يا اماه . الا
كالقطط بيـــــن ركام الحديد والفولاذ والالواح

.والاتربة ..تحت صيحات رؤساء الاشغال الفرنسيين ،

وتهديدهم واهاناتهم ،بل ونحن معرضون للطرد من

الشغل لاتفه الاسبـــــــــاب ..

مضى على ذلك بعض الوقت ليتلقى محمود وبوداود استدعائيهما للشخوص الى ثكنة المدينة، مدينة الراس ..فيبادرا الى اشعار والدتيهما بذلك، وقد استثنى بوداود اباه ، لانه سيقيم الدنيا ولا يقعدها ان علم ، وسيكون هناك من سيلفت نظر القائد الى اعتراض والده ، فيدخل معه في عراك مكشوف.. بدعوى منع ولده عن التجند..والحق ان رملية لم يصل اعتراضها الى تلك الشدة التي صدرت عن والدة بوداود ، فللفاقة معاذيرها في نظر الناس ايضا ، ولانها تجد طمأنينة في طبيعة زمن الشابين هذا الذي يبدو هادئا لاحرب فيه قد

يخشى على محمود منها .

وبعيد انصراف رملية الى المطبخ يسال بوداود زميله وهو يضحك :

ــ كيف التقت رغبة القايد مع دعوة خالك الصواف؟

وشاركه محمود ضحكه وهو يقول :

ـ اه صحيح..والله انا اغبى الاغبياء كيف غابت عني

هذه المقارنة ..وانت ما رايك؟.. اين وجه المقارنة

بينهما ؟

ـ لايتجلى وجه المقارنة بينهما الا في وحدة

زمانيهما فقط.. بينما تحتفظ كل واحدة

بهدفها في نظري..

قالها بوداود مسرعا وقد عادت رملية تحمل شيئا ارتأته ضروريا لاكرام صديق ابنها ..

وهكذا تضمنت زيارة بوداود الى منزل صديقه هذه المرة ، اتفاقا على ضحى الغد كموعد للمغادرة ، وهو موعد الحافلة التي تربط قرية الثيران باقرب محطة ..ومن هناك سيستقلان قطار الليل ..

لم ينتظر الخبر موعد الرحيل لكي يبلغ اسماع ذهبية ، فهو قد طاف بكل بيوتات القرية ، وتلقى ردود افعال متباينة ، ليس لانه يحمل جديدا ، ولكن لان الامر هذه المرة شمل واحدا في مكانة بوداود الذي اعتقد الجميع انه لن يغادر القرية الا مغتربا .

بلغ الخبر اسماع ذهبية اذن ككل الاخريات ، لكنه ترك في نفسها صدى مختلفا عمن تلقينه ، بحيث سقط بوداود في عينيها بدون مقدمات ، متهاويا كهرم مزيف سبق لمخيلتها ان شيدته من شوقها وحرقتها و اعجابها به لسنين طويلة ، وامام حدة صدمتها لم تكلف نفسها اي نوع من البحث عن دوافعه قد يقنعها ، لانها حتى ولو احاطت بهذه الدوافع ما كانت لتقلل من حنقها عليه ، ولا كانت لتشفع له عندها ، او تغفر له اقدامه على هذه الخطوة الرهيبة المقززة في نظرها ، وفي نظركثيرات من فتيات القرية من حولها

فكل ما تعلمه عن هذا المسعى انه سيؤدي الى ارتداء بزة العار كما تسميها والدته، ووالده العم بالقاسم و نساء القرية وكثيرون من رجالها وهو عار لا تقتصر اثاره عليه وحده ، بل ستمتد معرته الى اجيال من احفاده ، وليست ذهبية على استعداد لكي تصير اما ولا جدة لاجيال تشوب سمعتهم فعلة كهذه .

وللحقيقة ..ظلت تقاوم تمرد قلبها المتعلق به الى ابعد حد للتملص من صرامة موقفها ، وقد اصيبت في مقتل ، لكن كل ما كان في وسعها ان تفعله هو ان تقرر اغفال امره ان استطاعت ، و لا تسال عنه ..بل ولا تستمع الى اي خبر يخصه وتحت هذا الاصرار رفضت وداعه حين جاء منزلها صباحا ، موهما امها بانه انما جاء باحثا عن والدها في وقت كان يعلم انه لايتاخر عن الالتحاق بعمله الى ساعة متاخرة مثل هذه ، بل ان عدم وجود

العربة امام باب المنزل يدل على ان العم بوحجلة لايزال يكابد شحن اغراض القرية وحيدا لا صاحب له الا حصانه .

وذهبية لاتزال تذكر ان لحظات تجاهلها لوجوده وهو يطرق الباب ، كانت لحظات رهيبة وقاسية ،لانها اللحظات التي حددت حجم وفائها الذي لايزال نابضا ، بحيث حاولت وحاولت ان تغالب كبرياءها الريفي الصلب ، الذي يمنعها من الاندفاع نحو الباب لتفتحه في وجه اعز انسان على قلبها ،لكنها توقفت عند ملتقى الشعورين البالغي التضاد ، الشعور بالوفاء للقلب، والشعور بالكبرياء الذي جبلت عليه كقروية ، لتضطر اخيرا الى الجلوس منهكة القوة ، جاثمة على ركبتيها كما لو انها في لحظات مأتم ، وفي هذه الاثناء تعالت دقات قلبها الرخو كثكلى تتسمع نزع فقيدها ، وهي تخفي نشيجا متقطعا اخذ يصدر عنها ، انها تبكي مجد بوداود فعلا ، ولو من خارج ارادتها .

ومع ذلك لم تمنع والدتها من فتح الباب ، مكتفية بالاشارة الى انها غير موجودة وكذلك تصرفت الوالدة مع بوداود وهي تتقبل وداعه ، وحين وصدت امها الباب لم تزد على ان سالت :

ـــ هل انصرف ؟

وقالت الوالدة وغيمة من الذعر تلف عينيها :

ـــ ما الذي اصابك ؟ لم تكوني على

خير حال ، منذ ان طرق الباب ؟؟

وحاولت اخفاء عواطفها وهي تقول وقد تسارعت رموش عينيها الذابلتين :

ـــ لاشيء طبعا ، وما شأني به ؟

انما جاء لوداع ابي.. ؟

وكتمت الام غيظها موارية شكها المتنامي و معلقة على كلمة ابنتها في تساؤل : ((ما شانها به ؟ وهي تكاد تصاب بما يشبه نوبة صرع ؟)) ماذا كان يحصل ونحن في غفلة من امرنا ؟ ألمجرد انه طرق الباب يحدث كل هذا ؟.

حاول بوداود ان يمدد وقوفه امام الباب وان يرجئ انصرافه عله يحصل على اشارة ما من ذهبية قد تكون بمثابة وداع لكن ما لبث أن فأجاه صراخ الفتاة منبعثا من الداخل :

ـــ إرحل ألى حيث تشاء فلا أحد يرغب في وداعك يا هذا ..

فانصرف على عجل دون حتى أن يراعي لياقة في إتمام مراسم وداع الوالدة التي كان يتوقع رجوعها اليه دون أن يدري انها وجمت لا تبدي حراكا.كان يخشى وصدى الصرخة يملا سمعه أن يصير لذهبية وجه أخر غير وجهها السمح الخجول الذي يعرفه ..

اما هي وان تراجعت حدة حنقها فلم يبد لها ان الانفعال الذي كان ركبها جاء خارج ارادتها بل لعله بداية تشكل شخصية اخرى لا عهد لبلدة الثيران بها .

الفصل الثـــا نـــــي

الجودام

لم يكن بالحافلة التي استقلاها ما يشد بصر محمود .فهو قد زهق من الريف بكل مظاهره البائسة ، قرويون يحملون امتعتهم ، وحقول تخضر هنا ثم تصفر هناك ، وقرى مشدودة الى بعضها بطريق زراعي لايستقيم الا ليتعرج عبر منحدرات ..وتلال فأودية ،وجموع مزارعين تكدح تحت تهديد معمرين يجوبون الغلل الواقعة قرب مستوطنات ولايعرفون من بعيد الا بتبابنهم القصيرة ،اوبغلاييهم الممتدة تحت انوفهم اوبالسياط بايديهم وهي تقرع المناكب بعنف ، وترنم بوداود وهو ينظر الى صولة المعمرين بقول من قال :

" واخيول اتشايكا اقبالي تسمع قولة يب يب "

ضجر محمود من السير البطيئ الذي تتسم به هذه الحافلة التي اعتقد انها ربما كانت من مخلفات حرب ما ، فلم يتنفس الصعداء الا حين غادرها ورفيقه بمدخل المحطة ليستقلا القطار ..فقال وقد نزل :

ــ أف ..الحمد لله

فقال بوداود باسما :

ــ لاتعتقد ان القطار احسن حالا

فهو لايصلح الا لنقل البضائع والاغنام ..

وقال محمود بانفعال :

ـــ سمعتك منذ حين تترنم باشعار تثني على القطار

لم يعلق بذهني منها إلاهذه الكلمات :

" خوض..... وبات ساري وافي ديريكت العجب "

****

"..... مركي ابلاص ماشيـــــنا "

وضحك بوداود لان محمود لم يتمكن من رواية البيتين كاملين .بينما اخذ يتناوم على مقعد القطار وهو يضع يده على جبينه، وعاد رجل ملتح يرتدي سروالا وقميصا قصير الكمين فجلس الى مقعده بجوار حسناء سافرة ، واخذا يتحادثان في همس وهي تقهقه بين الفينة والاخرى تجاوبا مع همسات الرجل الملتحي ذي الملامح الاوربية..

حيرة ثقيلة تستولي على محيا بوداود لاتزال ...هل هو الخوف من المجهول ؟ هكذا أولها محمود ولكنه استدرك ، اذ ليس لواحد مثل بوداود تنطوي حياته على جانب كبير من المغامرة ان يحتار ؟ ولم يدر بخلد محمود ان حيرة بوداود لا تبتعد عن تفكيره في ذهبية ، لانه لم يخبره بعد بحادثة الوداع المشؤومة ..

وفي نوع من التحدي للرجل الملتحي الجالس الى جانب الحسناء استأنف محمود النظر اليها في تركيز كما لو انه سيلتقط لها صورة ، وهو يضغط على فخذ بوداود الذي يجلس الى جانبه ، ويقول بصوت خافت :

ـــ انظر ..اغسل عينيك بماء الورد

لكي تنسى القرية وعفنها ...انس ذهبية

العمشاء التي لاتكاد تستحم الا مرة في الشهر

يصطنع بوداود ابتسامة ،ويهزكتفيه وهويستمر في حيرته ،ثم يقول :

ـــ لاتنس ان ذهبية فتاة متدينة

ومن ثمة فهي نظيفة بالضرورة

فيضحك محمود ثم ينزع قلنسوة جلبابه من على راسه بعد ان شعر بارتفاع الحرارة ويقول :

ـــ عذرا لقد نسيت انني اخاطب رجلا

قضى اعواما في التمتع بمثل هذه

الاجساد الرائعة ..يا لغباوتي، نسيت

انني احادث مغتربا محترفا لم تعد

تثيره مفاتن انثى ..اعذر بصري انه

مشتاق ليتأمل كل شيء يقع عليه

خارج قرية الثيران..

سكت محمود كما لوانه ينتظر ردة فعل ما من صاحبه ، ثم اضاف :

ـــ الا يحق لعينيي ان تنسيا نساء القرية، اللائي هن

في مظهر المتشردات ، لتستقرا على هذا الجسـد

النوراني الدافئ ..انظر ..

وبمرارة يقول بوداود :

ـ اما انا فلا يزال يشدني الحنين

الى ذهبيـــــة ..

وعندها تصدر عن محمود قهقهة مدوية كان صخبها كافيا للفت انظار الركاب القريبين منه ..وقال محاولا تفريك عينيه :

ـــ أتذكر ذهبية ؟ وانت امام هذه الفتنة ...؟؟

وهزبوداود رأسه معلقا :

ـــ لسوف تواجه ما هو افتن من هذه..الـــ...

وبالخارج اخذ مطر ينهمر، كما لو انه يعلن عن انتهاء رحلة القطار الذي خيل الى محمود انه شرع في لملمة عرباته الممتدة الى الخلف ، و بالفعل فقد تراخى هديره وتعالى صخب التصاق عجلاته بالسكة في ترتيب مزعج واخيرا توقف ليطل من احد ابوابه القريبة وجها مراقبين متتابعين،وعوضا عن التذاكر التي يظهرها الركاب اظهر بوداود ومحمود ورقتي استدعائيهما ، وهو تميز لم يفت محمود ان يسجله ، سيما وانه حاز على انتباه الحسناء السافرة ..

في نهاية الامر صار محمود طرفا يحفل به ..انها بداية طيبة استهلها ذلك الغبي بوداود بركوب حيرته ، التي افتقد محمود سببا وجيها لها ..

اقلع القطار من جديد مغادرا محطة عبور ، ومحمود لايفتأ يمعن النظر الى ورقة الاستدعاء ، ثم يضعها في جيب معطفه الخشن، ليعاود النظر اليها ، كانت ذات احرف بارزة وخاتم قاني المداد..لقد صار عسكريا ومن ذا يستطيع التطاول على العسكر ؟

ثم ولامر ما وبشديد عناية ، ظل نظر محمود يتردد بين المرأة و الورقة التي اخذ يعاود الاطلاع عليها ، ثم.يتيه بصره عبر مفاتن الحسناء ، التي كانت نصف عارية ، واخيرا اختتم حيرته بتوجيه ابتسامة نحو المجهول ..وفي لحظة تقوم احدى عينيه لاراديا بحركة غير محتشمة تجاه ..تجاه الحسناء ..فتتفل في وجهه علنا لكن من بعيد ، فيقوم غاضبا محاولا مغادرة مقعده باتجاهها وهو يرعد :

ـــ ساعلم هذه الحمقاء كيف تستقبل نظرات

الاخرين ..

ويمسك به بوداود بعنف ، والمرأة تسب وتشتم وتتوعد، و في فضول يتحرك بقية ركاب الغرفة نحو موقع الشجار .ويهدئ بوداود من روع المرأة قائلا بالفرنسية وهو لايزال قائما :

ـــ انه سريع الانفعال يا سيدتي ..هذا طبعه ..

وتهز كتفيها وهي تعيد وضع جلوسها على المقعد و تقول في حدة :

ـــ اذن كان الاحرى ان يشحن في عربة خاصة

كاي حيوان مفترس ..

وينهي بوداود كلامه بتمتمة وهويجلس :

ـــ الحمد لله انه لا يفقه فحوى كلماتها والا

كان قد اشعلها حربا شعواء على متن القطار

ثم يلتفت نحو محمود قائلا :

ـ لقد قالت لك انها ابنة معمر شهـــيـــــر

ومن ثمة وجب الاحتراز في التصرف معها

ويتراجع محمود في مكانه ، وقد ارسل زفرة حنق قوية وهويقول

لبوداود :

ـ اعرف انها ابنة احد المعمرين

اسياد الارض في زمننا

الذين رأيتهم قبل حين يعاملون

الفلاحين بالسياط كالحيوانات ..

وبالفعل كانت خضرة الحقول الممتدة الى جانبي القطار لا تعكس الا ما يذكر بعجرفة هؤلاء المعمرين وفاحش غناهم..سيارات ..جرارات ..ماكنات زراعة ..و ابنية قرميدية متباعدة قد خضعت لهندسة مشتركة ..وبعيدا منها نبتت اكواخ عمال الارض كامتداد لصفائح الفولاذ التي تشكل محيطا مشابها لمعظم بنايات قرية الثيران..

اما مجموعات العمال التي تشرذمت عبر الحقول زرفات ووحدانا.وهم .ابناء الارض الاصليون فلا شك ان جباههم قد تعفرت وهم يحملون انصاف اكياس من الحبوب في اتجاهات مختلفة في حركة تذكر بسعي النمل ..بينما احتفظت قطعان من الضان والبقر بمواقعها وهي تلتهم خصيب الارض على حواشي الطريق ..والى جانب ذلك ، تندفع عربات تجرها خيول وبغال واحمرة اعادت الى الذاكرة مشهد عربة بوحجلة والد ذهبية وحصانه الابيض . وفي حذر.تطوف نظر محمود عبر غرفة الحافلة ، الى ان بلغ مقعد السيدة الجميلة راسا ..

انها واحدة من بنات سادة الارض اللائي لاينبغي امعان النظر فيهن، وبدا لمحمود ان القطار بدوره لايسجل اية سرعة في سيره ، كما لو انه يستحم باشعة شمس بزغت من جديد ، رغم انه لم يعد في عجلة من امره كما كان عليه حاله سابقا ، مادام زمان القطار لا يزال يسمح باستراق نظرات حذرة الى هذه المراة التي انصرف بصرها نهائيا نحو النافذة القريبة منها ، وهو ما لم يحزن محمودا ولو الى حد ما ، فاين هو من حنو ابنة كولون ؟

بلغ القطار مدينة الراس ، التي استقبلتهم دفعات من عماراتها وقد اخذت تخترق شوارعها عربات تجرها خيول وسيارات رجال الكولون تكاد تستقل بالحركة العامة ، لولا ان هناك مارة واطفالا وعجزة متسولين مبعثرين عبر زوايا الارصفة ،وفتيان يقبعون خلف طاولات صغيرة الحجم مستعدون لتلميع الاحذية ..الى ان برزت كوكبة من سلاح الفرسان.تسد قارعة الشارع وهي تعبر في شبه نظام .

كان الفرسان يتفرسون في وجوه المارة ، وقد اعطى شكل هناديمهم ابعاداعسكرية وقبل ان يلتفت اليه بوداود كان محمود قد اخذ يترنم بابيات من قصيدة **" يا عودي واش بيك "** (3)

اما بوداود فقد عاد به مشهد الاحصنة الى حصان بوحجلة الذي تصهر ذهبية على رعايته واما محمود فقد كان الشاعر يتجلى له في ابرز فرسان الكوكبة التي اخذت تختفي خلف انعطاف الباحة ..لاشك ان الشاعر كان يشبه فارسا معمما يتوسط الكوكبة الان وهو يبحلق فيمن حوله بدرجة عالية من الاعتداد بالنفس ، و بخطو متزن يسير بوداود في ثبات الى جانب محمود راجلين ، وعلى كل واحد منهما جلباب بني اللون او قريب من البني..بينما انفرد محمود بعمامة غير ناصعة و نعل غير متجانس الى ان صار يعرج بعض الشئ في مشيته دون ان يشكو من

الم، فكان هندام بوداود يبدو اقرب انسجاما مع مظهر المارة من ابناء المدينة ..

وفي منتهى الشارع تراءى لهما شخص بزيه العسكري الواضح التفاصيل وبندقيته المدللة على صدره ،لقد كان ذا لياقة بدنية قد عكستها بزته العسكرية بوضوح ، الى جانب ذقنه الحليق ، وانفه الممتد في انحناءة وعينيه البارزتين..والظاهر ان وجهه يعكس ارتياحا ، وثقة في النفس الى درجة انه اخذ يقذف الحصى بمقدمة حذائه العسكري الخشن

لقد عرفاه من بعيد انه الضحاك ابن قرية الثيران الوديعة الذي اصبح يعرف بالجودام ، والجودام رتبة اكتسبها فغلبت عليه مزيحة لقب الضحاك الذي لصق به قبلها لثرثرته ، وكثرة ضحكه بمناسبة و من دون مناسبة..وكما توقع بوداود ومحمود تقدم منهما في خيلاء مكشوفة ..بل وفي الطريق اليهما اشعل سيجارة من نوع غولواز تاكيدا لاهمية موقعه كضابط صف محترف ..ثم قال موجها كلامه الى محمود :

ـــ يقول المثل البدوي :

((اذا صان الجمل لزّ لباطو)) (4)

فنظر الزميلان الى بعضهما استغرابا قبل ان يخص الجودام محمودا بكلامه هذه المرة قائلا :

ـــ لقد جئت به اذن يا محمود.اقصد ببوداود .الم

يسبق لي ان نصحت لكما بان للمجدطريقا

واحدة هي الجندية ..؟ هو ابط الجمل ..كن

جزء من البعير لتتقي شره اثناء هيجانه

والا دهسك بلارحمة...

واشار الى اشرطة ذراعه التي تمثل رتبته العسكرية كمساعد ..ثم توقف عن الكلام وهو يلتفت الى بوداود ويقول :

ـــ ان معرفتك باللغة الفرنسية كمغترب سابق

ستتيح لك مستقبلا زاهرا في صفوف الجيش

الفرنسي ..

ثم ضحك الجودام وهو يكمل :

ـــ عكس محمود طبعا ..

وضحكوا جميعا وقد اخذوا يتعانقون ..والجودام يسالهما عن احوال القرية .كان محمود و بوداود يدركان ان تباهي الجودام بالجندية لا يخفي جديدا .فهو معروف بذلك حتى لدى اطفال قرية ثيران ..

واثناء الطريق سال الجودام محمودا وهم يسيرون جنبا الى جنب :

ـــ من منكما صاحب الفكرة ؟

وضحك محمود مجيبا في اعتزاز :

ـــ انا طبعا ، والا ما قبل بها بوداود..

قال محمود ذلك دون ان يشير الى خاله الصواف بطبيعة الحال..بل ولا حتى الى القائد كصاحب دعوة ..وعاود الجودام تقبيل بوداود على راسه هذه المرة ..ثم واصلوا سيرهم في صمت نحو المتصرفية التي يشرف على أمنها الخارجي من خلال مجموعة من الاعوان وضعوا تحت امرته ، كان بوداود لايزال يحفظ للجودام تعاطفه مع ابناء القرية ، وشجاعته في الدفاع عنهم ،امام غضبة القائد او نقمة المتصرف المحلي الفرنسي ..ويتساءل في قرارته ، كيف يتسنى له ذلك دون ان يثير سخط الرجلين عليه ؟

بلغوا باب المتصرفية ورد الجودام على تحية الحارس وهو في الطريق الى مكتب يقع بالممر الاوسع وخلفه بوداود ثم محمود .و بذلك المكتب تسلم بوداود وثيقة حسن سلوك من يد سيدة ذات قوام جذاب في حوالي الاربعين من عمرها فتقدم الجودام مغتنما الفرصة ليقول لبوداود :

ـــ السيدة (فيرجين) حرمنا .

وبادل بوداود زميله نظرة اعجاب ثم ابتسم وقال له بلغة فرنسية حتى لايشعر السيدة بانهما ربما يتحدثان عنها بسوء :

: ـــ هكذا يا حضرة تتزوج دون ان تعلم

قرية الثيران بزواجك ؟

وبمعزل عن انغام الزرنة و كوكبات الفرسان ؟

وتعمد ان يخاطبه بحضرة ليعلي من شانه مادام الحديث يجري بحضور زوجته .. فقال الجودام معتدا بنفسه كعادته :

ـ كنا في عجلة من امرنا وكانت

تلك ارادة السيدين المتصرف والقايد ..

عندها قالت زوجة الجودام لبوداود دون ان ترفع راسها عن الوثائق التى امامها :

ـ ثم انكم لا تحتفلون بزواج الارملة ..

وحين حاول بوداود ان يجيبها اشار اليه الجودام بعدم الخوض في الموضوع .. فاستلم ورقته وخطى خطوتين الى الوراء ليفسح المجال لمحمود الذي كان ينتظر الدور خارج الغرفة ..

كان الجودام قد تزوج من الارملة الفرنسية (فيرجين) الموظفة لدى المتصرفية وهي امراة حسناء اصبحت تربطها علاقة اكثر من مهنية بالمتصرف المحلي (لوران) منذ ان فقدت زوجها الملازم (ادوارد) في الثورة السورية ضد الانتداب الفرنسي عام 1925 صحيح ان الارملة الحسناء اصرت على رفضها الزواج من واحد ينتمي الى قتلة زوجها بشكل او باخرلكن (لوران) كان من الحكمة بحيث طمانها الى الفروق القائمة بين الوضعين. وبصرف النظر عن الاخبار التي تساق كمبررات واسباب لنيل الجودام هذه الرتبة فالظاهر ان الامر تم

اثر تمكنه من المشاركة في فترة تدريب عسكري بتزكية مشفوعة بهبات من القايد (ولد المخالفي) حصل بفضلها على *رتبته العسكرية لكن المتفق عليه ان حظوته لم تعرف طريقها الى المتصرف المحلي* الا بعد ان اصبح زوجا للارملة (فيرجين) التي كانت وراء نقله من حياة الثكنة العسكرية الى حياة شبه مدنية وهي الاشراف على امن المتصرفية .فاعطى زواجها من الجودام هذا الاخير حظوة واية حظوة لدى المتصرف " لوران " الذي يعرف في اوساط الاهالي باسم (بونيف) لانه ذو انف طويل ،فضلا عن القايد وزمرته ..

وبعد ان تم تدوين اسميهما كملتحقين بالجيش من باب اشعار المتصرف لقي مسعاهما ترحيبا مباشرا من القائد الذي حضر المناسبة لاحقا، ثم من المتصرف شخصيا حين ادخلا عليه بامر منه ضمن طائفة ممن هم بصدد الالتحاق بالجيش وهال محمود ان يكتفي هذا المتصرف بارتداء لباس لا يليق الا بفصل الصيف وعلق القائد وعيناه متجهتان نحو المتصرف :

ـــ هذا هو الطريق الصحيح لانتشال

شباب الريف من ضائقتهم يا سيدي .

.

فهز المتصرف رأسه موافقا دون ان ينبس ببنت شفة ، فظن القائد انه اكتفى بما صدرعنه هو كقائد مستحسنا وجهة نظره لكنه ما ان امتثل المجندون امامه حتى قال مكملا كلام القائد ظنا منه انه لايوجد من بينهم من يحسن لغته :

ـــ ولنتجنب ثورة هذا الشباب المهمش ايضا..

ودون ان يرد صراحة لم يفوّت بوداود تعليق المتصرف بل احتفظ به في نفسه الى ان غادر الشابان مقر المتصرفية فابلغ به محمودا الذي يبدو ان امرا اخر كان يشغله . اذ اخذ يقول في ذهول :

ـــ انها هي ؟ انها هي ؟

وساله بوداود :

ـــ من تعني ..؟

ـــ حسناء الحافلة ..هي من ناولتنا الاوراق

قبل حين ..

و اندهش بوداود :

ـــ من تعني ؟ زوجة الجودام ..؟

وتوقف محمود كما لو انه اصيب بمغص مفاجئ وهو يردد كلمة زميله متعجبا. ثم قال بصوت مرتفع حملته المفاجاة بعيدا:

ـــ وهل تلك هي زوجته ؟

ـــ اجل ..

وقص عليه بوداود ما بدر منها من كلام معه ..فقال محمود في شبه استسلام وذهول:

ــ ياله من داهية اصاب عصفورين بحجر

رتبة جودام ثم حسناء المدينة ..

عندها ضحك بوداود وهو يقول :

ــ وانت من ظل يعتقد ان حسناء

الحافلة هي نهاية الحسان..

التحق بوداود ومحمود باحدى ثكنات التدريب العسكري خارج مدينة الراس فمكثا بها شهورا ، ليتم توجيههما بصورة تكاد تكون نهائية الى احدى كتائب المشاة وهو فصل اخر في حياتيهما ..كان من المع ضباط الصف في هذه الكتيبة العريف اندريه المتجهم القصير القامة المنتفخ البطن نوعا ما ، الدائب الحركة الحليق الذقن دائما، السريع الغضب على ما يبدو ..ثم الرقيب الاول انطوان وهو رشيق وسيم طويل القامة ..اشد شقرة من اندريه ، وهو عكسه تماما من حيث الرزانة والهدوء ، وحسن المعاملة ..وضباط صف وجنود اخرون سوف يتعرف عليهم بوداود ومحمود مثل الرقيب بول والجنديين جوفر وجورج واخرين وكانت فرحة محمود وبوداود اكبر لوجود عبد الكبير المراكشي ذي الاصول المغربية والسابعي القفصي ذي الاب التونسي والام الجزائرية بين جنود الكتيبة ..

وبحكم طبيعته الانفعالية ،دخل محمود الحياة العسكرية وهو دائم الشجار مع بقية الجنود وضباط الصف ، بحيث بدا منذ الوهلة الاولى ذا سلوك عصبي غير متسامح ، وقد ضبط في اكثرمن صدام ، سواء في المطعم او على متن عربات نقل الجند ، او بحديقة الثكنة او بناديها الذي يسمى حانة او ملهى ، بل و قضى بعض لياليه الاولى بسجن الثكنة بعيد التحاقه بها بايام فقط كنوع من الاستقبال الاستثنائي خصته به على انفراد في غير ترحاب ،وكان سبب هذا العقاب التاديبي لكمة وجهها الى احد الجنود مختتما بها عراكه معه لمجرد ان هذا العسكري اخذ يتمتم بكلمات وهو ينظر اليه فاعتقد انه يعنيه بكلام لا يفهمه، قبل ان يشكل توجيهه لهذه المهمة او تلك بالمطبخ او دورة المياه او الحديقة مثار غضب وتهديد بل و مصارعة احيانا مع من يصدر اليه هذه الاوامر التي اخذت طور الاستفزاز في نظره ..

ان الذي يشغل بال بوداود ، ان محمودا ، وان كان صعب القياد غير انه لم يكن بكل هذه العدوانية ايام القرية ، صحيح انه متهور ..مندفع ..صارم ..لكن ليس الى هذا الحد الذي يعايشه بوداود كل صباح ،وحين نصحه بالاتزان صاح فيه غاضبا :

ــ لن اسمح لاجنبي باحتقاري

لانني لم اتعود على ذلك يا بوداود

وتراجعت رغبة بوداود في مجاراة زميله ، وقد كان من الذكاء بحيث لجأ الى اسلوب اخر حين قال له :

ــ الم تكن تطمح الى بلوغ رتبة عليا في الجيش ؟

وابتسم محمود قائلا :

ــ بلى ..وهذا من حقي ..الى جانب تحقيق

الهدف الذي تعرفه ..

وابتسم بوداود وهو ينظر الى الافق :

ــ تعني نصيحة خالك الصواف ؟

ــ اجل..

ــ وهل ستبلغ رتبة عليا بهذه الطريقة في التعامل ؟

وجلس محمود متسائلا في صدق:

ــ لاادري يا بوداود ...لا ادري ..ولكن الا ترى

الى ذلك المتعجرف اندريه كيف يعاملك لدونما سبب ؟

كانت شخصية بوداود على النقيض من محمود تماما ، بحيث يغلب عليها طابع التأمل والنزوع الى اعتزال الناس ، وشرود الذهن ، ولعل لذلك ما لبث العريف اندريه ان صار يضيق بكل مجلس يكون بوداود طرفا فيه ..بل ويسند اليه اشق الاعمال كتنقية الحديقة ، وصيانة الشاحنات بالمراب ، فضلا عن تنظيف المطبخ والحراسة المضعفة..بالامس قال له حين صادفه :

ــ لن تصير عسكريا بهذه الرخاوة مهما حاولت

فنظر اليه بوداود من داخل العمل الذي يقوم به في صمت ، ليضيف اندريه :

ـــ الاحرى بك ان تصير شاعرا يا صديقي

فالشرود والرقة لا يطلقان الرصاص ، فضلا

عن انهما يستقبلانه ..

وقاطعه الرقيب الاول انطوان وقد اقبل من بعيد وسمع كلماته لانها كانت عمدا ذات جرس مرتفع :

ــ ربما صار كارنست هيمنغواي ، او تولستوي

من يدري ؟ فالرجلان لم يمنعهما نبوغهما الشعري

من ان يصيرا عسكريين بامتياز يا عريف اندريه

فالعبقرية كل لا يتجزأ كما يقول اهل القول ..

بوداود يدرك ان الرقيب الاول انطوان جاد في ما يقول، فهو رجل مثقف وودود و صداقته ببوداود في تنام مطرد ..بحيث صارا لايقضيان اوقات الفراغ الا معا ..

وما ان بلغهما انطوان حتى سال :

ـــ ولكن اين الملاكم الشرس ؟

فاجاب العريف اندريه :

ـــ تعني محمودا ؟ ..انه هناك ..ضمن الحلقة ..

ان الجميل فيه انه لايعيش الا ضمن جماعة

كانسان سوي على الاقل ، غير متوحد ..

و في صمت فهم بوداود تعريض اندريه وهو يتلقى اوامر صديقه انطوان بالكف عن العمل منفردا ،وفي حين تزوى اندريه في صمت ظل بوداود ينظر الى انطوان الذي اخذ يدعو محمودا للحضور فاقبل مؤديا التحية باشارة من يده كما يتقنها ، ليبادره انطوان :

ـــ هيه..هل من مبارزة اليوم ؟

..كـــم بلغ عدد ضحاياك ؟

وهم بوداود بترجمة سؤال االرقيب الاول الى محمود لكن العريف اندريه حاول ان ينتهره ، قبل ان يدعوه انطوان اليه،فيسرع نحوه ويمثل الى جانب محمود، بينما ينصرف اندريه فيقول انطوان في دعابة :

ـــ انت ملاكم وبوداود شاعر فكيف التقيتما؟

ويسمح بوداود لنفسه بالقول :

ـــ تماما كما يلتقي الرزين

انطوان ، بالمندفع اندريه

فيضحك انطوان ويامرهما بالانصراف الى حيث بقية الجنود ..وبخارج المطبخ يقول انطوان لاندريه :

ـــ ترفق بهذا الثنائي الظريف يا كابرال

فيهز العريف اندريه راسه مبتسما ، وعيناه تعكسان ضد ما يضمر .

اوكتافيا :

بعد ان قضى بوداود وزميله اياما بالثكنة اخذا يتأقلمان مع ظروف الحياة فيها .فعلما ان منتهى اقصى زواياها يشكل ناديا للضباط ، واما احد اجنحتها الخارجية فعبارة عن حانة ممتدة الواجهة..ورغم انـــــها اشتهرت هي الاخرى باسم النادي الا انها في حقيقة الامر، ملهى يؤمه افراد الثكنة طبعا بدون تميز ظاهر، وقد استمد الجلوس بهذا المكان عمق جاذبيته من جناح اللذة وهو عبارة عن ماخور يقع بجواره ، سيما حين تسطع انواره رجراجة ليلا من خلف رواق زجاجي عاكس لاطياف مومسات شبه عاريات يتعمدن بغنجهن و منتهى دلالهن ، الهاب اخيلة المشاهديـن من رواد الملهى العسكري ، والى جانب الملهى توجد الحانة التي رغم طابعها العسكري الذي ترمز اليه صورة ضخمة لبطلة المقاومة الفرنسية جاندارك وهي تتوسط احد جدران اكبر اروقتها ، لم تخل رفوف الحانة من صور قنن خمر متنوعة عالية الجودة ، الى جانب صور اجساد عارية توزع مفاتن الانوثة على الاعين وسط انغام صاخبة تنبعث من احدى الزوايا ،

.وقبل ان يقوما بزيارة على الطبيعة الى جناح بائعات الهوى علم بوداود ومحمود ان من ألمع جميلاته ، اوكتافيا والفتاة ماري ، وكلوديا ،وجوليات وقييمة الماخور هيلين واخريات..فاوكتافيا كانت من اصول شمالية وهي الاجمل في هذا الجناح ، جناح بائعات الهوى كما اصبح يسميه محمود ،اوجناح الحريم كما يحلو لبوداود وعبد الكبير المراكشي ان يسمياه .لكن زميلهم السابعي القفصي ظل ينعته بجحر الافاعي اما الرقيب الاول انطوان فقد اطلق عليه جناح الفاتنات قائلا :

ـــ كيف تتغزلون بجمالهن ثم تطلقون على

جناحهن اسوأ الاوصاف ؟

وعلى انفراد جرى حوار بين محمود و زميله بوداود ، قال محمود :

ـــ قيل ان فتاتين من بنات من يسميهم الجنود الفرنسيون
بالاهالي توجدان ضمن مومسات جناج

هذه الثكنة احداهما تدعى حلقية وتدعى الاخرى ببنت

لبعيد..؟

فاجاب بوداود في لامبالاة :

ـــ قد يحدث ..

وصعق محمود صارخا :

ـــ وتقولها بكل هذه البرودة ؟

وقال بوداود بانفعال هذه المرة على غيرعادته :

ــ الا يوجد مومسات في كل المواخير خارج الثكنة ؟

ــ لكن لسن موجهات حصرا لامتاع جنود اجانب ..

وضحك بوداود :

ــ لاتردد كلمة اجانب هذه انهم يرفضونها وقد تعاقب..

واحتد محمود وقال :

ـ ومنهم اذن ؟

وادنا بوداود فمه من اذن محمود وهو يهمس له :

ــ انا معك في كل هذا ..لكن لا تصرح

به جهرة فنحن لسنا في الشارع..

او في قرية الثيران يا محمود..

ولما زارا جناح الهوى ليلا ابهرهما وسط موسيقي تلفه الانوار من كل جانب ، فضل ثلاثة جنود سكارى ان يرقصوا ترنحا ببهوه على ايقاع موسيقا اوربية خفيفة ،.وكان الى جانبهم رجل قصير القوام قد شرع في رقص مميز عن حركاتهم نوعا ما فافتك منظره من بوداود ومحمود ضحكات متقطعة ، بل واطلق عليه محمود اسما سيشتهر به داخل الثكنة اكثر من اسمه الحقيقي وهوالقنفذ، لانه كان اثناء الرقص يندفع براسه الى الامام في حين يتقهقر صدره وبقية جسمه نحو الخلف ، فاعطى ذلك سحنته القصيرة جدا شبها بالقنفذ ..

وبمرور الايام اصبح ثلاثتهم وهم جورج وبول و جوفر الى جانب بوداود ومحمود وعبد الكبير المراكشي والسابعي القفصي يشكلون دائما حلقة منفردة داخل الحانة ، وكان محمود وعبد الكبيرلايزالان يجسدان الاستثناء في الامتناع عن تناول الخمرة وغالبا ما قال الرقيب الاول انطوان لمحمود وهو يستفزه :

ــ اشرب ياخي..لا توجد امة

كانت تحفل بالخمرة مثلكم ..

فضحك محمود و قاطعه عبد الكبير معترضا على انطوان بقوله :

ـ لعلك تقصد الماضي السحيق يا حضرة.

لقد صاروا زملاء وتميزت حلقتهم بصداقة بوداود للرقيب الاول انطوان الذي اصبح يشاركهم سمرهم واحاديثهم التي تدور غالبا حول مومسات الجناح، وانتقاد سلوكات واقوال بعض الضباط وضباط الصف ، و المفاضلة بين انواع الخمور ،بينما يفضل الجندي جوفر تقليد صوت العقيد (بيار) المتسم بالتلعثم وبرقة المخارج كصوت انثوي فكان يتقنه في سخرية لاذعة، وقد تمكن هذا الجندي من حذق خصوصية نبرات الصوت نتيجة ملازمته لقائد الكتيبة ، كحامل لجهاز اللاسلكي الذي يستخدمه هذا العقيد،اثناء المناورات والعمليات العسكرية بوجه عام، وكان هذا الجندي قد اخذ اسم جوفر من العقيد بيار الى ان صار معروفا به في اوساط الجند بل ان بعضهم فضل ان يناديه بالمرشال اختصارا، لانه كان في نظر العقيد بيار

يشبه المارشال جوفر الذي هزم الالمان على نهر المارن في ايلول 1914 ..

وفي الوقت الذي كان فيه محمود لا يلقي بالا لفلسفة انطوان، كان بوداود شديد الاهتمام بهذه الفلسفة تساعده معرفته باللغة ورغبته في الالمام بما يصرفه عن الهم الشخصي ، فمن احاديث انطوان الموسوعية بعض تاريخ الحروب ، كحرب طروادة ، ومعركة المدينة اليونانية اكسيوم التي جعلت اوكتافيان (أغسطس) الزعيم الاوحد للدولة الرومانية

وبسالة جاندارك وظروف الحرب العالمية الاولى ، ..بل انه يتحدث حتى عن جوانب من حروب ومواقف صلاح الدين الايوبي ومقاومة الامير عبد القادر الجزائري ، وعمر المختار الليبي، و السوري يوسف العظمة وكل ذلك ادى الى صقل شحصية بوداود ، وتعلقه بروائع ما مضى .

ولانه يريد ان يتعمق في الفهم ، غالبا ما واجهه انطوان باعتراضه :

ـــ لكم صرت تكثر من الاسئلة يا صديقي

ولتنوع معلوماته الحربية كان يمازحه بوداود بقوله :

ـــ من انت؟

ثم يضيف :

ـــ من يصدق انك مجرد رقيب اول في الجيش ؟

فيضحك انطوان بصخب ويقول :

ـــ بل انا عقيد نُزّلت رتبته العسكرية

نتيجة ارتكابي جريرة ما ..

انطوان في هذه الليلة يتخلف عن الحلقة، كان الذي حضر بدلا عنه هو العريف اندريه الثقيل الظل ، فأساء الجميع مقدمه على غير عادة منه ..و من تعرّج خطوه يبدو ثملا، ومن ثمة تواصى الرفاق بعدم ايلاء استفزازه أي مبالاة ..

قال متلعثما دون ان يفكر في الجلوس:

ـــ يبدو ان البعض قد نسي انتسابه

الى البادية واخذ يتصرف كما لو انه من مواليد

.مدينة ليون أو تولوز

فسأله عبد الكبير ساخرا:

ـــ من تعني يا كابرال ؟

فهمزه اندريه بمرفقه قائلا بصعوبة :

ـــ دع الكلام لمن اقصده يا احمق مراكش

وعندها نظر محمود الى بوداود بغضب ثم قال :

ـــ ما رأيك؟

ـــ حذار إنها مكيدة مدبرة

وقال بوداود لاندريه ببرودة اعصاب :

ـــ تفضل اشرب شيئا يا كابورال

فقال وهو يربت على كتفه :

ـــ ويعجبني الكرم البدوي ..أيضا ..

. .انتظرني فسأعود..

وقبل أن يواصل طريقه نحو الجهة المفضية الى جناح الهوى التفت اندريه نحو الحلقة وهو يقول بلسان اثقل من ذي قبل ، موجها كلامه الى بوداود ومحمود :

ـــ وعاليا اقدر انضباطكما العسكري حين يتعلق

الامر بفارق الرتبة العسكرية بيننا هههههههه

فانتما جنديان بسيطان وستظلان لان

جيشنا لايمنح رتبه للغرباء..

و انفجر ضاحكا الى ان اختل توازنه واخذ يترنح ثم اختفى مع الرواق

بعد ذلك بقليل ، فادرك الجميع انه في طريقه الى مخدع جوليات ، المرأة النحيلة الممتدة القوام ، الشغوفة بالتهام قطع الحلوى على طريقة الاطفال ،وكان العريف الثمل معتزا بجوليات مفاخرا باصولها الفرنسية ..بل ويناديها بالغولوازية .

انصرف افراد حلقة السمر الى مراقدهم تباعا وكعادته تخلف بوداود منتظرا مجئ الرقيب الاول انطوان ليواصلا سمرهما لبعض الوقت منفردين كالعادة ، وعوض ان يحضر انطوان حضرت حلقية تتهادى في ثوب ليلي مريّش الاكمام كاحدى بنات الباشاوات ..فحياها بوداود قبل ان تحييه . وترتمي الى جانبه على المقعد الموالي وقالت وعيناها السودوان تحاصرانه :

ـ بوداود.. هل تعرف قصتي..

ـــ اية قصة ؟

ـــ قصة التحاقي بهذا الجناح..

فنفث بوداود دخان سيجارته بعيدا وقال في لامبالاة :

ـــ وهل علي ان اعرفها ؟

فقالت في شبه غضب :

ــ ولكن ذلك المخبول محمود

عليه ان يعرفها من خلالك

ـ طيب وهل لبنت لبعيد قصة هي اخرى ؟

ــ ذلك امر يعنيها..

قالتها وقد شرعت عيناها في ارسال دفعات اولى من الدموع ..مما اذهل بوداود الذي قال :

ــ وتبكين ؟

قالت :

ــ وهل بيدي غير البكاء..؟

ــ طيب وما هي قصتك ؟

وسالها وهو يتمعن في وجهها كما لو انه يراه لاول مرة ،كانت حلقية ذات سمرة محببة ملفتة ، تكتسب ملامحها جاذبية رغم نحالة عودها ونزوع قامتها الى الطول ، فهي واسعة العينين ممتدة الانف نوعاما دقيقة الشفاه مرفوعة العنق غرابية الشعرخفيفة الروح وبذلك تمثل عينة نادرة من عينات الجمال في جناح الفاتنات الذي تغلب عليه الشقرة ..اعاد بوداود اشعال لفافة اخرى من لفائفه واحسن الاستماع اليها كمخبر يلتقط وقائع جريمة حدثت في غيابه ..

ولدت حلقية بين احضان الريف الزراعي الاخضر باحدى القرى القريبة من مدينة الراس ولم تلبث ان صارت وحيدة ابيها بعد وفاة والدتها بمرض السل وكان والدها مزارعا يمتلك حقل حبوب بالاضافة الى مزرعة مزدانة باشجار الفواكه الى ان وضعت اجراءات تمليك المعمرين الاوربيين موضع التنفيذ فطلب منه احد كبار هؤلاء وكان من اصول اسبانية التنازل عن ارضه مقابل مبلغ من المال يحدده المشتري وليس البائع على ان يحتفظ به على وجه الاولوية كعامل اجير في المزرعة لدى المعمر..فرفض والدها العرض من اساسه ولما اصدر المعمر اوامره الى جراراته وعرباته لتقتحم تلك الارض ما كان من ابي حلقية الا ان اشهر خنجره و طعن ابن المعمر الذي حاول منعه من اعتراض طريق احد الجرارات المهاجمة لارضه .فسقط المعمر الابن جريحا والقي القبض على والد حلقية فاودع السجن بعيدا عن اية محاكمة وتم استلاب الارض و سبي حلقية الى منزل المعمر كخادمة فقضت شهورا هناك الى ان كان يوم غادرت فيه زوجة المعمر وهي يهودية الى المدينة في مهمة عائلية و لم تترك بمنزلها الريفي سوى ابنها الشاب الذي كان قد تعافى من الطعنة وحلقية الخادمة فرأى الفرصة سانحة لاغتصابها انتقاما للطعنة التي تلقاها من والدها يوم اقتحام المزرعة فاقدم على فعلته متجاهلا دموعها وتذللها و محاولاتها صده بعنف، على اثر ذلك تركت منزل المعمر حافية نحو المجهول الى ان تمكنت من بلوغ مدينة الراس وهناك ولما ضاقت بها السبل دلتها بعضهن على سيدة تدعى (الرومية) ربما لشقرتها المفتعلة رغم كبر سنها لتكتشف حلقية انها تمتهن المتاجرة في الفتيات الهائمات على وجوههن ، من خلال تسخيرهن للدعارة بمنزلها فلم تر بدا من قضاء بضعة اشهر عندها كانت بالنسبة اليها فترة تكوين قصري..

والى هنا سكتت كما لو انها تعطي بوداود الفرصة ليصحح كلمتها الاخيرة بقوله :

ـ بل لعلها فترة محو ضمير ..

فابتسمت ولم تعلق بل واصلت حديثها ، ولان منزل(الرومية) كان مفتوحا على مختلف الزبائن فقد مكنها ذلك من ربط عدة علاقات مع جنود وضباط مما سهل مهمة نقل حلقية الى جناح الفاتنات بالثكنة العسكرية ..حدث كل ذلك وابوها السجين لا يعلم من امرها شيئا ..

وانتهت حلقية الى ان ما فعله بها ابن المعمر الاسباني جاء نتيجة تحريض من والدته اليهودية التي كانت تمقت حلقية وتمعن في اذلالها وتنتهر ابنها عن اي معاملة تشتم منها رافة بالخادمة السوداء كما كانت تسميها.. لان الشاب كان يعامل حلقية معاملة محترمة فيزعج ذلك والدته التي تندفع الى مؤاخذته بقولها :

ـ .تضاحكها كما لو انها من عرقك او طبقتك

ثم تقاسمها الحلويات كاختك ايها الغبي.

.ازجرها لتغرب من امامي..الخ.

ولما احست انها افرغت ما ظل يشغلها انصرفت حلقية ،

ولم يحضر الرقيب الاول انطوان الا بعد مدة من الانتظار غير انه ما ان حيا بوداود حتى علق هذا الاخير في دخيلته : " انه يبدو سعيدا في هذه الليلة اكثر من ذي قبل ".. علق بوداود في نفسه واخذ يدعو النادل لتلبية أي طلب لزميله الحميم الذي اخذ مكانه قريبا منه لكنه فوجئ بانطوان يقول للنادل :

ـ ائتني بعشر من الجعة دفعة واحدة

فاعترض بوداود :

ـ كثيرة في مثل هذا الوقت

المتأخر يا "مون سرجان شاف"

وابتسم في وجهه ثم قال وهو يدلك يديه :

ـــ شراب الفرح لايضير يا صديقي

ـــ فرح ؟

وقال فزعا :

ـــ ارجوك لا تسالني ..

وسكت بوداود مطيلا السكوت وهو يعتقد ان زميله يكون قد تلقى كلمات من حبيبته الالزاسية دغدغت عواطفه سيما وانها قاطعته منذ ايام بعد ان تغاضبا ..

تناول انطوان اولى القنن في جرعة واحدة وقال مؤكدا باشارة من يده :

ـ انا فرح..

قالها وانزوى في صمته خلف القنن المتناثرة امامه تاركا بوداود يطرق ابواب الاحتمال .. فهو قد حدثه مرارا عن فتاة احلامه التي تركها باحدى قرى الالزاس مسقط رأسه ..وبوداود

شاهد صورها المرفقة برسائل موجهة الى الرقيب الاول الوديع كما حدثه عن خليلة له توجد بباريس من اصل جرماني ..لكن ..ما الجديد الذي يبعث الفرح في نفسه بشان هذه او تلك الى هذا الحد؟ فكل الذي يدركه بوداود ان انطوان يبدو سعيدا لسبب ما ..

لم يعد انفراد الرقيب الاول انطوان ببوداود يثير غرابة احد ولا حتى العريف اندريه الفظ ..فهما اما **يحتسيان** خمرا اويتناولان قهوة او يخوضان في حديث ثنائي وقد عقدت سجارتاهما ما يشبه قطعا من سحاب يتهادى فوق مجلسهما ، لقد اصبح بوداود اقرب الجند الى انطوان بحيث لايكادان يفترقان ..وهي صداقة سرعان ما عللها العريف اندريه بتجانس نزعة الانكفاء لدى كليهما ..بل ان هيلين قييمة جناح اللذة وهي امراة تجاوزت عقدها الرابع من عمرها اقبلت عليهما الليلة وهي تصطحب الفتاة ماري ذات الخصلة البيضاء التي تتوسط ناصيتها وقد اصبحت هيلين تخص بوداود ببعض لطفها ربما نتيجة زمالته لانطوان الجذاب ، فاتكات على جانب الطاولة التي يجلسان اليها بينما فضلت ماري الوقوف الى جانبها ثم قالت هيلين لبوداود :

ـــ يبدو ان الفتاة اوكتافيا تهيم بك يا بوداود.

ساعتها حدثهما انطوان عن اوكتافيا اخت الامبراطور اوكتافيان (اغسطس) و حرم انطونيو عشيق كيليباترا ملكة مصر وزوجها..ومنذ ذلك الحين ادركت المومس اوكتافيا سر شهرة هذا الاسم في التاريخ ..

بعد ذلك وجه بوداود كلامه الى هيلين ردا على افادتها :

ـــ المسألة ليست فيمن تهيم ببوداود يا هيلين..

وشرقت بضحكها الى ان اخذت جرعة من قنينة انطوان وهي تقول :

.ـــ لاتكمل انني اعرف الباقي

فقال لها بوداود ضاحكا :

ـ وانت بمن تهيمين ؟

قالت وقنينة انطوان لاتزال بيدها مما اضطره الى فتح قنينة اخرى :

ـــ ان اردت الحقيقة فالفتاة ماري معجبة بمحمود..

وانفجر انطوان ضاحكا ظنا منه انهما تستهزئان بمحمود وقال :

ـ اه.. ليته كان معنا وسمع كلامك يا هيلين ..

فقالت الفتاة ماري جادة :

ـ لماذا ؟ ..بصراحة انا احب فيه كل ما تنكرونه عليه ..

انه طراز فريد..

فقال لها انطوان :

ـ ولكن محمودا متعلق باحاديثي عن ايفا براون

عشيقة الفوهرر او حرمه ..

فقالت ماري في ثقة وهي تطقطق كعبها :

ـ تلك احاديث فحسب ..يا حضرة

ثم تركت هيلين انطوان ودنت من بوداود وقالت مازحة كما لو انها استدركت :

ــ هل في امكاني أن أبلغ الفتاة اوكتافيا

نص حكمتك الخالدة تلك؟

وشارك انطوان الثلاثة ضحكهم هذه المرة..ثم قال الرقيب الاول شبه جاد :

ــ كيف تغضب اوكتافيا وهي أخت امبراطور

وزوجة قائد كبير ؟

انصرفت الفتاتان الى مخدعيهما وقد تكاثرت فزازات الخمر الفارغة امام انطوان على الطاولة بينما اكتفى بوداود برشف جرعات بطيئة من فنجان قهوة كان امامه ثم اخذ يعاود قراءة اخر رسالة تلقاها من والده ردا على رسالة منه ..كان الوالد يجدد رفضه لانتساب بوداود الى جيش فرنسا حتى بعد فوات الاوان مما اعاد الى ذهن بوداود حدة الصراع الذي نشب بينهما حول هذه المسالة قبل ان يقدم على التجند مستبدا برأيه ..

وقال معلقا :

ــ هذا المجنون يشتم الفرنسيين معتقدا ان الرسائل

الموجهة الى الجنود لا تراقب ولا تقرأ؟

فاكتفى انطوان بالابتسام، وكان في اول الامر قد انتهر بوداود حين اخبره بانه اخفى امر تجنده عن والده.غير انه منذ ذلك الحين لم يعد الى ابداء اي راي بخصوص مسالة قد انتهت ثم انها صارت في عداد الامور العائلية التي لا تهم الا صديقه ووالده..

الى هنا كان بعض من تخلفوا من الجنود قد انهوا شرابهم ، وطغى تثاؤب على الاحاديث فاخذ البعض يتسلل نحوغرف النوم ، ايضا العائدون من جناح اللذة قل سيلانهم..بعد ان خفت صوت الموسيقا، و صار النور ذاته باهتا ..مع اقتراب ساعة النوم ، بينما لا يزال انطوان على وضعه كما لو انه غير معنى بتسرب الليل من حوله وبطبيعة الحال واصل بوداود سمره معه فكانا كنديمين يراهنان على الاحتفاظ بوضعهما الى ساعة ابعد سيما وانهما سيستقبلان غدا عطلة الاسبوع.

كلمات انطوان لاتفتأ تشد تفكير بوداود ..لقد صار هذا السرجان شاف الوسيم ، غريب الاطوار ..فهو منذ فترة مضت اعتزل الحلقة بل انه لا يزور الحانة الا في النادر ليحتسي بعض خمرها واقفا وعلى عجل مكتفيا بتحية بوداود من بعيد..حتى ان رواد حلقات الليل تبادلوا دهشتهم فيما بينهم وما من مجيب..

ولان بوداود ينظر الى نفسه كمتضرر قبل غيره من بعض ما طرأ على سلوك انطوان نحو جماعته الصغيرة ، سمح هذه الليلة لنفسه باستفساره غير انه لم يزد على ان اجابه متنهدا في ضيق :

ــ إنه الشغل يا بوداود.الشغل انت تعرف

أن جلساتك لايصرفني عنها الا هـــذا

الشغل اللعين

ويحتار بوداود في أمر هذا الشغل الذي يدعيه انطوان ،في وقت يتمتع فيه ضباط يعلونه رتبة بكامل الراحة و باوقات فراغ اطول .

ثم ان بوداود ليذكر حوارا جرى بين الزملاء في غياب انطوان

قال فيه الرقيب بول :

ـ ماذا حدث لانطوان؟

فاجاب محمود وقد وصلته كلمة بول عن طريق بوداود :

ــ لا ادري والله

وقال جوفر :

ـ لعله تفطن الى ان معظمنا لسنا من جنس رتبته

العسكرية فلا يوجد من بيننا الا ضابط صف

واحد هو انت يا بول

وكمن تذكر شيئا سال الرقيب بول بوداود :

ـ هل تخاصمتما

ونفى بوداود وهو يضحك :

ـ أبدا لو اخاصم الجميع ما خاصمت انطوان

وقال مامادو الذي التحق بحلقتهم في غضون الايام القليلة الماضية فقط وهو من زنوج إفريقيا :

ـ انطوان شاب مهذب وظريف ..وفوق ذلك هو واسع المعرفة.

. لقد أفدنا من سعة اطلاعه كما لو كان معلما

فعلا ومن هنا اضرغيابه المفاجئ بحلقتنا

الفصل الرابع :

الفتاة ماري

استمرت حلقة الحانة التي اصبح انتظامها كل ليلة تقليدا راسخا في الثكنة.كما لو انها تتوج اعمالا خارجية يقوم بها الافراد ومنها الدوريات العسكرية خارج المدينة،ومناورات برية تقتضيها الحياة العسكرية بسفح جبل مجاور تقع بالقرب منه تلال شبه كلسية اعد بوسطها ميدان فسيح للتدريب على الرماية ، حيث اثبت محمود جدارته في الرمي بالمسدس، الى ان صار يعرف في المعسكر باسم (الكوبوي او شريف) بل ان معظم الجند لاينادونه الا بهذا الاسم..

وكان غالبا ما يقول له بوداود حين يغادر الجند ميدان الرماية :

ــ اه..لو ان خالك الصواف يحضر تتويجك

كاحسن رام في الميدان

فيجيب محمود :

ــ اسكت ..الم اقل لك انه سر وانني اقسمت على

المصحف الشريف مقابل ان يفضي به خالي الي؟

صار محمود مهاب الجانب اذن، لاسيما بجناح الهوى حيث احدث اكثر من رجة في الهزيع الاخير من الليل ،بل ان المهقاء ماري غالبا ما شوهدت وهي تستلطفه لاتفه الاسباب ، وبلغ بها الامر ان صارت تتحاشى التعامل مع غيره في وجوده لكيلا يفهم ذلك على انه من باب استفزازه ..ورغم ذلك كان يتعمد تصويب كلمات جارحة اليها كأن يقول لها ان اوكتافيا و كلوديا اجمل منها وان مهقك من الشدة بحيث قلل الرغبة فيك ..ورغم احساسها بجرح كبريائها فانها لاتزيد على ان تضحك وتقول :

ــ وانا ما ذنبي ؟ انا من بلاد الشقرة الاصيلة

انا اسكندنافية الأصول هل تفهم ؟ بمعنى

انني مهقاء لكن بحمرة محببة .

تقولها وهي تضرب على فمه بيدها ان اسكت ..فيقول مقهقها :

ــ انه بياض صابوني لا لذة فيه

فتقول الفتاة ماري صاغرة قبل ان تختلق سببا للانصراف :

ــ اعرف ان الاسمرارعندكم الذّ ..

لكنك تناصب حلقية العداء وهي اجمل سمراء تقع عليها العين ..

فيقول لـــــــــــــــــــــها :

ـــ لاتخلطي الامر فتلك مسالة اخرى ..

فتضحك ماري ولا تستمر في مناقشته خوفا من اغضابه ..

ما يحز في نفس محمود ان كلمات الفتاة ماري عادة ما تصل اليه على لسان احد المترجمين من زملائه ، الا بعض الكلمات والتراكيب التي اصبح يستوعب فحواها ، وغالبا ما يكون هذا المترجم هو بوداود ..عكس الفتاة ماري التي كانت تجد متعتها في الانفراد به حيث يروق لها مكابدته للغة الاخرى وتهشيمها وقد افقدها نطقه سلامة مخارجها ..فتضحك وتضحك الى ان يكاد يغمى عليها ..وهكذا اصبحت تشعر بمتعة جعلتها تتعلق بلكنته العفوية تعلقا غالبا ما دفع بها الى رفض تدخل من يحاول التطوع بترجمة وانتهاره قائلة :

ـــ إنني أفهم عنه ،هو لا يتكلم بالبنغالية لكيلا افهمه

..على اية حال

الى جانب ذلك ، كان مبعث استغرابها ان محمودا لا يعاقر الخمرة ، ومع ذلك يتجاوز في نظرها عربدة السكارى حين يتعلق الامر بما يعتقد انه يمس كرامته ..اما حين يصير رائق المزاج فهو اروع من بالثكنة.ابتداء من لغته الركيكة غير المتجانسة الالفاظ ، وانتهاء بدعابته الريفية الحاملة للطرافة وحضور البديهة

كان محمود قد احب في الرقيب الاول انطوان احاديثه الليلية عن جمال

ايفا براون عشيقة هتلر أوحرمه تلك الفتاة الجميلة الانيقة التي ساقها ما يشبه الصدف المترابطة الى عرين الاسد الالماني باعالي برختسجادن

كما يردد انطوان دائما ، بل ان الحديث عن سيدة الرايخ الثالث جاء بدوره صدفة ذات ليلة من ليالي سمر الحانة ، حين كان محمود يثني على جمال اوكتافيا كما لو انه ينشد شعرا وبوداود يترجم كلامه الى الرقيب الاول انطوان والرقيب بول والجنديين جوفر وجورج وكان من حضور هذه اللقاءات الليلية عبد الكبير المراكشي والسابعي القفصي وماماادو بل ان الملازم الاول(روبير) لطالما انصرف من نادي الضباط ليلا مرتديا منامته نحو حلقة الرقيب الاول انطوان كما اصبحت تعرف وهي تنعقد عادة قريبا من بهو جناح الفاتنات كما لقبه انطوان ، بتسهيلات من هيلين قييمة الجناح..وقد صارت تعرف بدورها لدى انطوان بفاتنة طروادة لانها اخذت اسم اميرة تلك الحرب المعروفة

اعترض انطوان على راي محمود في تفضيله اوكتوفيا مؤكدا له انه سياتيه بصورة ايفا وساعتئذ يمكنه المقارنة ، فنظر محمود الى بوداود وكأنه يقول له من الصعب احضار صورة ذهبية ايضا

صحيح ان اوكتافيا اقل مركزا و شهرة من ايفا وهو ما فهمه محمود حتى الان ، واقل عفة من ذهبية كما يخمن بوداود ومحمود دائما ، لكن هل يمنعها ذلك من ان تظل الاجمل ؟ فحتى والرقيب الاول انطوان ينتصر لجمال ايفا وبوداود يشيد بجمال ذهبية يحمل محمود ورقة اوكتافيا التي ان لم يتجسد جمالها ، في شعرها الاحمر الكثيف المهدل الذي لايرى الا وهو يتمايل على منكبيها العاريين المكتنزين بمطلق حرية ، ففي عينيها اللتين استمدتا سحرهما من خضرة العشب .وفي قوامها الممشوق ..وفي مواطن اخرى جاذبة في جسمها قد تستصعب ريشة الرسام نقلها بدقة ..وامانة ، ولكن مشكلتها كاي مموس محترفة ، ان مفاتنها

مبذولة للجميع ، مما افقد جسدها سر التشويق ـ وربما الاحترام ـ في نظر بعض المجندين المحافظين من ذوي الاصول غير الاوربية .

و للاستزادة في الهاب المشاعر، غالبا ما تظهر اوكتافيا وهي نصف عارية متعمدة إبراز تلك الأجزاء المثيرة من جسمها ، وهي تقول لانطوان او لبوداود او لجندي اخر ممن يختارونها للخلوة :

ــ أنت محظوظ لانك في مضجع واحدة تحمل اسم

سيدة من المع سيدات روما، اوكتافيا حرم

انطونيو عشيق كيليوباترا وزوجها و أخت

الامبراطورالروماني العظيم اوكتاف (اغسطس)

والكل يعلم ان الرقيب الاول انطوان كضليع في وقائع التاريخ ، ملم بابرز شخصياته هو من كان قد لقنها هذه اللفتة الذكيـــة بل واقنعها بانها اجمل من اوكتافيا الحقيقية التي افرحت دمامتها غريمتها كليوباترا المصرية الجميلة .

والى جانب اوكتافيا ، و كلوديا التي كانت تمثل بدورها اعلى درجات الرشاقة والغنج وعذوبة الابتسام لولا قصر قوامها، حازت ماري الناصعة البياض على الاهتمام الجمعي لرواد الجناح لمرحها ودعابتها ، الى ان اشتهرت بين جنود الثكنة وضباطها بالفتاة ماري، وربما منحت هذه الصفة الضدية من باب الدلع لانها لم تحتفل بعيد ميلادها السابع والثلاثين الا منذ ايام فقط حيث اقامت حفلا ، جعل من الملهى المتواضع عرسا كبيرا بكل معانيه ، بلغ من الطرافة ان محمودا على جلالة قدره العضلي بين جند الثكنة ، قد هب محموما الى حلبة الرقص حينما ثملت ماري وطلبت احدا ليراقصها ، وذلك على ثقل حركاته غير الممرنة ، واهتزازاته البدائية التي تجافي ايقاع الاغنية السريعة المنبعثة من جهاز صوتي ، اخذت ترسل به الحانة احتفاء بعيد الفتاة ماري ..وبعد مغامرة محمود تلاه على حلبة الرقص كل من جوفر والرقيب بول وعبد الكبير ، كل ذلك والفتاة ماري لا تكل ، وبلغ المشهد منتهى الامتاع حين برز القنفذ يتمايل كما لو انه مكور الى ان مسك بيدها تحت موجة صاخبة من التصفيق والصفير وان بدا اقصر الحاضرين قامة الا انه اكثرهم خفة وتجاوبا مع ايقاع الموسيقا الاوربية فما لبث محمود ان حمله كطفل صغيرواخذ يرقص به ، وقد تذكر اول لقاء له بهذا الجندي الشبيه بالقزم الذي شهده ليلة زيارته الاولى لجناح الفاتنات رفقة بوداود فاعجب ساعتها برقصه المتميزومن تلك الليلة صار القنفذ ضمن مجموعة الرقيب الاول انطوان بل واصبح محمود اقرب افرادها اليه..

وفي ليلتهم الصاخبة هاته ما ان جاء دور بوداود ليراقص الفتاة ماري حتى اندفع العريف اندريه نحوه لمضايقته قائلا في سخرية وبلسان اثقلته الخمرة :

ــ ما أعرفه عنكم انكم لا تتذكرون Hعياد ميلادكم

ومع ذلك تشاركون الاخرين اعيادهم

ثم انفجر ضاحكا وهو يضيف بلسان ملتو وبحروف متباعدة:

ـــ ذلك لأن أسماءكم بكل بساطة لا تُدوّن

على متون الحالة المدنية وإن دونت فبعد فوات الأوان.

هههههههههه.

ثم تقدم من بوداود وأخذ يفك يديه من على ذراعي الفتاة ماري التي واصلت رقصها غير عابئة، والى هنا وما ان اوصل عبدالكبيرالمراكشي تعليق العريف اندريه الى اسماع محمود مترجما بعد ان كان هذا قد استوضحه ، حتى وثب مسرعا باتجاه اندريه ليشد على زنديه بقوة ريفية معروفة ، وهو يقول بلغة فرنسية مولدة التراكيب ممزجة بالفاظ ريفية نابية احيانا :

ـــ أها الوغد لقد تغاضينا عن استفزازاتك بما فيه

الكفاية..اما اليوم فلن تخرج منها بسلام . .

ثم امسك برقبته مستمرا في تعنيفه بكلمات مبعثرة لكنها جارحة ومخيفة ، كوغد وقزم ووسخ وحقير جعلت العريف اندريه يحاول ان يتراجع، وان يفك رقبته من كماش يد محمود وقد بهت وخرت قواه ، وهو يتكئ الى اقرب جدار، ثم هرب الى كلمات وهنة وقد ارتخت يداه :

ـــ انا لا أعنيك انا فقط امازح بوداود

وتلك هي عادتي معه كما تعلم

الا تراه لاينفعل مثلك لانه رجل حصيف

وحين بلغ الغضب من محمود كل مبلغ ..وصار في حالة هيجان ..قفز نحوه الرقيب الاول انطوا ن مهدئا ، وجاءت على اثره اوكتافيا بكل هالتها ووسامتها وقد فتحت ذراعيها الى منتهاهما وهي تقول :

ـــ راقصني أنا إذن

عندها قال محمود وقد تنازل غضبه في وجهها وهو يغير من وضع قبضتي يديه :

ـــ اما انت فنعم ..

فقالت ماري وقد اشتطت غضبا الى ان تحركت خصلة شعرها البيضاء :

ـــ ماذا يعني ذلك ؟

ففتح محمود ذراعيه ثانية وهويقول باشا في وجهها هي الاخرى :

ـــ تعاليا معا ومعكما هيلين وكلوديا ايضا

وكل بنات الجناح الا من استثني

والى هنا ارسلت حلقية زغرودة مدوية وهي تقف في مقدمة المومسات .تميزها سمرتها الملفتة لكن محمود اشاح عنها بوجهه وكأنها غير معنية بانتصاره . انه يكره الفتاتين حلقية و بنت لبعيد كراهية مطلقة وغالبا ما يردد : ((انه لمن الهوان ان نبيع اجسادنا للاجانب)).. وفي حالة اعياء غادرت هيلين مقعدها تحت طلب محمود قائلة وخلفها كلوديا محتفظة ببسمتها

العذبة :

ـــ نعم سأتي بدوري ..

عندها علق محمود موجها كلامه الى من بالقاعة وقد امسك بيد هيلين :

ـــ كان ينبغي منح هيلين رتبة عسكرية

اليست اقرب الى الجيش منها الى الحياة

المدنية ؟ إنها ذات قوام عسكري بامتياز

وروح قتتالية عالية أيها الناس .

وبعد ان ضحك الجميع وصفقوا بحرارة تاييدا لعرض محمود الذي تولى عبد الكبير ترجمته بنوع من الفورية انتهز العريف اندريه فرصة لتلطيف الجو بقوله وهو يصطنع ضحكا متقطعا :

ـــ وهذا صحيح يا محمود

وعوض ان ينظرمحمود الى اندريه المتكلم حوّل بصره باتجاه بوداود وكأنه يثبت له ان اسلوبه هو الذي انتصر وليس اسلوب المهادنة وتكلف الصبر ..فاكتفى بوداود بالابتسام دون تعليق ..وقالت هيلين معلقة :

ـ مع الاسف حتى الملازم الاول (روبير) تغيب

الليلة عن الحفل لسبب ما، فمن عساه يرفع مطلبك

الى قائد الكتيبة يا محمود حتى تتحقق ترقيتي

.. ايها الفتى الطيب ..؟

وعادت السهرة الى نظامها بعد هذه الواقعة التي حدت بشكل نهائي من اندفاع العريف اندريه تجاه بوداود وزملائه ، وصيرت العريف بينهم حملا وديعا يتجنب الامكنة التي يتواجد بها محمود ولايحضرها الا ذليلا ، بل ويبدأه بالتحية من بعيد متجاهلا رتبته كضابط صف :

ـ تحياتي أها الكوبوي القروي

والحقيقة ان بوداود كان قد خشي يومها ان يتخذ العريف اندريه أي اجراء عقابي او انتقامي ضد محمود ، لكنه لم يفعل بل لقد صار متسامحا الى ابعد الحدود ولا ينادي بوداود الا بالشاعر او تولستوي او هيمنغوي ..الى ان عرف جميع من بالثكنة من يكون تولستوي و هيمنغوي هذين

وقد اشاع بعض الجنود ان تخلي اندريه عن الانتقام انما جاء نتيجة توسل تكون قد قامت به اما الفتاة ماري اوكلوديا اوربما هيلين لدى العريف...غير ان الفتيات كذبن هذه الرواية التي تعلي من شان اندريه .

بل ان الفتاة ماري قالت :

ـــ انا امقت هذا الكابورال

المعتوه الذي بلغني عنه انه يعيرني بحصان

الهنود الحمرلخصلة شعري البيضاء.

خلال الليالي التي تشهد مثل هذه المناسبات كليلتهم هاته ، تتوقف السهرات التي يحيها عبد الكبير المراكشي ، تارة باحدى غرف النوم وغالبا ببهوغرف المراقد حسب عدد من يقبلون على مشاهدة فنون الرقص المغربي التي يقدمها ، كان عبدالكبير فنانا في شكل جندي كما خيل الى كل من رأه وهو في حالة رقص منفرد ،

اشتهر بالمراكشي لانه من اصول مراكشية انتقل ابواه الى الاقامة في الجزائر قبيل ميلاده فتم قبوله ضمن كتيبة مختلطة الاعراق شانه شان السابعي القفصي ذي الام الجزائرية والاب التونسي .

وفي اول الامر مانع ضباط الثكنة اقامة مثل هذا الحفل بالمرقد العام ، لكنهم ما ان عاينوا ـ من باب الفضول ـ بعض تمرينات المراكشي .حتى تأكدوا من انها لاتخل بنظام الانضباط العسكري في الثكنة .. لاسيما ليالي الاحاد ، فقط طالبوا بتجنب الفوضي والشجار .

بل ان الملازم الاول روبير كلف اقرب مساعديه بحظر دخول موقع السمرعلى من يوجدون في حالة سكر قصوى ، كاجراء احترازي ضد أي اخلال بالسهرات و حفاظا على روحها الفنية ..وقد صار هذا الملازم الاول وضباط في رتبته و ضباط صف يقفون لبعض الوقت منشدهين امام حركات المراكشي ، الذي كان قد اصطحب معه لهذه الغاية دفـا صغير الحجم ، ونايا من القصب ، وجلبابا قماشيا موشى بهالة من الخطوط المتقاطعة .دون ان ينسى طاقية من مادة الجلباب ولونه .ليضفي على شخصيته بعدا فنيا حقيقيا ..وعلى مظهره الوانا متناسقة .

ومن محاسن الصدف ان يجد لدى محمود معرفة بالعزف على الناي ، كهواية سبق له ان مارسها ايام الحقول بضواحي قرية الثيران ..فالناي رديف الحقل في المعجم الريفي .

اما الدف فقد تطوع القفصي باعادة استحضار تواقيعه ، الى ان صارت زاويته التي تعوّد على الجلوس بها قريبا من سرير المراكشي تثبت كل ليلة حضورا فنيا ملفتا حينما تبلغ السهرة اوجها ..رقصا ..وعزفا..وتصفيقا .

اثناء السمر كان العريف اندريه قد اتخذ له مكانا قريبا من بوداود ومحمود والقفصي ، حيث يتوسطهم المراكشي حين لا يكون في حالة رقص ..وبحكم الزمالة يليهم الرقيب بول ثم جوفر وجورح والزنجي .. وبطبيعة الحال لايكون الرقيب الاول انطوان الا قريبا من عبد الكبير والحقلة المفضلة لديه ، حيث يبدو كدأبه واحدا منهم لايحرص على أي تميز عنهم ..وكلما انهالت كلمات الاعجاب على عبد الكبير واشتد التصفيق ..قام انطوان من مكانه في جملة من يقومون ، وهم يقتربون من المراكشي محاولين تقليده بحركات ملتوية لاتطاوعهم على الانسجام معه لخفته ورشاقته .

وعلى انغام الناي التي يعزفها ، يرتفع محمود محلقا بخياله عبر التلال المخضرة بجوار قرية الثيران ، وذاكرته تستعيد ايام صباه ، وتستحضر وسطه الطبيعي من سنابل و ابقار واطفال وخراف، وكان حين ينفتل عن العزف يهمس في اذن بوداود هل احضرتها لك محمولة على

انغامي ؟ وهو يعني ذهبية .. فيهز بوداود راسه ان نعم و هي ذي تجلس امامي..ثم ترتفع قهقهتاهما حين يكمل محمود :

ـ لقد أحضرت معها السيدة التي

رأيتها في الحافلة وزوجة الجودام أيضا .

قالها وعاد الى التفكير في موقفه من حلقية ..لكم كان جارحا اثناء حفلة عيد ميلاد الفتاة ماري حين قابل زغرودتها باشاحة غاضبة من وجهه جرحت كبرياءها على مراى من الجميع ..حدث ذلك قبل ان تطلع بوداود على حقيقة قصتها ..ومنذ ان عرف محمود ظروفها من بوداود اخذ يلتمس لها في نفسه بعض التخفيف وان ظلت مسالة انفتاحها الجسدي على اجانب لا تمنحها كل تسامحه.الى ان قرر بوداود جمعهما ذات ليلة حيث قالت لمحمود ضاحكة :

ــ وأنت ؟ اليست ظروفك هي التي دفعتك

الى الانتساب الى هذه الثكنة؟

فهز راسه دون ان يرد كما لو انه ترك الاجابة لبوداود الذي قال :

ــ مادامت هناك أمور لا تلقى ترحابا تلقائيا

في نفوسنا فنحن لانزال بخير.

خلف سهومه اوغل محمود بحيث لم يعد يربطه بجلاّسه الا انغام الناي التي تشرك دف السابعي القفصي في تكامل الايقاع الذي يهتز عبد الكبير وفقا له.

كانت الغرفة التي ينام بها المراكشي لاتتسع الى اكثر من ستة أسرة ، مما جعل فسحة الرقص تبدو ضيقة ، ولذلك يتجمهر معظم المتفرجين قرب بابها ، بينما يفضل البعض الاخر البقاء خارجها مكتفين بالتطلع من خلال رؤوسهم الممتدة ..نحو الأعلى.

ورغم كل الطيبة المفتعلة التي يبديها العريف اندريه نحوهما، أبلغ بوداود محمودا انه لايزال يتحين الفرصة للانتقام منهما لايردعه عن ذلك الا خشيته من رد فعل الرقيب الاول انطوان وربما الملازم الاول (روبير)

مع انتهاء الاشغال الصباحية واقتراب عودة الفوج الذي يوجد به محمود كان انطوان يحادث بوداود و جوفر حديثا وديا تركز عما تعرفه علاقة العريف اندريه بمحمود من تحسن بعد الجفاء الذي سادها من قبل ، وما ان هم جوفر بقول شئ ما حتى التحق بهم ضابط الربط قادما من الجناح القريب من الباب الخارجي للثكنة .. ولم يكن سوى القنفذ بسرعة سيره و قصر قامته وانتفاخ بطنه الى درجة جعلت محمود دائما يتندر به ويساله ساخرا: كيف تم قبولك في صفوف الجيش وانت على هذه الصورة البدنية؟

فيقول القنفذ مثيرا حنق محمود: اسئل العريف اندريه فهو ادرانا بالشان العسكري ايها البدوي فيضحك محمود حتى يكاد يفقد توازنه لكن اللحظة المثيرة في سلوك القنفذ انه دائما كان ينهي مرحه معهم بطلب سيجارة (جوب) من بوداود او (باسطوس) من جوفر او من غيرهما فيشعلها ويواصل امتصاصها في نهم لا يخلو من سعال وهم يتغامزون ويضحكون.. ويعمل القنفذ كحلقة وصل من باب الاحتياط بين جناح الحراسة ومن يعود اليه امر التصرف في

تراخيص الاجازات ومراقبة شهادات المرض وغيرهما اما في هذه المرة فقد حضر مسرعا وهو ينادي :

ـ بوداود..بوداود..تولستوي.. همنغوي.. تكلم.. تكلم..

وقال الرقيب الاول انطوان وهو يخفي ابتسامته :

ـ الا تؤدي التحية العسكرية اولا ؟

ـ اه.. نعم.. نعم.. "شاف".

وتمتم في سره :

ـ ولماذا احمل صفة ضابط اتصال اذن.؟

وساله جوفر:

ـ فيم دعوتك بوداود ؟

ـ قدم أحدهم من خارج الثكنة وهو يريده..

لعله والده او عمه اوخاله.

وعلى عجل استاذن بوداود مغادرا وما ان اجتاز جناح الحراسة و بلغ القاعة المتوسطة الحجم المخصصة لاستقبال الغرباء الوافدين على الثكنة حتى فاجاه منظر رجل يرتدي زيا قرويا مميزا ..ثم ما لبث ان ادرك.. انه هو.. هو..العم بوجمعة اهم تجار بلدة الثيران ، وهو يقبع في انتظاره وقد جلس صامتا على اريكة خشبية قريبا من الحارس. اسرع نحوه بوداود ثم اخذ يعانقه بشوق دون حتى ان ينزع قبعته او يسمح له بالوقوف لاستقباله وهو يقول بكلمات متقطعة من شدة الفرح :

ـ *عمي بوجمعة ..*" ***ما جابك لينا حتى البراح.. "(5)***

ـ بوداود..ابني...حبيبي

قالها العم بوجمعة بتاثر وتبللت عيناه بدموع تلقائية وافدة وهو يقبله ويقول:

ـ كم اشتقت الى احاديثك والى خصامك والى عنادك ايضا

وجلسا متقاربين من بعضهما ..وساله العم بوجمعة هامسا :

ـ الم ينته عقد تجنيدك ؟ ثم هل من رتبة عسكرية

تلوح في الافق؟

ـ العقد انتهى ثم جددته اما الرتبة فانت تعرف

من توهب لهم

وقال العم بوجمعة ضاغطا على احرف كلماته :

ـ هل ادركت الان مغزى كلمة الكولونيل بن داود ؟

وهز بوداود راسه قائلا :

ــ اجل..لكنك لم تحدثني عن حال ابي ووالدتي واخوتي ؟

ــ كلهم بخير، بخير

وقال بوداود في تردد وقد تسارعت رموش عينيه :

ـــ وكيف حالها؟

وعكس وجه العم بوجمعة غما وهو يهرب الى الصمت فيطيل ثم يقول:

ــ تعني ذهبية؟ لقد ركبت راسها الى ابعد حد

ــ ماذا تعني ؟

ــ انها بصدد الزواج ..وهي الان بمدينة الراس ..

وحاول بوداود ان يقفز من مكانه وهو يسال العم بوجمعة والكلمات تهرب من بين شفتيه :

ــ تقصد انها تزوجت هنا ..بمدينة الراس ؟

ــ كلا بل جاءت رفقة والدها ووالدتها لشراء

جهاز العرس جئنا معا على متن

نفس الحافلة ثم القطار..

وتراجع تحفز بوداود وقال بصوت منخفض حتى لكأن فيه بعض الذلة :

ــ ومن هذا المحظوظ الذي اصبحت من نصيبه؟

ــ ليس من بلدتنا بل من بلدة " الثماد"،انه

الشمام وقد اسمته ذهبية بالأبله

وساله بوداود وقد ذهل فعلا :

ــ حارس ابن القايد ؟

ــ اجل ..حارس ابن القايد

فقال بوداود :

ــ ومن لا يعرفه بحكم مهنته .

وقال العم بوجمعة :

ــ كل من يعرف ابن القايد يعرف حارسه

بطبيعة الحال

وضحك بوداود ثم قال ساخرا وهو يعود الى موضوع ذهبية :

ــ لاتزال تدور في فلك ابن القايد.وهي التي

كانت تدعي انها ترفض كل من تشتم فيه

رائحة (ــ) ؟

وقاطعه العم بوجمعة متسائلا :

ـ ان امرها ليحيرني صارت كما

لو انها غريبة الاطوار

وسكت العم بوجمعة ثم قال وعينا بوداود مشدودتان الى الارض وقد علت وجهه كابة :

ـ قيل ان زواجها يتم بالحاح من ابن القايد

وتنهد بوداود :

ـ الم اكن انا وابن القايد نمثل في نظرها

العالم الذي تمقته؟

عندها قال العم بوجمعة :

ـ صحيح لقد زارتني اكثر من مرة

وكنت كلما كلمتها عنك

الا وقالت لي ((لن استقبل زيا عسكريا (.....)

.في غرفة نومي يا عمي بوجمعة..

والا اصبحت اضحوكة بين بنات القرية ..)) لكن ؟

وادرك بوداود خطورة الكلمة التي اغفل العم بوجمعة ذكرها فجاءت فراغا في سياق كلامه فقال بانفعال:

ـ كانت تعتقد هذه المجنونة انني اول من فعل هذا ؟

وضحك العم بوجمعة على مضض وقال :

ــ الم يكن يكفيها الجودام كنموذج رسّخ عرف

العسكرية في نفوس سكان بلدة الثيران ؟

ولاشعوريا اظهر بوداود عدم رضاه باشارة من يديه ثم ضحك على مضض تادبا مع العم بوجمعة وقال :

ــ لاتزال على عنادك وسخريتك مثلها

يا عمي بوجمعة

انها تلميذة افكارك بحق ..

فقال العم بوجمعة محافظا على وداعته وانشراحه :

ـــ اما الان فلم تعد كذلك فقد قاطعت

حتى " جمعة " ابنتي زميلتها

وانقطعت الى رملية ام محمود..

قال ذلك واحتفظ بالباقي لنفسه حتى لا يثير بوداود الذي قال :

ـ ربما لان رملية وحيدة ..ثم لا تنس

انه صار لذهبية محيطها الخاص ..

فقال العم بوجمعة :

ـ قد يكون ..

ولكثرة تدفق كلام العم بوجمعة نسي بوداود ان يستفسره عن ذلك الاستدراك الذي انهى به احد مقاطع كلامه حين قال (لكن) ثم هذا الغموض الذي اخذ يطبع كلامه الذي جاء غير مكتمل..

المهم ان العم بوجمعة واصل كلامه متجنبا مصارحة بوداود بما كان قد يصدمه :

ـ فكّر في الزواج من غيرها اذن.

.فهي ليست امنا حواء لكي ندعي اننا

لا نجد عوضا عنها على كل حال..

ومن اعماقه تنهد بوداود وهو يقول :

ـ اصرارها هذا هو ما يعطيني

مبررا كافيا لرفض الزواج نهائيا..

وكاد العم بوجمعة يقول له :

ـ حتى ولو تزوجت من اثنين ؟

لكنه قال وهو ينظر الى سقف الجناح :

ـــ يخطئ من يربط حياته بشخص ما ..

ولاشعوريا قفز بوداود امامه وقد جثا قرب ركبته وهو يساله :

ـــ عمي بوجمعة ماذا بدر منها ..؟ هل..؟

وضحك العم بوجمعة قائلا :

ــ وماذا يهمك من امرها وقد

صارت في حكم زوجة رجل اخر ؟

قالها وهرب الى القول حتى لا يضطر لكشف ما هو اكثر :

ـ ولكن اين محمود ؟

وغمغم بوداود هامسا :

ــ يوجد في مهمة خارج الثكنة ..

ــ وكيف هو ؟

ــ كما تعرفه ولعل اسلوبه الانفعالي

كان اكثر انسجاما مع ما تقتضيه الحياة العسكرية ..

وسكت بوداود ثم اكمل :

ـ اعني ان اسلوبه افضل من اسلوبي الهادئ

يا عمي ..فانا لم انجح حتى كمدني فما بالك

بكوني عسكريا ..

ولما هم بوداعه قال له العم بوجمعة :

ــ حاول تجاوز الصدمة يا بوداود..لا تستسلم لليأس ..

فقال بوداود وهو يناوله مبلغا من المال ليوصله الى والده :

ــ حتى بعد ان خسرت كل شئ يا عمي بوجمعة

..ذهبية.. بلدتي..هجرتي للعمل..

ولم يبق الا هذه الحياة العسكرية

التي لن انتهي فيها الى شئ..

وقبيل انصرافه قال العم بوجمعة كلمة لطالما استخلصها من ثقافته الريفية العميقة :

ـ ولكن الله باق فلننتظر منه الخير

لانه وحده مصدر كل خير يا ولدي..

ثم دنا العم بوجمعة من بوداود وهو يقول هامسا وكأن الامر دخل طورا عمليا :

ـ لما يستقر في ذهني بعد زواجها

من ابن قرية الثماد ايضا ..

وتقدم منه بوداود بسؤاله وقد حركت كلمة العم شتات امل في قلبه :

ــ لماذا ..الانه يخشى تهديد ابن القايد ؟

وضحك العم بوجمعة وقال :

ــ حاول ابن القائد الزواج منها لكن صهره

والد زوجته الحالية (غزالة) وهو اعظم القياد

حظوة لدى المتصرف المدني هدد بالانتقام ،

فاثنى ذلك ابن القائد عن طلب يد ذهبية

فاختار هذا الاخير تزويجها من حارسه الابله ..

فتساءل بوداود وقد حامت بخلده شكوك :

ــ لماذا يحرص على تزويجها من حارسه ؟

ارافة بها ام بالابله كما اصبحتم تسمونه .. ؟

ولم يزد العم بوجمعة على ان قلب شفتيه في اشارة العاجز عن الجواب ثم قال كانما يختتم الحديث حتى لا يتلقى مزيدا من اسئلة بوداود الذي يحبه وربما تسبب في جرح مشاعره من حيث لايدري :

ــ ذهبية كسلطانة النحل سيقضي

عشاقها تباعا وهم لايزالون في طريقهم اليها .

واستعصى المثل عن فهم بوداود لكنه لم يستوضح العم بوجمعة لان ما حز في نفسه هو فقط ان يتخاصم اخرون على امتلاك قلب ذهبية في حين يظل هو خارج حلبة المنافسة بل وان يصبح امرها بيد ابن القائد لامر يلفه الكثير من الاحتمالات ..

وخشية ان يزداد وضع بوداود سوء من كلامه ، عانقه العم بوجمعة مشعرا اياه بحنانه وهو يكاد يجهش بالبكاء ثم غادرالثكنة باتجاه محطة القطار.

وعاد بوداود وهو يكاد لايذكر الطريق التي سبق له ان سلكها للقاء العم بوجمعة ولا يدري الى اين عليه ان ينصرف الان ..لقد تحركت قرية الثيران وحركتها دائما عنيفة بل ومدمرة كحركة نهرها الجارف اثناء امطار الخريف ..

وبوداود بقدر ما احب في قريته هدوءها ، صمتها ، حياديتها ، وتواضعها ظل يخشى وثبتها ، اندفاعها ، نفاذ صبرها ..والمفجع انها تحركت هذه المرة تحت الصق عنوان بقلبه الا وهو عنوان ذهبية ..اه.. لو ظل امر ذهبية راكدا كما دأب حياة القرية اذن لكان اخف على قلبه .هذا القلب الذي لم تفلح المدينة ــ بكل مظاهر جمالها الاصيل و الفرنسي معا ــ في تحويل تياره الجارف عن تلك الفتاة التي اخذت تمتد اليها ايدي الخطاب من كل صوب..

ولم يطل به وقوفه قريبا من الزاوية التي كان يختلي بها الرقيب الاول انطوان و عبد الكبير و جوفر لان انطوان دعاه اليه بسرعة وما ان بلغهم حتى قال له :

ــ عندي خبر غير سار..لكن تمالك أرجوك ؟

وزفر بوداود في ضيق وقال :

ــ كل أخبار اليوم غير سارة ماذا هناك ايضا ؟

ــ محمود!

والتاع بوداود ووثب قريبا من انطوان :

ــ ما به ؟

ـ اصيب في المناورة هو والرقيب

بول وثلاثة جنود..

واقعده الخبربعنفه وقد انساه فاجعة زواج ذهبية ثم قال وعيناه تتطلعان الى انطوان الذي حاول ان يمسك بيده ليوقفه :

ـ وماذا عن حالته الصحية ؟.. اقصد حالتهم جميعا ؟

ــ حالة محمود وبول وجندي ثالث على جانب من الخطورة

فالمناورة جرت بالذخيرة الحية..

ـ واين هم الان ؟

ـ نقلوا الى مستشفى مدينة (الساحل) ..

وفجاة ظهر القنفذ ملوحا بقبعته في امتعاض وقال لانطوان :

ـ حضرة هل صحيح ما سمعته

عن الكوبوي والرقيب بول ؟

ـ وهز انطوان راسه ان نعم ..

فتزوى القنفذ جانبا وكاد يبكي ، لاول مرة يراه اصحابه وهو في حالة حزن حقيقي وقد زايلته خفته الكوميدية ..ثم ما لبث ان رسم بيده اشارة صليب على صدره وغادرفي صمت دون ان يطلب سيجارة هذه المرة وكانه اعلن الحداد..

كان ما يخيم على الثكنة في هذه اللحظات هو الشحوب والصمت ..

وقال بوداود لعبد الكبيروهو يعني محمودا :

ـ لكم خشيت عليه دائما من تهوره..

ـ هون عليك لن يصيبه مكروه ان شاء الله .

والحق ان اصابة محمود انعكست على كل رفاقه في الثكنة ومرافقها . لاسيما بنت لبعيد وحلقية وطال الحزن الفتاة ماري وكلوديا وهيلين التي قالت والحزن يشل نبرات صوتها :

ـــ لن انسى اعجابه بي الى ان جعلني عسكرية ..

وقالت ماري :

ـــ من الصعب العثور على لطافته لدى شخص اخر ..

وقالت حلقية لبنت لبعيد وهما تقفان جنبا الى جنب ببوابة الجناح :

ـــ كان لاينام على ضيم ..

ومضت ايام وبقايا كابة لا تفارق وجوه هذا المحيط المصغر داخل كتيبة الثكنة وامضى محمود تلك الايام وقد تماثل للشفاء ، قبل ان يعاود استذكار سيرته وهو ملقى على سرير المرض بغرفة داخل مستشفى مدينة الساحل في شبه خلوة لايقاسمه اياها الا اربعة نفر منهم الرقيب بول الذي يغط الان في نوم عميق ..

قبل التحاق محمود بصفوف الجيش الفرنسي كان الامر صعبا بحيث انغلقت افاق الرزق في قرية الثيران فاسحة المجال للفاقة لكي تفغر فاها واسعا مخيفا في وجه عديمي الحيلة من ابناء البلدة الزراعية الريفية التي ارهق رجال الكولون اهلها بالاعمال الشاقة في الحقول التي استولوا عليها بشتى الطرق كاغتصاب الارض ونزع الملكية و التسبب في ما يدفع باهلها الى التهجير القصري ..

ولكم حاول محمود ان يثبت لزميله بوداود.ولمن اعتقدوا انهم فتحوا ثغرات في جدار الزمن الصلب .. انه هاهنا ..صامد..ولكنه اخذ يستشعر في دخيلته ما يشبه الاستسلام ..انه ووالدته في طريقهما نحو احتراف التسول عبر شوارع القرى المجاورة وانهجها الضيقة بعد ان اضطرا الى بيع الارض ثم ما لبثا ان استهلكا المبلغ واحترف محمود كل حرف القرية لكن البؤس كان اقوى ..ففكر ووالدته في التسول ..لولا انها اعترضت بقولها :

ـــ هل اتسول وانا اخت (الصواف) ؟

من حق رملية ان تستشط غضبا فشقيقها الذي ينعت بالصواف هو تاجر صوف معروف كان تعامله مع اسواق الماشية سببا في نقلته التي ابعدته عن ضنك القرية وفقر سكانها ، ولكن الامر عند محمود لاينطوي على كل هذا القدر من التفاؤل الذي يبدو عند والدته ، صحيح ان محمود قلما زار خاله بالمدينة لكن والدته رملية كانت تفعل كلما اشتدت بها الحاجة حتى وان ظل ذلك في نظر محمود مجرد تسول هو الاخر يتم تحت عنوان القرابة بل وسمح لنفسه بالاعتراض على هذه الزيارات شبه الموسمية مما جعلها تقول في انبهار :

ـــ ألا ازور اخي.. شقيقي.. يا محمود ؟

فيغمغم محمود :

ـــ وما الذي يمنعه من زيارتك ؟

ثم اضاف ناقما :

ـــ تصريف شؤونه طبعا ..

ولاول مرة اخبرته :

ــ خالك ممنوع من مغادرة مدينة الراس

يا ابله .

ــ ولماذا ؟

ــ لا ادري..هكذا اخبرني ..

و رافقت محمود حيرته في امر خاله ..واستمرت هذه الحيرة الى ما بعد انضمامه الى الجيش الفرنسي وعلى الرغم من انه كان يزوره ايام عطل الاسبوع لانه كان يقيم بثكنة نفس مدينة الراس فانه ظل يتحاشى ان يبدي اي رغبة في معرفة الاسباب التي تحول دون زيارة خاله لهم في قرية الثيران ..واليوم هو ذا يزوره ليجد العائلة كلها منهمكة في الاعداد لزواج ابن خاله وعندما شارفت زيارة محمود نهايتها تلقى دعوة من خاله لحضور حفل الزفاف مؤكدا على ابلاغ رملية دعوته ايضا..و بالفعل افتتن محمود ــ الذي ابى الا ان يحضر معه زميله بوداود في المرة القادمة ــ بما اظهره هذا الخال من ضروب الضيافة و باهمية الوجوه التي دعيت للحفل..

لكن يبقى الاهم في نظر محمود هو ما اقدم عليه خاله حين دعاه الى غرفة نومه فورانصراف الضيوف واجلسه على مفروش جانبي وحدّثه حديثا لا صلة له بالزفاف ولا بالعائلة ومحمود ينصت في تعجب ودهشة ثم اتجه نحو صندوق خشبي كان الى جانب مرقده فاخرج منه مصحفا متوسط الحجم لامع التوشيح وقال له :

ــ عاهدني على الوصية

ان وافقت ضع يدك على

المصحف الشريف واقسم بانك ستكتم هذا السر الا

على من تثق فيهم .

ثم غادر الغرفة الصغيرة الجميلة التاثيث في طريقه الى قاعة الضيوف حيث ترك زميله بوداود وذهنه مشدود الى وصية خاله ..هل لذلك يقضي الصواف معظم اوقاته في المعتقل كما تقول والدة محمود ؟ انه ليس بتاجر فحسب ؟ لكن هل كان عليه ركوب كل هذه المخاطرات ؟ محمود لايزال يقف عند منتصف تاييد ما يقوم به خاله..لكن سيكتم امره الا على من يثق فيهم كامل الثقة واولهم بوداود طبعا..لاول مرة يدخل محمود غرفة نوم خاله التي تتميز بمذياع خشبي الاطار كبيرالحجم انه اروع من مذياع العم بوجمعة الصغيرالذي يفاخر بانه ينقل اليه اخبار العالم وانه تلقاه هدية من التاجر الكبير الذي يمونه بالبضاعة ولذلك ترى العم بوجمعة اكثر شيوخ البلدة احاطة بالاخبار بل واكثرهم حديثا كلما اجتمعوا عنده بصحن المتجر المتواضع ..

استمرمحمود في خواطره وهو ممدد على سرير المرض الى ان انهى تلك الخواطر شخص وقف على راســـــه مبتسما بشكل جعله يرد على تحيته بل ويتجاو ب مع تقبيله حين انحنى لذلك..انها بنت لبعيد وقد جاءت لعيادته في المستشفى رغم موقفه المعروف منها..و بالتفاتة سريعة حيّت الرقيب بول المستلقي بعيدا من محمود و الجنود الثلاثة بالناحية الاخرى ثم جلست

على حافة السرير وسالته عن صحته قبل ان تقول:

ـ لكم خشيت ان ترفض استقبالي ..يا محمود..

فقال باسما وهو يتسلم هديتها وكانت قنينة كبيرة الحجم من العطر الرفيع :

ـ نحن لانرفض الضيف وقد عيرنا الكابرال اندريه بالكرم..يا بنت لبعيد مهما نتباعد فهناك

شئ يشدنا الى بعضنا..

وضحكت وهي تقول :

ـ هذا من كلام الرقيب الاول انطوان.

وانتفض محمود صارخا :

ـ بل هو من كلامي الريفي ام انني لااحسن الحديث

حتى بلغة تخاطبنا في الريف ؟ ..

فقالت وهي تمسح على جبينه في حنان :

ـ نعم نعم ..كما تريد..فقط لا تغضب..

وابتسم في وجهها ابتسامة عريضة كما لو انه يطمئنها الى مشاعره نحوها وقال :

ـ مرحبا ..بالمراة الانيقة دائما..

واتسعت عيناها اعجابا وهي تقول :

ـ هل صحيح انك ترحب بي؟

وهل انا انيقة في نظرك وانت

لا تزامل "الا القاوريات" ؟؟

فقال وهو يبحث عن منديل كان قريبا منه :

ـ تعرفين انني لا اجامل..ولا اقول

الا ما احس به ..

قالـــــــــت :

ـ هذا صحيح..ويعجبني انك لكذلك..

محمود لايعرف ملامح بنت لبعيد جيدا لانه كان دائما يشيح بوجهه عنها . اما اليوم فهو ينظر اليها بتمعن انها قصيرة القوام شبه مكورة ذات بشرة بيضاء وشعر فاحم لاتدوم تسريحته على حال معينة لكثرة اعتنائها به وهي كثيرة الحركة وحسبما فهم من كلامها فان نشاتها لا تعود الى الريف كحلقية بل اينعت في حي شعبي بمدينة بعيدة عن مدينة الراس وهي لم تلتحق بجناح

الفاتنات مضطرة بل مختارة هكذا قالتها بكل جرأة وصراحة وقد اعتمدت في ذلك واسطة مسموعة الكلمة في وزن " الرومية "و سعة معاريفها ..

فقال محمود وقد ادهشه كلامها دون ان يخفي ابتسامته :

ـ انك تعترفين اذن ..؟

وعلى ذكر الرومية اغفل كلام بنت لبعيد واخذ يدندن باغنية للشيخ حمادة ((**الله الله يا الرومية شطنتي يا امرا حالي** ..))فانفجرت بنت لبعيد مقهقهة وهي تقول :

ــ محمود هو محمود لم يتغيرابدا ..

ثم قالت له وقد الصقت فمها باذنه لكيلا يسمعها غيره :

ــ محمود عندي لك سر..

واعتدلت في جلستها بحيث تكون اقرب اليه و اخذت تحدثه بصوت بالغ الهمس وعجبه يشتد ..

وسالها بصوت خافت :

ــ القنفــذ ؟

فقالت ونظرها يزداد حدة وتصميم :

ــ اجل .. هو ..

وبعد ان انهت كلامها الى محمود قالت ضاحكة بصوت مسموع وهي تتحفز للانصراف :

ـ اتفقنا ؟. لاتستانف قطيعتي حينما تعود الى الثكنة ..

فقال متنهدا :

ـ وهل سنعود اليها وكل رفاقنا بصدد مغادرتها

نحو الحدود الفرنسية الالمانية .. نحو الحرب.. ؟

فقالت بتاثر :

ـ من ابلغك ؟

ــ الضباط الذين يزورونا لقد صار الامر معروفا

عندها تنهدت وقالت :

ــ اه..لذلك اخذ كل شئ في الثكنة يؤول الى السكون .

حتى قيل انهم سيمنحوننا اجازات مفتوحة..

ثم قال لها محمود :

ــ ابلغي حلقية تحيتي لقد اسأت اليها هي

الاخرى الى ان عرفت حقيقتها من بوداود ..

والى هنا جاء صوت الرقيب بول من الزاوية الاخرى وهو يسال بنت لبعيد عماذا يقول لها محمود ولما ابلغته انه سامحها علق ضاحكا :

ــ انه عفو عام صدر اليوم ..

واسرعت بنت لبعيد بايصال كلمته الى محمود الذي قهقه في تعب قبل ان تهم بالانصراف فتودعه متجهة صوب سرير الرقيب بول الذي بادرها بقوله قبل ان تصل اليه وتساله عن صحته :

ــ ما هو السر الذي نقلته اليه قبل حين ؟

فضحكت بصوت مرتفع الى ان نسيت انها بالمستشفى وقالت :

ــ فقط ابلغته انني احبه طبعا..

فقال الرقيب :

ــ تعتدين على حياة الفتاة ماري اذن ..

فقالت محتفظة ببقايا ضحكتها وهي تناوله قنينة شبيهة لكنها اقل حجما :

ــ بل نقتسم حبه مناصفة بيني وبينها..

عندها سالها الرقيب جادا :

ـ وهل استغرق منك التعبير عن حبك لمحمود كل ذلك الوقت من الوشوشة في اذنه ؟

فتسارعت رموش عينيها و قالت :

ــ لانه حب عميق لاتكفي لشرحه اللحظة ..

ثم اعادت جوابها هذا باللغة العربية ليفهمه محمود فضحك في حين اخذت هي توزع بعض الحلوى على الجنود الثلاثة الاخرين ثم ودعت وهي في منتهى السرور بالنتيجة التي حققتها زيارتها الى محمود الذي ادرك انه من حقها ان تخفي على الرقيب والرجال الثلاثة ذلك السر الذي افضت به اليه هو..انه سر لايزال يفكر فيه . فيكرر التساؤل في استغراب ،هل يحدث فعلا ما انباته به بنت لبعيد؟ والادهى من ذلك انه يبدو حقيقيا ولا يشوب صحته اي شك

جنرال السادسة صباحا :

((لقد لقنتنا كلياتنا الحربية انه اذا كان التاريخ قد عرف الدولة / المدينة في القديم و يعرف الدولة القطرية في الحاضر فانه لايتباهى بالدولة القارة الا من خلال نموذجين فقط هما فرنسا وانجلترا وتلك ميزة يحاول اخرون ان ينافسونا فيها عبثا ..)).

كان ذلك من كلام الضابط الذي تراس التجمع التقليدي بساحة العلم وسط ثكنة مدينة الراس تمهيدا لمناورة تم الاعداد لها هذه الايام لقد اصبح الوضع يقتضي ايفاد ضباط اسمى من قائد الثكنة العقيد (بيار) لرفع معنويات الجنود وتبصيرهم بمخاطر القادم ولذلك حضر اليوم موفد لهذا الغرض يحمل رتبة جنرال .وسرعان ما سرت وشوشة بين الجنود المصطفين في حالة استعداد امامه :

ـــ انه الجنرال موليينييه

ـ لااعتقد ..لم نسمع انه انتقل الى الجزائر ..

ـ بل قيل انه كلف بالاشراف على كتيبة

مختلطة من الفرنسيين والافارقة ..

لم يعرف الجنود عن هذا الذي حضر سوى انه كان طويل القامة ..ابيض البشرة..نحيفا و في كلمته المبهمة الشديدة الايجاز اضاف :

ـ ليست مواقعنا بما وراء البحر وحدها هي

التي تحتاج الينا كمقاتلين يجددون القسم امام العلم

كل صباح بل ربما دعتنا فرنسا الى شمالها مسكونين

بحب الدفاع عنها

وسكت الجنرال متصفحا وجوه الجند امامه كما لو انه يرصد ردات فعل قد تعكسها ملامحهم ، ثم اضاف :

ـ ان سرعة المتغيرات في ايامنا لتقتضي

ان نتهيأ للتنقل ونحن نعانق بنادقنا بكل حرارة

من جديد..

ورغم ان الكثيرين لم يفهموا عن الجنرال ، كان السابعي القفصي وحده من سبق الجميع الى السؤال فور الانصراف منتهزا وجود انطوان الى جانب بوداود قريبا من مقهى الثكنة فقال انطوان :

ـ سنرحل الى فرنسا..وهذا كل ما في الامر..

وتلقائيا قال العريف اندريه ضاحكا وقد كان قريبا:

ـ سنرحل الى فرنسا.؟.اولسنا في فرنسا..؟

عندها نظر السابعي القفصي الى بوداود نظرة عميقة مفضلا السكوت ..

ومع المساء عوض استئناف حلقة الجناح او سهرة المراكشي اعلنت حالة استنفار متقدمة الدرجة فباتت الايدي على الزناد ، واكتسبت الثكنة سكون الكنيسة ورهبتها بحيث عرفت مرافقها المحببة الى الجنود جوا من الفراغ و الترقب لم تعرفهما من قبل ، وعلى اية حال لم يدم هذا الوضع الا اسبوعا او ازيد بقليل تمت خلاله اجراءات نقل الجند الى فرنسا لتدعيم جبهات القتال على حدودها مع بلجيكا و المانيا ، وكان بوداود قد طلب بعض الساعات لتوديع محمود طريح الفراش غير ان طلبه ما لبث ان رفض لان الاجازات بكل انواعها حتى السارية منها الغيت فعز عليه ان يغادر دون ان يزور زميله الحميم ..

وما هي الا ساعات مضت مريبة حتى بات بوداود ورفاقه على متن احدى البواخر الحربية العملاقة التي اقلعت بهم ليلا نحو الشمال ، فاخذت تتمايل في تثاقل عبر الامواج ، وهو يجلس الى اصفيائه من جماعة سمر ثكنة الراس ما لبث ان اخذ يترنم بهذا البيت الشعري الذي ذكرته به المناسبة وهو :

((راني خايف لايعودوا يدونا وفالبابور يقطعونا راجمات))(6)

ولما ساله عبد الكبير عن قائله اكتفي بالقول :

ـ لعله لشاعر مجهول مر بهذه التجربة

ابان الحرب العالمية الاولى ..

وقضوا ليلتهم تلك على متن البارجة الحربية التي ابحرت وحيدة ربما لاسباب امنية ، وقبيل زوال اليوم الثاني دخلت ميناء فرنسيا قيل انه بمدينة مارسيليا او " السات " او ...؟ ليغادرها الجند الذي وضعت في انتظاره ارتال من عربات النقل المغطاة ، لم تتواصل الرحلة كما توقع بوداود ورفاقه الا مع مغيب ذلك اليوم . وكان الاتجاه شرقا على ما يبدو حيث تتناثر القرى وبعض المدن وكان اهمها مدينة قال انطوان انها ستراسبوغ التي دخلوها ليلا ، ثم غذت الشاحنات سيرها ربما في طريقها الى ضواحي ليل كما اعتقد بعض الجند.ممن كانوا يصيحون كلما مروا ببلدة من البلدات :

ـ اه .. انها " ميتز "

ـ بل هي " كامبري "

ـ عفوا لعلها " قردان"

ـ لايمكن المرور بقردان

لانها قريبة من الحدود يا صديقي

ثم اننا الان لانشاهد نهر الموز الذي يمر بها .. ـ

ـــ المهم اننا اقتربنا من " ليل "

وفكر بوداود في فرنسا التي اعطاها جزء من عمره كعامل بسيط في ورشات البناء وذا هو يمنحها ما تبقى من شبابه كعسكري جئ به للذود عن ترابها ..

ولم يتموا ليلتهم نياما على اسرة بل تحركوا قبيل الفجرراجلين نحو منطقة غابية حيث شرعوا في عمل ميداني متنوع ..

واخذ جورج كجندي محترف يتحدث فور انصراف الضباط ، و بوداود وعبد الكبير و السابعي القفصي ينصتون والمجارف لاتزال بايديهم وهم الـــى جانب قطع الهندسة يصلحون زوايا خندق ضخم قد امتد طولا وعمقا قال :

ـــ اعتقد أننا على أبواب خط ماجينو

وبذلك سنشكل مددا لمقدمة الجيش

وقال العريف اندريه متظاهرا بدراية اكثر:

ـ بل اخشى أن نظل نراوح مواقعنا

فنعيد عصر الخنادق الثابتة التي

عرفتها الجبهة إبان الحرب العالمية

الأولى

فقال جورج وهو يمسح اتربة علقت بمعطفه :

ـ من لنا هذه المرة بالمارشال جوفر

او بول ماري سيزار جيرالد ليصنعا الاختراق

مرة أخرى؟

ثم اكمل في شيء من حسرة وكأن حاضر فرنسا لا يرقى الى امجاد ماضيها :

ـ اجل جوزيف جوفر

قائد حرب نهر المارن عام 1914 ..

وشك بوداود في معلومات زملائه من الجنود عن طبيعة هذه الجهة فليس من بينهم من يعرف الارض التي يقفون عليها الان .باستثناء الرقيب الاول انطوان و الضباط ممن يمتلكون الخرائط....اما الجند فتارة يعتقدون انهم قبالة خط ماجينو وطورا يزعمون انهم قريبون منه الى الغرب ، وفي الحالتين هم غير بعيد من خط سيغفريد الالماني المنيع التحصين المواجه لخط ماجينو الفرنسي ، وقد اصبح الخطان بتحصيناتيهما الاستثنائية محل احاديث اسطورية تشد الخيال ..

وقال انطوان و قد حضر:

ـــ هذه منطقة لاعلاقة لها بخط ماجينو

ولا بخط سيغفريد معا..

واضاف وهو يضغط على يد زميله بوداود ، موجها كلامه الى بقية زملائه :

ـــ خط ماجينو وضع تحت امرة الجنرال هونتزيغر

بامر مباشر من الجنرال جورج مساعد قائد

الاركان غاملان..ونحن لسنا تحت قيادة
الجنرال.هونتزيغر وقد كان هذا كافيا لتفهموا وضعكم ..

واكمل انطوان قوله :

ـــ الجنرال جورج قال لهونتزيغر وهو يسلمه المهمة :

((.إن مصير الحرب متوقف على هذا الخط))

وبعد انتهاء العمل كان انطوان قد ابلغ بوداود تعجبه بقوله :

ـــ لا ادري لماذا تبالغ القيادة في

حشد قواها دفاعا عن خط ماجينوهذا

كما لو انه المنفذ الوحيد الذي سيستغله الالمان

للوصول الى التراب الفرنسي ...؟

وقال بـــــــــــوداود:

ـــ ربما كانوا محقين ان كان فعلا يكتسي

كل هذه الاهمية الاستراتيجية..

وهز انطوان كتفه قائلا في استخفاف :

ـــ فرنسا ككل دولة اخرى ليست بيتا

يتوفر على منفذ واحد يا بوداود..

كل الحدود في اوان الحرب تصير عبارة

عن منافذ ياصديقي..

وقال بوداود بثقة :

ـــ لا تنس ان الافارقة هم من يرابط على خط ماجينو

على ما قيل لنا ..

وضحك انطوان قائلا :

ـ والانجليز شرقا والحشود الفرنسية

الهائلة من بقية الجهات..ومع ذلك..

ومع المساء شدت الإسماع دمدمات قذائف ثقيلة مركزة التصويب ، تزامنت مع تساقط مطر متقطع وريح آخذت تشتد ..وقبل ذلك كان على كل عسكري أن يتلقى عشاءه من الوجبات الجاهزة بموقعه داخل الخندق ، ثم خف القصف ، لينقطع في النهاية معيدا الى الليل سكينته و قبيل الإشراق زار قائد الاركان ، الجنرال غاملان شخصيا مواقع الجند ، والتقى بالضباط فقط لـــيقول لهم على عجل :

ــ يجب ان تصمدوا على الارض

لان تغطيتنا الجوية تعد نسبية

على ان لا يحد ذلك من فعالية هجوماتنا ..

..لذا علينا التقدم بحذر لكن مع عدم التوغل
بتهور..ثم انا لدينا من ارقى انواع المصفحات

ما نطمئن اليه ..

ولكي يخفف من وطأة كلمته على ضباطه استدرك قائلا :

ـــ .ولكن الطيران الانجليزي ملـــــــتزم

بدعمنا ..اتمنى فقط ان لا يتفطن الالمان والا شنوا هجوما

بحريا مباشراعلى الجزر البريطانية ليجبروا تشرشل على

استغلال كل قواته الجوية في الدفاع عن بلده

وابتسم مشجعا وهو يقول قبل انصرافه:

ــ وهذا محتمل أيضا بنسبة ما أيها الأبناء ومن ثمة
فلنعتمد على أنفسنا قبل كل شيء ..

وقبيل انصرافه ابلغ سامي الضباط ساخرا ان الالمان يحاولون تاليب المكسيك ضد امريكا لالهائها عن دخول الحرب الى جانب الحلفاء مختتما كلمته بقوله :

ــ وربما ذكّروا المكسيكيين بالحصار

الذي ضربته على بلادهم البحرية الفرنسية

ابان ثلاثينيات القرن التاسع عشر..

ليوغروا صدورهم علينا ..

و بعيدا من مكان انصراف الجنرال قال بوداود لجورج في تذمر وهما في فوج عملية استكشاف ليلية على الارض :

ـــ شهر مضى ومامن شيء قد تغير ..ا

وفي ضيق زفر جورج وهو يحرر احدى يديه من مسك مطرته الملآى بالماء بعد ان شرب ، وقال :

ـــ حسبنا اننا لانزال على قيد الحياة

فخلال هذا الشهر الذي تتحدث عنه

تكبد العالم خسائر لا تحصى ..

ملايين الارواح ازهقت في اروبا

بسبب عنجهية قادتها ...فلنمجد الرب

يا بوداود..لاننا لم نكن بعد في عداد ضحاياها

فورعودة سرية الاستكشاف المتكونة من مامادو وبوداود وجورج واخرين الى القاعدة المخندقة بضواحي مدينة ليل ، وجدوا الجيش وقد استعد لدخول المعركة في محاولة لفك حصار الماني مضروب باحكام على الجيش الامامي قريبا من ضفاف نهر الموز ..

وليلا تحرك بوداود ورفاقه ضمن هذه التعزيزات عبر ادغال كثيفة تحجب الرؤية .وتحت مطر منهمر بلل كل شيء ، واخذت الاحذية العسكرية الثقيلة تغوص في طمي الوادي حتى الركب ، ومن الجنود من سقط نتيجة ثقل حمله ومكابدة سوخان قدميه في الارض المبللة ذات الطمي ، الى ان انتهوا الى مؤخرة قوات امامية كانت قد سبقتهم ، فالفوها منهمكة في تبادل نيران مدفعية مع الالمان ، ومن دويها اتضح لبوداود انها غير مكثفة عكس ما كان يعتقد ، بحيث يتخلل اطلاقها انقطاعات يلفها صمت ياخذ رهبته من شدة الظلام .

ولامر ما لم يشعر بوداود باية نقمة على صوت المدفعية الالمانية وهو يسمعها تزمجر لاول مرة موجهة نحو الجيش الفرنسي بالذات الذي يوجد ضمنه ..المدفعية والطيران الاليات الحاسمة التي غالبا ما رجحت كفة الفرنسيين في كل المقاومات التي واجهتهم في مستعمراتهم الافريقية البائسة ، هي ذي الان تدك عمق دفاعاتهم المتراجعة باستمرار ..

.والى هنا تذكر بوداود موقف الرقيب الاول انطوان الذي غالبا ما كان يجاريه في انتقاده لفرنسا لكن نقمة انطوان لم تزد في نظر بوداود عن رفضه غير المعلن للعمل العسكري كما كان يقول ..ولوانها احيانا تجاوزت ذلك ..فهو غالبا ما استهان بامجاد فرنسا صراحة حين ينفرد ببوداود ..مكث الجيش يومه في خنادق كبرى ممتدة كانت مهيئة من قبل كما اعتقد بوداود

منذ الصباح الباكر اكدت المدفعية الالمانية حضورها بقوتها وبراعتها وضراوتها المعهودة الى ان قال الجندي جورج لبوداود :

ـــ انه يوم الماني بامتياز ..

اما بوداود فكان شبه معجب بدوي القذائف الالمانية وهي تتساقط اعجابا غير معلن..يالها من عبقرية ..من براعة في التصويب ..من تقنية عالية ..ان الالمان ليستمدون الهامهم القتالي من فتنة ايفا براون وليس من جبروت هتلر ..لانهم يقاتلون بقناعة ذاتية متاصلة فيهم وليس عن خوف او مجرد انضباط عسكري فقط..لذلك تتالت اخبار انتصاراتهم على كل الجبهات المفتوحة حتى الان شرقا وغربا ..ونتيجة لهذا الشعور الذي يغمره صار بوداود ينظر الى رفاقه في السلاح جورج وجوفر و ضابطي الصف انطوان وحتى العريف اندريه بشفقة ، بل ان الجنرال غاملان الذي تحدث عن الحرب كما لو انه عضو في ناد رياضي ليستدر العطف بدوره في لحظات المواجهة العنيفة هذه..

وخامره شعورمختلط غير محدد التوجه ، مع اغارة المقاتلات الالمانية على مواقع فرنسية امامية لم تكن لتبلغها حتى ذلك الحين بعد ان كبدت المصفحات خسائر هائلة ...فكاد يصيح باتجاه جورج :

ـــ فعلا انه يوم الماني بامتياز يا صديقي

ولكنه خشي سوء العاقبة فتمالك نفسه ولانه لم يحسم امر الاحساس المزيج الذي يغمره فهو احيانا لايريد للالمان ان ينتصروا ويريـــــد للفرنسيين ان ينهزموا ، وهي المعادلة التي لم تتضح في ذهنه ..وظلت يده على الزناد رغم ان الامر باطلاق النار لما يصدر بعد تجنبا لاكتشاف امر الخنادق الامامية الممتدة ..و الى جانب بوداود كان يتموقع جورج والى جانبه الاخر عبد الكبير ..وجميعهم شاهد ادخنة الغارة الجريئة في وجوم ..

وايقن الجميع ان الطيران الانجليزي قد تخلف مضطرا للدفاع عن بلده ربما ..كما توقع الجنرال غاملان من قبل ..وهذا يعني ان الجو سيصير ملكا لطائرات شتوكا الالمانية بصورة كلية ...لكن المخيف انه .الى جانب غضبة سلاح الجو اشتد الهجوم البري الالماني باسلحة متعددة تدخلت ، تتقدمها ارتال من الدبابة بانزر المخيفة ، وكان على القوات الاحتياطية الفرنسية ان تتحرك نحو الامام زحفا ..والامام يعني عرين الاسد، العمق الالماني الرهيب .وكان ضمن هذه القوات بطبيعة الحال بوداود وجورج و العريف اندريه الّذي لم يعد لرتبته اي معنى في هذه اللحظات على ما يبدو بالاضافة الى مامادو السنغالي وعبد الكبير المراكشي ، والسابعي القفصي والاسمر الخارق الذكاء الذي تعود اصوله الى بلاد مالي..اما جوفر فيوجد حيث العقيد (بيار) لانه من يحمل جهازاللاسلكي.

كانت الاوامر التي تلقاها قائد سرية الاحتياط من الجنرال جورج رأسا ودون مرور بقائد الكتيبة كما درجت العادة ، تقتضي المساعدة على فك الكماشة الالمانية التي وضعت داخلها امامية القوات الفرنسية بمنحنى الوادي ، بحيث احكمت قبضتها عليها ليلة البارحة ، وعلينا يقول قائد السرية كمؤخرة ان نفشل الحصار مردفا ان تقدم الليل سيشل طيران العدو فلا يباغتنا ، وفي نفس الوقت سيغنينا في تقدمنا عن الحاجة الى اية تغطية جوية ..فلنستغل ساعات الظلام باحكام ايها الجنود ..

ودنا احد النقباء من العقيد(بيار) ليقول له تعليقا على اوامر الجنرال :

ـــ سرية الاحتياط وضعت اساسا لتعزيز مقدمة

الجيش وليس كقوات لفك الحصار يا حضرة ..

ولفه العقيد بنظرة شبه ناقمة وقال :

ـــ تطورات الحرب هي التي تتصرف في الخرائط

فعلى ضوء ما تمليه مراحلها المتقدمة

يتغير كل شيء ..والا اين المبادرة العسكرية ؟

وقال نائب العقيد :

ـ ثم ما الفرق بين تعزيز مقدمة الجيش وفك الارتباط ؟

واثر عملية التفاف سريعة التحمت الكتيبة المختلطة التي يقودها العقيد بيار مع ميمنة القوات الالمانية المحاصرة لمقدمة الجيش الفرنسي ..فاستحالت الارض بقعا متفجرة وادخنة وازيز رصاص ..وتفطن بوداود الى ذكاء خطة الجنرال جورج فعاملا شدة ظلام الليل وقوة الالتحام قد اجلا تدخل القاذفات الالمانية الى غاية الاشراق المقبل ، واصرفا قذائف المدفعية الارضية نحو المواقع الفرنسية الخلفية دونما اعتقاد منها انها مواقع وهمية ..ان المعركة الان تعتمد الاسلحة اليدوية اكثر من اعتمادها على ما يفوق تلك الاسلحة فتكا وابادة.. .

يالها من فرصة اصبحت تلوح في الافق اليوم ..ان بوداود والالمان جنبا الى جنب في معركة تكاد تنتقل الى السلاح الابيض لشدة التحام المواقع ..صحيح ان مرابض الرشاشات الفرنسية خلفه تبدو عنيفة ، ولكن الصحيح ايضا ان دويها اخذ يدخل طور التراجع على الاقل في نظر بوداود..

في هذه اللحظات بدا التقدم الفرنسي الذي يحصل، وكانه سباحة ضد تيار الحرب كلها .. الحرب التي لايزال زمامها بيد الالمان في كل الجبهات الملتهبة.باوربا الشرقية ، وشمالي افريقيا .فهل يحصل العكس على الجبهة الفرنسية ؟ يتساءل بوداود في ريبة ..هل هو لايريد حصول أي استثناء قد يحدث لغير صالح القوات الالمانية..وفي أي مكان ..؟ لايدري..

فهو منذ ان صارح محمودا ايام ثكنة (الراس) بمدى الاعجاب الذي يكنه للامان..لايزال على بعض رايه ذاك حتى ورصاص هؤلاء يتساقط حوله كالمطر ، انه كمن دخل سوقا لامصلحة له فيها لامع البائع ولا مع المشتري ولذلك بقي بين قناعتين فهو يحارب الالمان اعلاء لشرف بندقيته ، وليس نصرة للعلم الفرنسي وهما طرفا المعادلة اللذان لم يتمكن من التعبير عنهما بوضوح ..قد يكون من الصعب التفريق بين الامرين ، شرف البندقية ونصرة العلم لكن بوداود يدرك في نفسه حدود هذه التفرقة ، ولو بشكل لايستطيع شرحه بتفصيل ، ولكم حاول ان يشرك محمودا في هذه القناعة **غير ان اللغة ظلت تخونه** ، اذ كيف يفهمه حين يقول له الشرف شخصي و النصرة موضوعية مثلا ؟ ومحمود يرى في موقف زميله تناقضا واضحا .وربما قال له بوداود يومها:

ـ ان ولائي للجيش الالماني

قد تتفهمه قرية الثيران اكثرمن ان تتفهم ولائي

الى الجيش الفرنسي..فقريتنا لا تحمل

اية ضغينة للالمان عكس ما هو الحال بالنسبة للفرنسيين..

وضحك محمود في صخب وهو يقول :

ـ انت تنشد مرضاة ذهبية فقط ..

وقال بوداود متنهدا :

ــ لا تقزم معنى كلامي ياخي.

ثم انك من المعجبين بايفا براون اليس كذلك ؟..

وقال محمود :

ــ نعم لكن ليس الى درجة توجيه نيراني

الى صدور رفاقي في السلاح..

او خذلانهم في معركة مواجهة مع جيش اخر ..

وقال بوداود على الفور :

ــ ووصية خالك... الصواف ؟

ــ لم يوصني بالتخاذل على كل حال..

مر هذا الحوار كارتداد سريع في نفس بوداود الذي صارح نفسه ان اعجابه بالالمان ليس حبا في النازية التي يجهل تفاصيل فلسفتها، ولايعرف عنها اكثر من ما بلغه عنها من خلال كلمات الضباط الفرنسيين اللاذعة في اللقاءات التي كانت تنظم قبل الحرب بثكنة الراس ، بل فقط لان الالمان هم اعداء فرنسا كما كرر لزملائه من ابناء جنوب المتوسط محمود وعبد الكبير المراكشي والسابعي القفصي ، رغم انه يعترف بعدم انسجام طرفي فكرته ..

ومع انحسار الظلام اخذت المضادات الفرنسية المتمركزة بالخلف تستعد للتدخل على قلة عددها وتباعد اماكنها ، وفعلا نجحت في افشال بعض القاذفات الالمانية ، بل والحقت باخرى اضرارا بليغة لكن طلعات لاحقة لاسراب من المقاتلة شتوكـا ذات الازيزالرهيب . والقاصفات الانقضاضية من طراز ..مو ..هو ..دو ..استهدفت اكثر من موقع فرنسي على ما يبدو ..وكان لهذا التفوق الجوي اثره على الارض وبالذات على فرق المشاة الميكانيكية التي تكبدت خسائر ويسقط جرحى من بينهم جورج .وعبد الكبير .و يتراجع العريف اندريه ويسقط. اخرون قتلى ..

وتحول ظروف المعركة دون تلقي جورج وعبد الكبير اسعافا اوليا كافيا فيلازمهما بوداود ومامادو رغم اشتداد المعركة ..

ثم تعزز الهجوم الالماني البري ليجتاح بقية مكامن الكتائب الفرنسية الى ان سقط قائد فرقة المشاة 21 واحترق مركز قيادته وهو يصب جام غضبه على تهاون الانجليز واخلالهم باتفاق توفير التغطية الجوية، ويلعن تأرجح الامريكان في إقرار اعلانهم الحرب ..

كان من بين ما قاله قبيل ان يلفظ انفاسه وكأنه يحادث شخصا ما:

ـ لم يزد دعم الانجليز للجيش الفرنسي

عن أربعة أسراب في أول الحرب ثم تنصلوا

بل هربوا كما فعلوا في واقعة دنكرك.

ولم ير قائم مقام قائد الفرقة ، الذي لايزال بوداود يجهل اسمه ، بدا من اعلان الاستسلام حفاظا على بقية القوات التي اعتقلت واقتيدت فور ذلك ، للصعود الى شاحنات مغطاة لفظ بعض الاسرى انفاسهم على متنها لظروف مختلفة ..

كانت رؤوس الاسرى عارية منكسة وثيابهم معفرة ولحاهم غير حليقة وبززهم العسكرية تحمل اثار المعركة وبقايا الخنادق ، من ادخنة واتربة،وبوداود لا يقوى على ابصار ما فوق قدميه المغلولتين ..وقلبه منصرف الى التفكير في مصير عبد الكبير الذي حمل الى جانب جورج على متن سيارة اسعاف ضمن بقية الجرحى، وفي دخيلته اثنى بوداود على سرعة طاقم الاسعاف الالماني في نقل الجرحى، واسترجع ذهنه احاديث سبق لها ان دارت بينه وبين عبد الكبير اثناء عبور كتيبتهما الضاحية الشمالية الشرقية من فرنسا في طريقها الى جبهة القتال :

قال عبد الكبير لبوداود :

ـ رايت البارحة كأننا وقعنا

أسرى بيد القوات الالمانية !

فقال بـــــــــــــودواد :

ـ ذلك بعض ما اتمناه يا عبد كبير

ـــ هل جننت ؟ اذن سيصلبوننا على ابواب برلين

وضحك بوداود وهويلتفت يمينا ويسارا لكيلا يسمع كلامه احد :

ـــ بل سيرحبون بنا ونلاقي من الحفاوة

ما لم يخطر لنا على بال ..

ونظر اليه عبد الكبير نظرات مركزة مستفهمة :

ـــ لماذا ؟ السنا في صفوف اعدائهم

الفرنسيين ؟؟

ومد بوداود يده نحو زميله كما لو انه يريد مصافحته وهويقول :

ـــ قلت ((في صفوف اعدائهم)) ـ اذن نحن لسنا

باعدائهم والالمان كغيرهم من اجناس

الارض يعرفون الظروف التي وضعتنا في خانة

الفرنسيين.

من يومها ظل التفكير في هذه المسالة حكرا على بوداود وحده ..ما يشده الى الالمان ليس ايفا براون التي كان يطرب محمودا مجرد ذكر اسمها اثناء ليالي ثكنة الراس ،فيقول لانطوان مداعبا انه لسوف يقتحم المانيا من اجل سبيها ، فاين هو من ايفا براون حمامة الرايخ الثالث ؟ لكن ما الذي يشد بوداود الى الالمان ؟ هل هي بقايا ثأر وراثي لضحايا فترات المقاومات في بلده ، التي لم تستثن جده وخاله ، فترات الموت الصامت كما يسميها.فالفرنسيون عكس الالمان يبيدون ضحاياهم في صمت بعيدا عن عيون العالم ..كما لو انهم ذئاب تفترس اغناما تحت جنح الظلام ، اما الالمان فالعالم كله ينظر الى ما يصنعون وهنا الفرق ..فرق بين ان تقتل ضحيتك صبرا من جراء تعذيبها و تصفيتها بشتى الطرق الكاتمة للصوت ، وبين ان تحاكمها او تهاجمها على رؤوس الاشهاد .هو ذا ما يجهله محمود السادر، المندفع الذي لايعرف اين يضع شجاعته،فما يهمه هو الحصول على رتبة عسكرية لانه بذلك يخدم الهدف الذي تجند من اجله ،واخذت نقمة بوداود على زميله تتراجع حين تذكر انه لايزال طريح الفراش بمستشفى مدينة الساحل نتيجة اصابته في المناورة العسكرية الاخيرة ..

وعلى مضض ابتسم بوداود في فراغ وهويستعيد الشعار الذي لطالما رفعه محمود ((لاصرن عقيدا اونقيبا على الاقل)) ويعلق بوداود في نفسه ((أه..لكم كانت تجنح بنا احلام اليقظة ..)) قالها دون ان ينسى كلمة الكولونيل بن داود في هذا الباب بالذات.

ورتل عربات نقل الاسرى يخب عبر الجنوب الالماني ،يستمر بوداود في تحليل طبيعة وجوده في هذا المكان وكيف انه يسلم الى جيش منتصر على انه واحد من افراد جيش منهزم .. فيقف عند حقيقة علاقته بهذا الاخير ، لينتهي الى القول ان هي الا علاقة وهمية يراد لها ان تتطبع ، لكم كان ذلك العريف المتعجرف اندريه محقا حين قال لبوداود ذات يوم وهوثمل وقدكان الحديث عن احتمال التحام الجيش الالماني بالجيش الاحمر السوفياتي على الجبهة الشرقية في المستقبل :((الانسان السوفياتي اوروبي والانسان الالماني اوروبي ايضا وقد يهزم احدهما الاخر ..وانت ما دخلك؟ عد الى خيمتك)).

ويتنهد بوداود والعربات المقلة للاسرى تضطر الى تغيير الطريق ربما بحكم نـزول الظلام .. ويردد...في حنق احيانا :اجل ما دخلي ..؟ وما معنى موتي في هذا المكان بالذات بين دولتين .. لست بابن لاي منهما ؟؟...هل قدر لاي عسكري اوروبي مثلا ان يرد هجوم دولة على دولة دون ان تكون الدولتان اوربيتين ؟؟ انهم لا يتدخلون خارج قارتهم الا كمحتلين ، وليس في قاموسهم التضحية في سبيل ما يسمى اليوم برد العدوان .

فلماذا االتي انا لرد عدوان دولة اوروبية على احدى شقيقاتها ؟ ولما بلغ ثورة الغضب هذه وقعت عيناه على سحنة القنفذ وقد عكست ملامحه عياء وتذمرا فرق لحاله قبل ان يبادله الاخير النظر . هذا الفتى اللطيف الذي يعيش على سجيته ولم تاخذ ذهنيته اي شكل من اشكال االتعصب بعد ، كان لايحب في ثكنة الراس الا اثنين محمودا او الكوبوي كما حرص على تسميته دائما وسيجارة " الجوب" التي يندفع لها صدره سعالا ، ان من بين هؤلاء الناس ايضا اناسا يستميلون القلب ببراءتهم وحسن مودتهم كما اقر بوداود الان على غير عادة منه.

و قبيل المغيب اخذت تتبدى قاعدة عسكرية المانية شيئا فشيئا، كما لو انها مطلع غابة كثيفة الاشجار ، وهي تقع باحضان هضبات متلاصقة تحفها تلال اقل قامة ..كان بها عربات

قطار مفصولة عن بعضها يعلو مقدمتها العلم النازي ،والى جانب القاطرات تراءى لبوداود شبه رتل من شاحنات ود بابات و عربات خفيفة وقد اركنت في غير نظام.، فظن ان بعضها افتقد صلاحيته في الحرب الضروس ،اما الجند فقد انتظموا تلقائيا في شبه حلقات، بعضهم في حالة سير الى جانب عربات اخرى اخذت تغادر القاعدة على ما يبدو ، ورغم ذلك كانت هذه القاعدة لاتخلو من ضجيج محركات ولغط ياخذ احيانا حدة هتاف جمعي لا يفهم منه الا شعار "يحيا هتلر"، متصاعدا في وجه الاسرى الجدد كنوع من التحدي ، لاقناعهم بما ال اليه الامر او ما سيؤول اليه حتما ..

وبالقرب من خلية النحل المؤللة هاته اخذت العربات المقلة للاسرى تتوقف تباعا واحدة تلو الاخرى ، وعلى عجل اخليت من حمولاتها البشرية ،كان جورج الى جانب بوداود دون ان يتبادلا النظر في حين ظل يفصلهما عن السابعي القفصي اكثر من اسير:

ـــ هل هي محطة قطار شبه مهملة ؟

تساءل بوداود...كان ضابطان من سامي الضباط الالمان يقفان قرب بوابة العربة يميزهما امتداد معطفيهما الى اسفل وهما يبتسمان، كما لوانهما يرحبان بالاسرى الذين اخذوا يغادرون العربات ، بعضهم في حالة انهيار شبه كلي ، ثم وزعوا وامروا بالوقوف على امتداد رتل الشاحنات ، فاعتقد بوداود ورفاقه ان هذا المكان لايعدو كونه محطة عبور ، وسيستانف بهم السير ..وتحرك احد الضابطين كما لوانه يمازح زميله وقد استخدم لغة فرنسية عمدا ولوانها غير بليغة :

ـــ لقد راهنت فرنسا وانجلترا على

شموخهما التاريخي الكاذب متناسيتين ان بلاد

..الفوهرر هي وحدها سيدة الشموخ

اليس كذلك ايها الاسرى ؟

وصاح الجميع وبعضهم بحماس زائد كبوداود :

ـــ اجل ...صدقت ..سيدي الضابط

بينما اكتفى الجند الالمان في الناحية الاخرى بترديد :

ـــ يحيا هتلر ..يحيا هتلر ..يحيا هتلر ..

انصرف الضابطان الى الخلف والضابط الثاني يقول لزميله :

ـــ لقد اخذ الغرور الفرنسي ينتهي

..الى بعض الحكمة ..

ويهز الضابط الاول راسه مؤكدا مقولة زميله :

ـ تعني موقف حكومة (فيشي)؟

ـ وموقف المارشال (بيتان) بالذات ..

ـ وبيتان ..يعني رصيدا عظيما ورقما صعبا

في تاريخ فرنسا .

ـــ وهو معروف بموقفه المعادي لليهود مما
جعله اكثر انسجاما مع الموقف الالماني ..

واستند احد الضابطين الساميين على اقرب جدار واخذ يستمع الى زميله الذي اضاف :

ـــ اما ذلك المتعصب المغرور ديغول فيعتقد

ان فرنسا هي وحدها التي يحق لها ان تغزو

بلدان الاخرين ...

في هذه الاثناء يلتحق بالضابطين احد العقداء او النقباء لم يتبين بوداود رتبته فيتسلم او يسلم امرا ما ثم ينصرف ..بعدها تقدم احد الضابطين من الاسرى مشيرا بيده وهو يقول :

ـــ على الاسرى من اصول فرنسية

ان ينصرفوا الى هذه الناحية .

وارتبك الاسرى ..وخيم سؤال ..هل في امكان احد منهم ان يتجرأ على القول بانه غير فرنسي حتى ولو كان من احدى جزر اندونيسيا ؟؟ فحين تقول انك غير فرنسي لايعني ذلك الا انك اصبحت خارج المنظور من سطح الكرة الارضية ..المنظور الذي استقرت عليه معرفة المتخصصين المحدثين في جغرافيا الجنوب ..فحين تعود بك اصولك الى ما وراء البحار ، فاكيد انك لا تخرج عن الانتماء الرسمي الى احدى جنسيتين اثنتين :اما جنسية فرنسية اوجنسية انجليزية ..وفي اندر الاحوال قد تكون هولنديا اواسبانيا او ايطاليا ..و بالمختصر المفيد فانت ...انت ..انت ...اوروبي الهوية او غير بشري ..

تحرك فريق من الاسرى الى حيث اشار الضابط فبدا انهم من الفرنسيين الخلص بينما احتار الباقون في امرهم ،فهم من اسقاع افريقية متفرقة ..وربما من غيرها ..ولكن ارتباكا كهذا في حد ذاته لايشكل عند الفرنسيين الا موقف تشكيك في هوية صاحبه ..

والتفت بوداود الى بقية الاسرى وهو يقول :

ـــ ولكن من نحن يا سادة ؟

واندفع احد الاسرى مؤكدا :

ـــ نحن افارقة ..وسنبقى ...انا زنجي يابوداود..

وهمس اسير ثالث :

ـــ وهل في امكان احد ان يقول انه غير فرنسي

حتى ولوكان يتنسب الى كوكب القمر ؟

وغمغم الباقون في غير افصاح...وقال الضابط الالماني بعد ان اصدر امرا بالتزام الصمـــــــــــــــــــــــــــــت :

ـــ سوف نتأكد من حقيقة كل واحد منكم ..

اختفى الاسرى من أصول فرنسية خلف جدار فولاذي فاصل تعلوه اسلاك شائكة ، و كان من بينهم بطبيعة الحال جوفر، جورج والعريف اندريه . واخرون من زملاء حلقة جناح الحانة سابقا ، في هذه الاثناء حاول القنفذ ان يلتفت نحو من تبقوا كما لو انه يودعهم لكنه تلقى صفعة على قفاه من احد الحراس الالمان .. ،

بقي الى جانب بوداود كل من السابعي القفصي والمراكشي الذي فرح بوداود بالتحاقه بهم اثر تلقيه اسعافا عاجلا بعد الجرح الذي كان اصيب به ، وقد كان بوداود يعتقد ان زميله سيطول غيابه بالمستشفى.ثم اخذوا يتفطنون الى مجموعة من نسوة يجلسن بعيدا منهم نوعا ما بشبه جناح جانبي ، لم يشك احد في انهن اسيرات سبقنهم الى هذا المكان .و بالزاوية الاخرى رسم رجال شبه حلقة وقد علت وجوههم سمرة متفاوتة الدكنة ..

وما أن تلقت مجموعة الاسرى أأمرا بالجلوس في مواقعهم ، حتى شرد فكر بوداود ،كانت ريح الشمال التي أخذت تهب منذ حين قارسة تعكس بعض حدتها حركة اشجار قريبة من القاعدة، وكان هدير معدات حربية لا ينقطع ، فهي قادمة اومنصرفة على ما يبدو،بينما لم يعد في وسع أحد أن يقف على حقيقة جبهات الحرب ، رغم التاكد المسبق لدى الاسرى من تفوق قوات المحور.

فضراوة القتال التي جوبه بها الجيش الفرنسي على جبهات بلاده لاسيما في مدينة ليل وما حولها ثم على الحدود البلجيكية ، وقبلها في هولندا و بلجيكا ذاتها لم تكن مسبوقة ..

ولو ان تواضع امكاناته وانحسار اغطيته الجوية في مناطق معينة اديا الى ما انتهى اليه ..الامر رغم ثبات المصفحات الفرنسية التي كانت اكثر فاعلية بالقياس الى الطيران..

ولاول مرة شاهد بوداود بام عينه الدبابة الالمانية (البانزر 4،) التي انهت المعارك لصالحها على الارض ، كما فعلت الطائرة شتوكا في السماء .

وعلى الرغم من طول ذلك اليوم وتعدد مشاهده الرهيبة كان في وسع زاوية ما في خلد بوداود ان تستانف التفكير في ذهبية التي منذ زيارة العم بوجمعة لم ينقل اليه احد خبرا بشانها حتى رسائل شقيقه "علي" كانت تاتيه في ثكنة الراس خلوا من امرها اما الان فقد انقطع كل شيء قد يربطه بجنوب المتوسط..وكان كلما زاره طيفها الا واصطدم بلحظة الوداع القاسية..هل كانت بالمنزل ورفضت وداعه؟ ام انها لم تكن هناك ساعتها ؟ ليت الامر ظل محل تساؤل ولم يسمع كلمتها الغاضبة القاسية الجارحة ..ان ما تلا رحيله من اخبار مستجدة افصح عنها العم بوجمعة في لقائـــه الاخير تارة صراحة وطورا من خلال همهمات مبهمة لتؤكد انـــــــها انصرفت الى بناء مستقبلها بالشكل الذي فضلته ، كان يفكر في هـــــذا ودوي المدافع والدبابات والطائرات يقاطعه فلا يحفل به وكأن الحياة والمـــوت اصبحا سيان في نظره ، اذ ما جدوى حياة فضلت ذهبية ان تعيش خارجها ؟..

القســـــــــم الثانـــــــــــــــي

الفصل السادس

اثار على الشفاه :

منذ ان غادر بوداود بلدة الثيران لينضم الى صفوف الجيش الفرنسي وعلمت رملية ام محمود بصدمة ذهبية داومت على زيارتها بين الحين والاخر للاطمئنان عليها الى ان بدا الامر وكانه نوع من المبالغة في العطف والحنان . لكن رغم ذلك لم يرتب احد في سلوك رملية لا ذهبية ولا امها ولا حتى جاراتها، بل ان ذهبية ـ ونتيجة لحالتها النفسية المتازمة ـ تعلقت بوجود هذه المراة كطرف غير اعتيادي في العائلة ، في الوسط الذي سئمت كل شيء فيه الى ان اصبحت تنتظر قدومها بفارغ صبر، وبمرور الايام اخذت رملية تشكو الوحدة و المبيت ليلا بمفردها ..حتى ان ام ذهبية قالت لها ذات يوم :

ــ ومم تخافين ومعظم رجال القرية

بمثابة ابنائك يا رملية ..

وضحكت على مضض وقالت :

ــ وهل شخت الى هذا الحد ؟

واضافت جادة هذه المرة :

ــ لا اخفيك ان عيون بعضهم

تحمل مالاتحمد عقباه..

وتساءلت ام ذهبية وقد تخلت عن الدقيق الذي كانت ستعجن منه خبزا :

ــ وما الحل ؟ تعالي ليلا لتنامي عندنا..

وقالت رملية على الفور :

ــ واعرّض منزلي للسرقة والنهب ..؟

ــ وماذا ترين اذن ؟

ــ لو .. لو ..تسمحون لذهبية بالمبيت معي ..

وبرقت عينا ذهبية من على المخدة حيث تتمدد وقالت مسرعة :

ـ ارجوك يا الناعسة (تعني امها)..

و قالت الناعسة في لامبالاة :

ـ يبقى ان نستشير اباك فقط..

ولما همت رملية بالانصراف قالت لها ام ذهبية (الناعسة) :

ـ اذا وافق بوحجلة ستلحق بك ذهبية

مع الغروب ..

ولم يكن بوسع بوحجلة رفض أي طلب لذهبية. سيما تلك الطلبات التي يمكن ان تنعش نفسيتها التي يجهل اسباب تازمها فهو لا يعرف دوافع كل هذا التغير الذي لحق بابنته منذ فترة فاكسبها صمتا طويلا وتذمرا وكابة لا تنتهي، ولم تر الناسعة غضاضة في ان ترسل مع ابنتها احد الارغفة التي اصبحت جاهزة الى رملية ، ومنذ الليلة اخذ مبيت ذهبية بمنزل رملية حكم العادة وقوتها حتى ان حسناء بلدة الثيران قد تخلت عن زيارتها لمنزل العم بوجمعة ودكانه او التسلي مع ابنته جمعة صديقتها المفضلة ، بعد ان وجدت عوضا لدى الخالة رملية ام محمود ، فاحاديث زميلتها جمعة وابيها لم تعـــد تحمل اية نكهة بعد رحيل بوداود وانتهاء امره عمليا ، بل على النقيض من ذلك اصبحت تجد في كلام رملية بعض ما يمت الى مستقبلها كفتاة بصلة في حين كان ينصرف كلام العم بوجمعة نحو الماضي وحده او ما يشبهه كمسالة الحرب الدائرة الان مما لم يعد يتسع له صدر ذهبية . فلتشتعل الحرب وليمت فيها من اراد ان يموت فما علاقتها هي بكل هذا ؟ .

مرت ليالي ذهبية ورملية على تلك الوتيرة الى ان كان مساء يوم من الايام حيث زارها رجل لم تتبين ذهبية وجهه لانعدام الانارة خارج الباب . وكانت قد انتصبت بعيدا بحيث تسترق حديث رملية وزائرها . فسمعته يقول لها قبيل انصرافه :

ـ سيزورك ليلة الغد ..

واصطكت اعصاب ذهبية .وتسارعت دقات قلبها وامتقع لون وجهها . وما ان اغلقت رملية الباب عائدة حتى اسرعت نحوها متسائلة :

ـ رملية.. من هذا الذي سيزورنا ليلة الغد ؟

فمسحت رملية على جبين الفتاة وقالت لها بصوت هادئ حاولت ان تضفي عليه قدرا من الحنان :

ـ وفيم تخوفك يا جميلة ؟ ابن القايد سيزورني انا

وتراجعت ذهبية الى الخلف ويدها لا تزال في يد رملية وقالت وهي تركز نظراتها على وجه الارملة :

ـــ ابن القايد سيزورك ؟ وهل سبق له ان زارك ؟

لم تكن رملية لعوبا في نظر ذهبية الا منذ اللحظة . وربما اللحظة اقتضت ذلك ، فاجابت بكل رباطة جاش :

ـــ هو يزورني احيانا ..ليغدق علي بعض احسانه

وعضت ذهبية على شفتها السفلى في تفكير مركز. ما العمل ؟ ومن جديد وجدت نفسها مضطرة الى اعادت قراءة شخصية رملية .هل كان اشفاق الارملة عليها اشفاقا مبيتا ؟ اوصل بالضرورة الى الحديث عن وحدتها التي اقتضت بدورها مبيت ذهبية عندها ؟.. هل كل ذلك كان مخططا

له بشكل متتابع ام جاء عفويا ؟ ما يزيد في اطمئنان ذهبية انه لايزال امامها من الوقت ما يكفي للتفكيرواتخاذ الموقف المناسب.. وفي خضم الافكار التي تاخذ بتلابيب عقلها نسيت ذهبية ان رملية تناديها من داخل المطبخ . ولما التحقت بها قالت الارملة بدونما مواربة :

ــ ما الذي يزعجك من هذا ؟

وتظاهرت بعدم الاهتمام ولم تجب مما جعل رملية تستطرد قائلة في شيء من الاحتجاج:

ــ هل على ان اتخلى عمن يزورني

او يحسن الي وانا على الحال التي تعرفين؟

فقالت ذهبية مشفقة :

ـ انا لااطلب منك التخلي عن أي احد

لكن زيارات من هذا النوع لاتنسجم

مع وجودي هنا كفتاة..

وانبهرت رملية وهي تقول :

ـ وهل هي زيارات مشبو..

واسرعت ذهبية بيدها لتضعها على شفتي رملية قائلة :

ــ لاتكملي ارجوك انا لم اقصد..

حاشاك يا خالة ..

ــ لماذا يزعجك ذكر ابن القايد . ؟

واعادت ذهبية رسم تلك النظرة الحادة وقالت :

ــ وما شاني به ..؟

وتقدمت منها رملية ممسكة باحدى خصلات شعرالفتاة الذي تهدل على كتفيها في غير انتظام وقالت :

ـ.ابن القايد يعني المال ..

وسكتت .ثم اضافت :

ـ ساكتفي بهذا حتى لا اثيرك

.وابتسمت ذهبية ثم ضحكت فعلا وهي تقول :

ــ او تعتقدين انه يهمني امر احد ؟

ولامر ما اغتاظت رملية لكلمة ذهبية هذه.وقالت لها :

ــ دعي غرور الفتيات جانبا .

وشدت ذهبية على كتفي رملية هذه المرة كما لو انها تحتمي بها من المجهول الذي قد تقدم عليه وسالتها :

ــ وبماذا تنصحينني ؟

وشجعها دنو ذهبية منها وابقاء يديها على كتفيها لتقول :

ــ انت لم تتعشقي الا رجلا مغلوبا على امره

وليس بيده ما قد يسعدك به

الا الاحلام الجوفاء ..

وبلغ الغضب من ذهبية كل مبلغ حين صاحت :

ـ ومن قال لك انني ابحث عن المال

او عن الجاه او حتى عن الحـــــب

انا ابحث عن الموت فحسب يا رملية ..

قالتها وسبقتها دموعها وكادت تنهارعلى الارض لولا ان رملية اسرعت اليها واجلستها على ركبتها كطفلة واخذت تواسيها وتهدئ من روعها ، ثم اختتمت غضبها بقولها وهي تتخلى عن ركبة الارملة :

ــ لقد كرهت الجميع لا أريد حدا

يا خالتي رملية .

عادت ذهبية مع الصباح الى منزلها محتفظة باسرار الامس وايضا بما قد تحمله الليلة القادمة من مفاجات ايضا، ولامر ما اعتبرت ما يحدث منذ امس جوا جديدا اخذ ينتشلها من التفكير الممض في بوداود وتاثير لحظات رحيله ، لكن المخيف في هذا الجديد انه يندفع بدون مقدمات حاملا من المخاوف ما يدعو الى التردد و التحفظ وقالت لنفسها :

ـ وانا ما دخلي ؟ قد لايكون

للزيارة علاقة بي على الاطلاق ..

واضافت ذهبية في نفسها :

ـ فليزررملية من شاء .

لكن كل هذا الحسم لم يؤد بالفتاة الجميلة الى برالاطمئنان النهائي حيث ظل عقلها مسرحا للشكوك ، وفكرت في زيارة جمعة ابنة العم بوجمعة غير انها سرعان ما تراجعت اذ ماذا عسى

جمعة ان تقدم لها بشان امر كهذا، ثم ماذا لو انها لا تنصرف الليلة الى بيت الخالة رملية ولا تبيت عندها؟؟ بل ماذا لو انها ابطلت نهائيا فكرة المبيت في هذا المنزل الذي اصبح يثير ارتيابها وتخوفها ؟ قد تفعل لولا انها رغم تخوفها تحس برغبة تدفعها الى مواصلة ما يشبه التحدي او المغامرة و الحقيقة انها لم تحدد بعد طبيعة هذه الرغبة التي اصبحت تجرفها نحو منزل رملية ، هل هي فقط الخشية من العودة الى حياتها الراكدة المحزنة ام هناك دافع اخر لما يتبلور بعد في نفسها ؟ وما ان وصلت الى هذا الحد من التخمين حتى هربت من خواطرها بل اجفلها تصور هذا الخاطر الغريب الذي لما يتشكل .

وحين عادت الى منزل رملية بعيد الغروب وجدتها منهمكة في اعداد ما يشبه مراسم استقبال ، بحيث تبدل فجاة وجه الغرفة القريبة من باب الدخول فاكتسى مفاريش ووسائد . بل ان رائحة البخور تعبق بالمنزل الغافي ربما لاول مرة كما لو انه في حالة عرس ..وانفجرت ذهبية ضاحكة وهي في طريقها الى رملية التي كانت لاتزال بالمطبخ :

ـ رملية.. ماذا دهاك ؟

واطمانت الارملة الى بشاشة الفتاة وقالت قبل ان ترفع عينيها عما يشبه قطعا من الحلويات التقليدية رتبت في صحون بعضها سعفاوي وقد وضعت قريبا منها صنية شاي :

ــ لقد اخبرتك بمن سنستقبل الليلة..

وكادت ذهبية تضع خطا تحت كلمة (نستقبل) التي جاءت هكذا بصيغة جمع . لكنها تجاهلت الامر لكيلا تكدر صفو الخالة رملية واجابت بابتسامة حائرة بقيت معلقة على شفتيها لمدة وكانها ارتسمت من خارج ارادتها.ثم اخذت مكانا الى جانب رملية و الحيرة لاتزال تستبد بها . هل مبيتها بهذا المنزل الذي سيستقبل ابن القائد سلوك ينسجم مع التفكير الجمعي لاهل بلدة الثيران ؟ ترى كيف تكون ردود فعلهم حين يعلمون به ؟ وامام هذا السؤال الملح هربت الى توقع حكم اخف وهو ان منزل الخالة رملية لم يكن يوما محل شبهة ، سيما اذا كان ابن القايد قد اعتاد زيارتها كما قالت ، ولم تكن هذه زيارته الاولى كما تدعي، فهي في وضع المحتاجة وهو القادر على مساعدتها ، ظلت تعلك حيرتها بين التخوف والاطمئنان الى ان سمعتا طرقا خفيفا على الباب فاسرعت رملية لتفتح بينما اختفت هي خلف اقرب زاوية ، كان الذي دخل هو الشاب الذي جاء بالخبر البارحة ، وتلاه ابن القائد الذي لم يظهر في هيئة قائد صغير كما توقعت ذهبية بل كان وسيما تطبع وجهه بقايا شاربين خفيفين لايرهقهما امتداد مقرف كشاربي الشاب علي اخي بوداود ، وكان هندامه عبارة عن بذلة بدوية الخياطة ، وعلى راسه طاقية غير طربوشية الشكل ، ما ان اخذا مكانيهما للجلوس حتى غادرت رملية الغرفة مسرعة نحو المطبخ وهي تردد الترحيب ، ثم عادت بما كانت قد هيئته من حلويات وقهوة وشاي ، وفي طريقها انتهزت الفرصة لتدعو ذهبية الى مساعدتها فتقدمت منها رغم تحفظها لتحمل عنها صنية الشاي ، ثم انتبهت الى وضع لباسها فاطمانت لانها لاتزال ترتدي ما سبق لها ان دخات به حين اقبلت من منزلها قبيل مجئ الضيفين ..

افرح رملية قبول الفتاة مرافقتها الى غرفة الضيوف، بل اعتقدت انها حققت مالم تكن تتوقعه .. فقالت وهي تضع الحلويات والخبز امام ابن القائد :

ــ انها ذهبية وهي بمثابة ابنتي ..

وقبل ان تحييه ذهبية قال وعيناه ملتصقتان بمحياها :

ـــ ليس هناك من لا يعرف ذهبية اولا يسمع بها .

وحين همت الفتاة بالانصراف اجمع ابن القائد ورملية على دعوتها للجلوس فجلست بالزاوية القريبة منها نزولا عند رغبتيهما ، محتفظة بامتعاضها وهي تظهر بسمة ترحاب في غير كلام . كانت برمة من خطوتها العشوائية تلك ، لقد تمكنت رملية من اقتيادها الى حيث لم ترغب يالها من امراة خطرة ، وندمت لقدومها في هذا المساء الى هذا المنزل الذي لم يعد بكل تلك البراءة المعروفة عنه ،.غير ان ابن القائد لم ينبس ببنت شفة حتى و رملية تغادر الى المطبخ ذهابا وايابا ، ورغم ذلك ما لبث الشك ان دب الى نفس ذهبية نتيجة حركة رملية ، وتساءلت في صمت : الم تكن الارملة بخروجها المتكرر تتيح فرصة لابن القائد لكي يباشر حديثا ما ؟

وربما هذا ما حدث فعلا فهاهو الان ينطق وقد تناول قطعة صغيرة من رغيف الخبزالذي امامه :

ـــ بلغني ان حصان عمي بوحجلة

قد نفق مؤخرا .

وقالت ذهبية في مسكنة :

ـــ نعم حدث هذا يا سيدي..

ماذا يعني هذا ؟ هل هي الرغبة في النفاذ الى قلب ذهبية من خلال وجع الحاجة ؟ ام هو تلطيف اجواء سيمثّل مدخلا لغرض ابعد ؟ فذهبية تدرك مقدار معاناة ابيها اثر فقدانه حصانه ، وسيلة عيشه وركوبه ، وعنوان شهرته في بلدة الثيران ، وقال بلغة القياد وقد عادت رملية :

ـــ ساخبر رملية ببعض ما يمكننا القيام به .

واحزنها قوله عوض ان يفرحها كما اعتقد فهي تخشى الاحسان لان المحسن لايطلب الا عنوان عفافها غالبا ، يا للعنة هذه اللحظات ، وامام كل هذه المشاعر التي تمخر فؤادها لم يكن في وسعها الا ان تقول له :

ـــ اشكر لك شعورك تجاه والدي يا سيدي ..

اندفع ابن القائد ومرافقه الى تناول الحلويات وقد ابت رملية الا مشاركتهما . وابن القائد يلح على ذهبية لتتقدم نحو المائدة لكنها قابلت دعواته بضحكات متكلفة يتخللها شكر واعتذار .. الى ان قال :

ـــ ان لم تشاركينا الاكل سنمتنع ..

فتحركت نحو رملية لتاخذ مكانا الى جانبها وهي تقول وقد اخذت تعتزلها شكوكها تلقائيا :

ـــ لايسعدني امتناعكما فانتما ضيفاي انا ايضا ..

وافرح رملية كلام ذهبية ، فقالت :

ـــ الم اقل لكما انها بمثابة ابنتي ؟ بل ابنتي فعلا..

ولكثرة الحديث والضحك اخذ تحفظ ذهبية يتراجع ، الى ان قهقهت قهقهة صاخبة حين قال ابن القائد لرملية :

ــ عبيئي هذا الفنجان لتشربه ذهبية دفعة واحدة ..

فقالت له ذهبية قبل ان تكمل ضحكها :

ــ ساشربه شريطة ان تقوم انت بتعبئته ..

هل هذا الانشراح الذي عرفته نفسية ذهبية هو مجرد مجاملة اقتضتها اصول الضيافة الريفية ؟ يصعب ان تقول الفتاة بهذا التفسير وحده . كما يصعب ان تترجم سلاسة قيادها هذه الى كونها فتاة عاشت طوال حياتها منعزلة ولم يسبق لها ان حادثت رجلا حديثا مباشرا ووديا غير العم بوجمعة ،انها الان تنتظر من ابن القائد ان يتكلم ان يقول اي شيء وهي التي كانت تخشى كلمة واحدة منه قبل حين .. ماذا يعني هذا؟ هل هي ذات مزاج متقلب ؟ ام هو الفراغ الروحي الذي خلفه حبها لبوداود بعد ان اغتالته بلا رحمة وبكل قسوة وشراسة ؟ فعيناها مرتبطتان الان بسحنة ابن القايد لاتريمان عنه . انه وسيم ومتواضع ولعل الاهم انه ذومال كما وصفته رملية ..اه.. رملية انها تحبها الان . وتقدر خطواتها كلها ..بل ينبغي لذهبية ان تعتذر اليها على ما بدر منها تجاهها ..وعبأ ابن القاد الفنجان وقدمه لها بيده فتناولته وهي تقول ضاحكة :

ــ ساتناوله ثم اعيد تعبئته لتشربه انت..

فقال ضاحكا هو الاخر :

ــ وسافعل وان لم استطع سيكمله (الشمام)

يعني حارسه ..

فابعدت ذهبية الفنجان عن شفتيها وقالت باصرار :

ــ لا..لا.. بل تشربه انت لوحدك ..

او ساشرك خالتي رملية في

فنجاني انا ايضا ..

فقالت رملية مستغلة روح الوفاق التي اخذت تشدهما الى بعضهما :

ــ كلاكما يكمل فنجانه فانا و الشمام

(الابله) لادخل لنا في هذه المبارة ..

ولم تتمكن ذهبية من ابتلاع ما في الفنجان لان الضحك كان في كل مرة يشل عزيمتها ويرغمها على محاولة اعادة العملية من جديد لكن بدون جدوى ، وظل ابن القائد يضحك بدوره لضحكها فسايرته رملية و (الشمام) ، وسواء في اثناء ضحك ذهبية او سكونها كانت عيناها الجميلتان لاتتحولان عن النظر الى وجه ابن القائد ، لقد راقها منظره وكانت كل نظرة منها اليه تحمل امتنانا للخالة رملية على ما قدمت وما صنعت من اجل هذا اللقاء الذي لم يسبق لذهبية ان حظيت به ، انها ليست تحادث بل و تمازح شابا على قدر كبير من الوسامة و الهيبة و

الوقارفحسب ، ولكنها فعلا في مجلس اكابر بحضرة شاب ذي مركز اجتماعي تتمناه كل نساء هذه القرى ، قالت في غنج وهي تعيد الفنجان الى المائدة :

ـــ اه.. لقد تعبت اشرب انت اولا .

فقال على الفـــــــــور :

ـــ ولكن ليس هذا هو اتفاقنا ..

عندها اخذت الفنجان واقتربت من ابن القائد الى ان ادنته من شفتيه وهي تقول في ضحك قد ارتفعت نبراته :

ـــ انا من ستسقيك هذا الفنجان اذن ..

واخذ يرتشف القهوة جرعة جرعة من الفنجان الذي كان بيدها وعيناها لاتزالان في عينيه كما لو انها تهم بتقبيله .والى غاية ذلك الحين كانت ردة فعله طبيعية رغم اندفاع ذهبية الذي لم يكن في حسبان احد حتى رملية التي تتابع المشهد في شبه انشداه . رغم البسمات الباردة التي ترتسم احيانا على شفتيها . اما (الشمام) فكان كما لو انه ملحق نهائيا بشخصية ابن القائد ، كمجرد انعكاس لها ، ان تحدث سيده اعجب وان ضحك سبقه الى القهقهة وهذا ما تعرفه عنه رملية واهالي قرية الثيران والقرى من حولها ، فهو تابع ومقطور وفقط ، ولم يكن الا كذلك لانه احد حراس القائد الذي تحول منذ فترة الى حراسة ابنه ومرافقته والسعي بين يديه كخادم ، وربما لهذه المكانة لم يحظ بوافر اهتمام من لدن ذهبية طوال هذا اللقاء ، بعد ان فرغوا من تناول الشاي والحلويات تحرك ابن القايد ففهم (الابله) انه ينوي الانصراف فسارع نحو الباب كما لو كان يخشى كمينا نصب لسيده بالخارج ولامر ما تبعته رملية شبه مسرعة بينما تخلفت ذهبية مما جعل ابن القائد يتخلف بدوره ثم يقول لها وقد قامت حين خاطبها :

ـــ ساعوض والدك عن الحصان الذي نفق ..

فتقدمت منه ممسكة بيده وهي تقول وعيناها الجميلتان في عينيه وقد سرت عبر جسمها رعشة غير طبيعية :

ـ انت رجل شهم ..

وظلت على حالها ممسكة بيده وقد ارتخت عيناها وركب وجنتها احمرار زادها جمالا ، فبدا له انها صارت مطواعا فهوت شفتاه على شفتيها في قبلة مطولة محمومة فلم تمانع ولا تهربت كما توقع ،بل تداعى الجسدان معا للهب اصطدام الشفاه ومغنطيتها وتجاذبها وحرارتها فما كان من ابن القايد الا ان اسرع نحو الباب وهو يقول :

ـــ تصبحين على خير ..

فقالت على الفور وهي في شبه اغماء تلمظ شفتيها في انشداه طفولي :

ـــ لاتجعلها اخر زيارة ..

كل شئء في ذهبية بات مزهوا تلك الليلة ، بل ما ان غادر ابن القائد وصاحبه حتى عكفت على رملية بمنتصف الرواق الضيق فقبلت جبينها ثم اتجهت نحو المطبخ وهي تقول لها :

ـــ انا من ستقوم بطهوعشائنا الليلة ..

ولم تجد رملية تفسيرا لكل هذا البشر الذي يملا عيني الفتاة ، مع ان هذا اللقاء افرحها هي الاخرى لانه كان سببا في ادخال كل هذا السرور الى قلب ذهبية الحزينة البرمة الكئيبة بل وسر الارملة اكثر ان تكون هي السبب في هذا ..

" مايكا " شقراء المعتقل الحربي :

اعتقد الجميع ان الاسرى من اصول فرنسية يلاقون في ساعات الليل المتاخرة هاته شتى الوان العذاب اثناء عمليات استنطاق وانتقام مكثفة يمرون بها ..خوف مريع دب في نفوس بقية الاسرى من اصول غير فرنسية ..وكان بوداود لايزال ينطوي على نوع من حسن النية تجاه الالمان وعليه ان يختبر مقدار ذلك.

.قال لعبد الكبير الذي يجلس الى جانبه :

ــ لااعتقد انهم بكل تلك الوحشية

.التي يصو رهم بها خصومهم ..

فقال عبد الكبير المراكشي :

ـ مهما تعاظمت وحشية الالمان فانها لا تفوق

وحشية الجنرال كوراب
التي اقترفتها قواته في المغرب الاقصى اثناء

القائه القبض على الزعيم عبد الكريم الخطابـــــــي

..اجل.. الخطابي الذي حارب الاسبان بشمال

المغرب والفرنسيين بجنوبه...مما ادى الى انتحار

جنرال اسباني هو دي سيلفاستري..

ثم أكد عبد الكبير :

ــ و من قبل كوراب ما اقترفته قوات

الجنرال بيتان ذاته

..اثناء وجوده هناك .

وحينما حاول بوداود ان يتكلم منعه الحارس الالماني الذي كان قد اقترب من الاسرى، ليعم الصمت وتطلعت اسماع الجميع الى ما قد يصدر من صراخ ألم عن مناطق يعتقد انها مخصصة للتعذيب ..لكن لاشيء سوى السكون .مخلوطا بالظلام ...

وعاد الضابطان الالمانيان الساميان الى الاسرى بخطى اتضح منها لبوداود انهما لايزالان يواصلان مهمتهما ...فارتعدت الفرائس خوفا من اوامر جديدة تتعلق هذه المرة بالحاق بقية الاسرى غير المحالين على التحقيق بعد ...

قال احد الضابطين بلغة يعرفها الاسرى ولو بلكنة واضحة :

ـــ اما انتم فادخلوا هذا الجناح الكبير

..والتزموا الصمت والهدوء .

وتحركوا بسرعة ..لكن بنظام نحو بناية شبه اثرية تقع قريبا من موقع تجمعهم ..مقتادين من طرف مجموعة عسكريين مسلحين .وضمن تجمع الاسرى حافظ بوداود على موضعه القريب من عبد الكبير..وان كان عكس زميله لايتوقع أي خطر اعتقادا منه ان الهالة المخيفة التي كان يضفيها الفرنسيون على اعدائهم الالمان ليست سوى اكاذيب هدفها التشويه ..تماما كتلك التي اشاعوها في العالم هم والايطاليون والاسبان عن الامير عبد القادر وبوعمامة واحمد باي والخطابي وعمر المختار حين دأبوا على وصفهم بابشع الاوصاف التي اثبت الجميع في نهاية الامر بطلانها وتلفيقها . و استمر هذا الحدس في نفس بوداود مبعدا اية روح شرسة عن الالمان الا في ميادين المعارك وهذا من حقهم دون ان يعلم اي حد ان كان حدسه هذا على صواب ..

استعاد بوداود مخيلته ليمرر عينيه عبر المكان الجديد الذي حل به .كان عبارة عن فناء مستطيل مسقوف بصفائح خرسانية ثقيلة الوزن ، تتخللها مثلثات من الثقب القليلة الاضاءة .وقد اخذ امتداد الفناء يتقلص في الوسط لغاية ما ..وبمنتهاه البعيد اقيم باب تحت حراسة كلب ضخم في حجم اسد ،وقد شد الى سلسلة ثقيلة خشنة وهو في الواقع كلب وديع فائق التدريب كما خمن بوداود ، بحيث لم يقابل جلبة الاسرى اثناء دخولهم الجمعي باي تهديد او ترحاب ولا نباح حتى ..ولو احتفظ بمنظره المخيف في روعهم ، الامر الذي دفع عبد الكبير ليقول هامسا:

ـــ يا له من غول لو اتيح

له لافنانا عن اخرنا

..في لحظة واحدة

وبدوره همس بوداود شبه مبتسم :

ـــ انه هو الاخر على خلق لانه الماني ..

وبعد منتصف الليل ووفق فاصل زمني مضبوط شورع في اخراج الاسرى واحدا تلو الاخر ..وبما ان موقع جلوس بوداود ورفيقه كان في الوسط ادركا ان دورهما في المثول امام التحقيق لايزال بعيدا ..

واثار عدم السماح للاسرى المحقق معهم بالرجوع الى البناية الكبيرة، خشية الباقين فاخذوا يتساءلون ، هل لاقوا حذفهم؟؟ هل اودعوا سجنا اخر ؟ هل؟ هل ؟ ..بوداود لايحتمل حدوث الاولى مادام في الامكان القول بالثانية..

وتقضت ساعات مريرة من الانتظار الثقيل ليحين دور عبد الكبير الذي ودع رفيقه بعينين مغرورقتين دون ان ينطق .قبل ان يقتاده عسكريان بلباس الميدان...كانت شخصبة عبد الكبير تبدو مراكشية لا تزال رغم المدة الكافية التي قضاها كعسكري ...استدل بوداود على صحة استنتاجه هذا من طريقة تجاوب زميله مع اشارة العسكريين له بالنهوض بحيث تباطأ عن

قصد الى ان اضطر احدهما الى جذبه من ساعده بقوة ....وهذه الغلظة في التعامل هي ما يخيف بوداود بشان رفيقه ، لكنها ليست غلظة محمود على كل حال ..ومع ذلك اوصاه ان يتعامل بتلقائية ودون اظهار أي تكلف ..مع ان عبد الكبير لايحتاج الى وصية ولايخشى عليه كرجل منضبط ..

في امر المراكشي انصرف تفكير بوداود والى جانبه تمازج الصمت والظلمة ليحيكا احتمالات اخذت تمخر خلد كل اسير ..ما الذي يحدث بالداخل ؟ سواء اثناء التحقيق اوبعد التحقيق ؟ لاجواب حتى الان لانه ما من احد عاد بحقيقة الامر ..وفي ذلك ترهيب غير مباشر اذن ..

وفي هذه اللحظة تذكر بوداود رفيقيه الاخرين محمود والرقيب بول ، اللذين خلفهما في مستشفى مدينة الساحل بعد ان اصيبا في المناورة العسكرية ، وما من خبر بشانهما هما الاخران ايضا ..لقد تفرق جمعهم بعد ان قضوا سنوات في كتيبة مدينة الراس كأسرة واحدة ..انها الحرب اللعينة التي لا تبقي احدا الى جانب صاحبه ، ثم ترامى الى ذهنه القنفذ فتذكر الزاوية التي كان يقبع بها وقد زايله مرحه بحيث بقيت عيناه انذاك وحدهما هما ما يتحرك من جسمه ، اما شفتاه فقد اعتزلتا الحديث والابتسام معا ، وكانت نظراته هروبية الى ابعد حد..

والى هنا تحرك مفتاح البناية من الخارج ليعيد خيال بوداود الى واقع السجن بحيث لم تنقض مدة طويلة من الوقت ليستدعى بدوره للتحقيق او التعذيب اوالى الاعدام المباشر حتى ، او الى لا احد من الاسرى يدري ..كان الجناح الذي وجه نحوه فلاذيا كما لوانه مملط بالذهب ..وربما لاهميته احدقت به مجموعة من الحرس فاقت درجة تسليحهم تصور بوداود ..ومـا ان ادخل حتى واجهه رجلان بزي مدني قد جلسا الى ما يشبه طاولة حديدية فلم يزدا على ان سالاه عن بعض المعلومات المدنية المتعلقة به لينقل على الفور الى مكتب اخر قابله به عسكريان كان احدهما برتبة رائد والاخر برتبة نقيب..انبرى الرائد يستفسره عن وضعه في الجيش الفرنسي لكن بعصبية وبواسطة المترجم بادره بقوله :

ـــ وانتم ماذا جئتم تصنعون عند حدودنا ؟

وحين لم يجبه بوداود صاح الرائد باعلى صوته :

ـــ قد نفهم دفاع الفرنسيين عن بلدهم ..

لكن كيف تفسر وجودك على حدودنا ؟

ولما اكتفى بوداود بالقول :

ـــ نحن عسكريون يا حضرة ..

واصل الرائد الالماني كلامه في انفعال اشد :

ـــ لاادري كيف سيسميكم علم الحروب ..

قالها بنبرات متوترة اضطرته الى الوقوف ثم وباشارة منه اقتاد بوداود عسكريان اخران الى رواق اضيق يفضي الى مكتب يقف على بابه حارسان باسلحة خفيفة لكنها متطورة لعلها من نوع"كارابين"الذي شاع اسمه دون ان يسبق لبوداود ان راه ..وكان بالداخل سيدة شقراء

برتبة عقيد تجلس الى جانب شاب ابحرت عيناه عبر مدونة من الاوراق تشبه بطاقية ضخمة ؟ وغلب على ظن بوداود لاول وهلة ان الشاب سيقوم بوظيفة المترجم بينه وبين الضابطة ، وربما لذلك اغفل امره مفضلا رفع بصره الى اعلى الجدا رالمقابل حيث انتصبت صورة ضخمة لــهــتـلر والى جانبها الشعار النازي بتقاطعه المعروف ..

وفي انضباط عسكري جم وكأسير حرب امتثل بوداود مؤديا اشارة برأسه كتحية عسكرية ملفتة فردت هي التحية بحركة من يدها كما فهم بوداود..كانت المرأة رائعة بله فائقة الجمال بحق ،لعلها .خارج اوقات الحرب لا تشتغل الا نجمة سينمائية فما من مجال اخر يليق بها غير ذلك .

فمن لون شعرها وعينيها تتبدى خالص شقرة ..وفي ملامحها ايحاء اسكندنافي صريح لعله مختلس من امواج بحر البلطيق وبعض نفحات المانش و بحر الشمال معا ...ان الالمانيات جميعهن ،حتى العسكريات منهن هكذا ، ربما لانهن ينتمين الى مدرسة جمال ايفا براون ورقتها ..و أيــفا هي ..المرأة التي روضت بعاطفتها الدافقة مخالب هــتــلــر الى ان استطاعت ان تقيم معه في عرين واحد.

ولثقافته المحدودة لم يكن في وسع بوداود ان يشبه ايفا براون بشهرزاد التي جعلت شهرياريغمد خنجره ويضعه جانبا ليتفرغ لسماع همسات سمرها بدل ان يفتك بها كما فعل بالاخريات ..

فهل ان لكل رجل شرس امراة مفعمة باللطافة تروض غروره ؟

هذا الشعور بالاعجاب يتدفق منه ،من بوداود يغمر نفسه وهويحملق في السيدة الالمانية..فبوداود كصاحب ماض طويل في معايشة عالم المرأة الاوربية بكل جمالها واناقتها ، لم يكن يعتقد انه ستمر عليه لحظات ضعف عاطفي تاخذ بتلابيب وجدانه الى هذا الحد ..رعم انه سجين يجهل مصيره وتذكر انبهار محمود بابنة المعمرحينما كانا على متن القطار وهما في الطريق الى مدينة الراس ..

في هذه اللحظات نسي بوداود انه اسير ..؟ ما الذي يطمئنه الى وضعه الراهن ؟ لايدري؟..وعلى أي حال فهو لاينقاد الا لمجرد اعجاب قد تكبته لطمة من يدها او زمجرة غاضبة في وجهه او أي سلوك عنيف يصدر عنها كمحقق ، فمن ابجديات أي تحقيق ، التعذيب والاساءة لفظا وعملا ، والا اصبح مجرد لقاء ودي ..لكن هل تتحول هذه الاوصاف الناعمة في لحظة ما الى مصدر تعنيف ؟ ظل بوداود يطمئن نفسه الى ان قالت له الضابطة الالمانية بلغة فرنسية بليغة مع لكنة طفيفة ، وهي تديم النظر الى بطاقة زرقاء امامها :

ـ انت بوداود الغناجي ..المجند في

صفوف الجيش الفرنسي ؟

ـ نعم سيدتي ...حضرة العقيد ...

ـ تعلمت العربية عند امام

القرية وتحسن الفرنسية

كمغترب في فرنسا .

ونحوه رفعت عينيها الزرقوين بكل اغرائهما وجاذبيتهما وقالت :

ـ لكن مسالة هويتك تبدو غامضة

في اجوبتك امام المكتبين

الاول والثاني ..فمن أي البلاد انت ؟

وارتبك بوداود لانه لم يواجه سؤالا مثل هذا من قبل ، وامام حيرته اضافت :

ـ فهل انت مغربي ام تونسي ام جزائري ..ام ؟؟؟

ـ انا من اصول جزائرية يا سيدتي ..

ـ واذن تكون جنسيتك جزائرية بالضرورة

لان منحك الجنسية الفرنسية مرتبط بمشاركتك

في الحرب العالمية الاولى، وقد كنت صغير السن يومها؟

وكادت تضحك ساخرة وهي تستانف حديثها :

ـ بل ولا تحظى بها الا عبرالقضاء ايضا

الا اذا كنت قائدا او باشاغا وما كنت

كذلك ايضا واذن ماهي جنسيتك ؟

ـ انا مجند في صفوف الجيش الفرنسي ..يا حضرة

وصرخت فيه بصوت يناقض سكينة جمالها الملائكي :

ـ لانك تخشى قول غير ذلك ..

هل صرتم جبناء الى هذا الحد؟

لم تكونوا يوما كما انتم الان انا اعرف تاريخكم ..

وشجعه كلامها الى ان اعتلت شفتيه بسمة مترددة غير واضحة وهو يقول :

ـ كل كلام غير هذا يغضب الفرنسيين

كما تعلمين يا سيدتي..

وبقوة ضربت على المنضدة بقبضة يدها حتى لكأنها قامت من مقعدها وقالت :

ـ المانيا هي من يستنطقك وليس

هؤلاء الذين ذكرتهم .بل وانا لااريد

الا اغضابهم فعلا ..هؤلاء

الجبناء الذين تخلو عن بولونيا بعد ان واعدوا جيشها

بالتدخل ليشدوا ازره ..ثم فروا من الاراضي

البلجيكية ولم يصمد بها لفترة الا المقاتلون من ابناء

شمالي افريقيا ..الفرنسيون رعاديد فعلا..

كلماتها رغم انها موجهة اليه بهدف تانيبه الا انها على النقيض من ذلك احدثت نوعا من الرضا في نفسه ..دون ان يفصح عنه طبعا .لكنه انشراح لم يطل لانها .بادرته بقولها وقد استعادت جديتها :

ـ في تقديرك كم جنديا المانيا قتلت حتى الان ؟

وقال برباطة جاش وقد فاجأه السؤال :

ـ لا اعتقد انني قتلت احدا ..يا سيدتي ...

واتسعت عيناها الزرقوان اعجابا وهي تنظر اليه ثم نبست في همس فاترغيرعسكري :

ـ لماذا ؟؟هل كنت اعزل ؟ ام تنقصك دقة التسديد ؟

ـ لان المعارك جرت ليلا ولانني اشتغلت بزميلي حين اصيب

. فاكتفيت باطلاق رصاصة او اثنتين في اول الامر..

ـ ولكنك بهذا السلوك تخون الجيش الذي تنتسب اليه

ـ لم اكن ضمن صفوفه الا مجبرا

ثم ليس بيننا وبين الالمان عداوة تستوجب قتالهم

..

و بكل وقارها قامت المراة من على كرسيها ثم اتجهت الى حيث يقف، وقد خيل اليه ان اوان التعذيب قد ازف .لكنها تقدمت منه لتربت بيدها على كتفه وهي تقول وعيناها تحاصرانه بكل قوة تياريهما الزرقويين :

ـ وهل كل زملائك من الافارقة

يفكرون مثل تفكيرك هذا ؟

وظلت على وضعها منتظرة جوابه الذي جاء فيه :

ـ بصراحة كان هذا الموضوع محل خلاف دائم بيننا

ـ رائع..يا لك من رجل واع ..لانك تحدد عدوك بدقة

اه لو كان كل الافارقة بمثل هذا التفكير الراقي ..اذن لكانوا

خلوا بيننا وبين اعدائنا الحقيقيين

ولكنهم مع الاسف سيقوا الى هذه الحرب

ليشكلوا دروعا بشرية مقاتلة لحماية خصومنا

المقصودين بها من اوباش اوروبا ..

واضافت في اسف وقد تسارعت حركة رموشها، وهي تخلي اصابعها من على كتفه وتعود الى مقعدها بحركة بطيئة قائلة :

ــ لوفعلتم جميعا ما كان قد فعله

رشيد علي الكيلاني ورفاقه في العراق

حين ثاروا ضد الانجليز مستغلين

حرب الالمان ضد هؤلاء

لتمكنتم من تحرير بلدانكم

الرازحة تحت نير الاستعمار

البريطاني والفرنسي ..ولكن عوضا

عن ذلك ها انتم تنساقون للدفاع

عن جبروت مستعمركم ...

كما لوانكم تمددون اجل احتلال

بلدانكم ..

ثم عادت الى الورقة التي كانت بين يديها من قبل واكملت كلامها دون ان تنظر الى بوداود :

ــ صحيح ...هناك مفكرون في

بلدانكم اخذوا يدركون

حقيقة هذا الاتجاه ، لكنهم كنخبويين

لم تخلف دعواتهم

صدى اوسع والغريب ان السياسيين

لم يؤازروهم في موقفهم هذا ..

. ومع ان بوداود لم يدرك ما كانت ترمي اليه كلمتها الاخيرة ولا ان يقف على السر الذي جعلها تخصه بهذا الكلام الكثير والمتنوع ، لم يكن في وسعه اكثر من ان يحيها بتحية أجل من الاولى ، وقد وضعت البطاقة الى جانب وثائق كانت امامها واخذت تنظر الى الشاب العسكري الجالس خلف المكتب بالزاوية ، الذي يبدو انه يدون ما يقال ، ثم قالت بكلمات متلاحقة وكأنها تحافظ فيها على عنصر المباغتة :

ــ والان اخبرني واصدقني القول

عمن كان يشاطرك قناعتك هذه ؟

واذهله السؤال لانه ذكره بالرقيب الاول انطوان فتفطن لاول مرة انه لم يؤسر، بله ولم يقتل حتى على ما يعلم بوداود قال :

ــ لااذكر احدا غير رقيب اول كان معنا يقال له انطوان ..

ــ وهل هو فرنسي ؟

ـــ لاادري ..

والى هنا ضحكت صراحة دون مواربة . وقالت :

ـ تشك في فرنسيته هو ايضا ؟

ــ لانه لايحمل افكارهم ..

ــ وهل تم اعتقاله او قتله .. او ؟

ــ لاهذه ولا تلك ..

وهزت راسها كما لو انها فهمت رغم ان بوداود لا يعرف ماذا قد تكون فهمت ..

ــ متى افتقدتموه ؟

ــ لم نلتق منذ نشوب معركة مدينة" ليل " الاولى

ــ حين تذكر ليل تحيلني الى استسلام الجنرال الفرنسي

موليينييه نزولا عند طلب حضرة الجنرال الالماني فوغنر ؟

ــ لم نكن ضمن قوات الجنرال موليينييه يا حضرة ..

ــ لعلك كنت في عداد قوات الجنرال (دان) ؟

ـ ولا هذا كنا كتيبة احتياط بقيادة عقيد يدعى بيار..

وسره انها تحافظ على هدوئها وتتقبل اجوبته دونما اعتراض كما لو انها تصدق اقواله ، او تتظاهر بذلك ، قالت له :

ــ هل ربطتك علاقة ما بانطوان هذا ؟

ماذا يقول ؟لقد تلعثم ...تردد ..واربكه السؤال فربما كان انطوان هذا بغية الالمان لامر ارتكبه ضدهم ..هل لايزال يطارده شبح هذا الرجل اللغز ؟ ثم غامر بالقول :

ـــ انه من اعزاصدقائي ..بل كان اقرب الناس الي ..

ـــ ستحدثني عنه لكن ليس الان ؟

وتنهد الصعداء ، الحمد لله ..لم يكن الرجل مطلوبا اذن ..ثم تفطن بوداود الى نفسه فاخذ يسائلها ..ما هذا ؟ مجرد ضابط صف كيف يرقى اهتمام مصالح الغيستابو به الى هذا الحد ؟ .بل و يتم السؤال عنه هكذا بصورة صريحة لا لبس فيها ؟ ما سر كل هذا الانشغال الالماني بالرجل؟ ثم استدرك ، انها تبحث عمن تقترب وجهات نظرهم مع الرؤيا الالمانية وهذا هو سر الاهتمام ..

حين انصرف بوداود الى هذا التفكير كانت الحسناء الالمانية تعيد ترتيب شعرها الذهبي خلف قباعتها العسكرية قبل ان تشير بانصراف بوداود الذي لم يرحب بدعوة حارسيه الى مغادرة هذا المكان الوديع الشبيه بجزيرة صغيرة هادئة تصطك على عتباتها امواج المخاوف صاخبة من كل جانب ولكنه رغم ذلك في وضع المنقاد دائما.

و بالفعل كان لانصرافه من هذا المكتب الذي يعبق بحنو الاستنطاق ودفء الحوار اثر غيرمحبب الى نفسه التي انفتحت على هذا الكائن الملائكي الذي يبدو له كما لو انه اقحم في عالم الحياة العسكرية اقحاما ...فلكم تمنى ان يطول زمن مكوثه الى جانبه .لكنه يعترف ان جمال العقيد لم يكن ليستاثر باهتمامه كما استاثر امر ا نطوان ثم اخذ يردد معظم ما صارحه به هذا الرقيب الاول العميق التفكير ..لم تكن نقمته على الفرنسيين لمجرد الحاقه بالجيش اذن ...بل ان في الامر ما هو اخطر ..

فلكي يسال عنك الغيستابو فليس من باب الاطمئنان على صحتك ..ففي بلد بوداود لاتسال المخابرات العسكرية الفرنسية عن احد الا لشبهة تعتقد انها تدمغه عن الناس العاديين وبالفعل فقد كان تفكير بوداود في محله ، فالكثيرون في مدينة الراس لم يصبحوا طلقاء كما تركهم بل ان هي الا ايام حتى اعتقلوا من طرف مصالح حكومة فيشي ضمن طوائف ممن لم يبدوا حماسة لمؤازرة الالمان ..لانهم يعتقدون عكس الكيلاني العراقي، ان النازية شيء والاحتلال التقليدي شيء اخر وان مساندتها لاتخدم بالضرورة قضيتهم ..

كل ذلك جرى في غياب بوداود ومن ثمة لم يبد فيه أي رأي ،

ولكن مفاجاة بوداود لا تكمن في نقله من هذا المكتب الاستثنائي ، بل في .
الاتجاه الجديد الذي يساق نحوه فهو بالتاكيد ليس بالمكان الذي ترك فيه زملاءه قبل ان يمثل للتحقيق.

كانت الانوار مضاءة بردهة ممتدة لكنها اخذت تخفت بخارجها كلما تقدم بهم السير ، ربما لاسباب امنية و الممرات والمنافذ على طولها والتوائها مزدانة برسومات حائطية تعكس الشعار النازي في مختلف الاحجام ..فما اتسع ممر او انتصب باب الاوحمل اعلاه صورة هتلر بنظراتها الحادة وشاربها الخفيف القليل الامتداد .

وكان على الانوار المجهدة ان تعكس ظلال اشجار من الصنوبريات وقد اصطفت في نظام دقيق ككل شيء في حياة الالمان ،.لكنها سرعان ما اخلت مواقعها لجنس اخر من الشجر العديم القامة بدا كما لو كان ملتصقا بالارض ، وهذه الفصائل الشجرية شبه الكسيحة هي ما قد يوصل الى جناح زنزانات بحيث اخذت تتراءى ابواب نصفية مصفحة تتقدمها ارقام متسلسلة نحاسية اللون ، وقد اغرقت اسافلها في محيط من البلاط الارضي البني اللون العاكس بدوره لنوع من الظلمة ..

انتهت مربعات الاشجار التي يبدو ان الطير بدوره لايرتاح لزيارتها ولا تستقبل من ضوء الشمس وهفيف النسيم الا مقدار ما قد تسمح به منافذ لاتتعدى سعة الكوات و قد تخللت جدرانا جانبية يبدو انها ستستمر الى ما خلف الجناح .

ففي هذه المرة كان عليه ان يمرالى جانب حارسيه المقطبين بفناء متسع سرعان ما اخذ يضيق لينتهي الى زقاق ممتد به منحنيات ..ثم تراءت فسحة مملطة الحفاف عارية السطح تتخللها ابراج .يوجد بعض الحرس باوابها السفلى فضلا عن فتحاتها العليا مما يؤكد انها ابراج مراقبة .و بالزاوية انغرزت شجيرات قريبة من شكل السرو لتستقل بالمكان .. فارتعد بوداود متسائلا في قرارة نفسه لعلها مقبرة سرية ؟..فشجر السرو لايخص الا اراضي الاموات في اعتقاده ..الى ان لاح عن قرب ، وصيد فارع مغلق رسم عليه التقاطع النازي بتخثر واضح وقد وقف الى جواره لفيف من العسكر ببزة الميدان ربما لاهميته ..

على كل حال لاتزال الاسئلة التي دارت اثناء الحوار هي ما يشغل بال بوداود..وهو يسير بين رجلين عسكريين قويين اغلب ما يميزهما المعطف الالماني المنسدل الى ما اسفل **الحزام** بشكل ملفت ..كانا قد انتدبا للتكفل بايصاله الى جهة لا يعرفها .

ـــ انطوان؟؟؟

لماذا هو بالذات وليس اندريه او جوفر او بول ؟؟؟ و بالمناسبة اين هؤلاء الان ؟..بل كيف حال عبد الكبيربعد التحقيق ؟ لقد كان لهذه الفاتنة الالمانية ان تسال عن واحد غير انطوان ...واحد اكثر اهمية كـغاملان ، قائد الاركان الفرنسي او نائبه جورج اوضابط أخر برتبة عقيد او رائد او حتى نقيب على الاقل او ان تسال عن خليفة قائد الفرقة 21الذي قتل اثناء تدمير مركزالقيادة .اما ان يدور السؤال عن مجرد رقيب اول وبصريح الاسم ايضا فامر محير .سيما وان الرجل لايوجد ضمن الاسرى على ما يبدو .فهل كانت تربطها به سابق معرفة ولكن كيف تستقيم معرفة رجل عسكري في صفوف الجيش الفرنسي بامراة عسكرية لها مكانتها في الجيش الالماني ؟.بل وفي مصالح مخابرات الغيستابو بالذات ؟ ومع ذلك تبقى .كل الاسئلة قابلة للنفي وللاثبات في هذا العالم المضطرب ..

ثم هل كان على هذا السؤال ان يوجه الى بوداود كمجرد اسير ام كصديق لانطوان ، ام انها اكتشفت في حديثه استثناء ميزه عن بقية زملائه ؟

وما ان اجتاز الوصيد الفارع الذي فتح حتى .انتشله من اخيلته امر بالتوقف صدر عن احد العسكريين اللذين يصطحبانه ..كان ذلك امام باب فولاذي قصير قد تعددت الى جانبيه ابواب شبيهة به لونا وحجما ..وما هي الا لحظة حتى اودع بوداود ما وراء الباب ليجد نفسه في زنزانة انفرادية.اسمنتية الارضية ، وسط ظلام غير محدد السمك ...ليبتدره سؤال اخر

وهو يحاول ان يجرب مدى استيعاب قطر الزنزانة لهيئة جلوسه ..هل تتسع قاعدة عسكرية شبه امامية الى زنزنات انفرادية باعداد الاسرى كما يرى ؟؟

لم يكن الالمان انسانيين اذن الا في اقوالهم تماما كالفرنسيين .انتهى .بوداود الى هذه النتيجة تلقائيا بحيث لم يسعفه اطلاعه ولا معرفته بتاريخ الاجناس على القول بان الغاليين والجرمن ربما انحدرا في نهاية الامر من جد شرس واحد ..

فانطوان الفرنسي رغم مظهره المهذب انتهت حياته الى لغز احتار له بوداود والالمان معا ، ومظهر الضابطة الالمانية رغم دفء جاذبيتها انتهى ببوداود الى اضيق زنزانة في هذه الثكنة /السجن..الفرنسيون والالمان يتفقان اذن في وداعة المظهر وخبث الطوية..

ومنذ ان التقيا لم يضع بوداود زميله انطوان تحت المجهر الا اليوم كان اعجابه به ..بثقافته ..بتميزه ..بتسامحه ..بتواضعه ..يحول دون فحص شخصيته عن قرب ..اما اليوم ومن داخل زنزانته سمح بوداود لنفسه بطرح مجموعة من الاسئلة تخص هذا الرجل ..لماذا كان يتفجر كراهية ضد الفرنسيين كلما اختلا ببوداود ؟ ..حدث ذلك قبل الحرب ..واثناءها لاح باللائمة على كل تصرف عسكري يقرونه ..هذا الرجل الغامض من هو اذن ؟ وتذكر مثلا سخريته بخط ماجينو حين قال له قبل الغزو الالماني لفرنسا ((لا ادري لماذا تبالغ القيادة في حشد قواها دفاعا عن خط ماجينوهذا ، كما لو ان سقوطه هو المنفذ الوحيد الذي سيستغله الالمان للوصول الى التراب الفرنسي..؟ صحيح ان الالمان اولوا هذا الخط ما يشبه الاهتمام الخاص بحيث انتجوا مدفعا خاصا بتحطيمه على ما قيل لكن فرنسا ككل دولة اخرى ليست بيتا يتوفر على منفذ واحد يا بوداود.. كل الحدود في اوان الحرب تصير عبارة عن منافذ ياصديقي..))..وادرك بوداود ـ ولو بعد مضي الاوان ـ صحة مقولات زميله ..

انطوان ..؟ هل هو ابن الالزاس فقط ؟ ام انه من اصول تمتد الى ما خلف الالزاس نحو التراب الالماني ؟ يعتقد بوداود ان رجلا مثقفا كانطوان ما كان له ان يحط من شان بلده وجيشها لوكان فرنسيا حقا ، سيما والزمن زمن حرب ..فهل هو (**جـاسو....س**).؟ واجهض الكلمة دون اتمامها ، ياله من امر مخيف حقا.

و بكل اصرار رفض بوداود مصارحة نفسه بسؤال كهذا ..

ترك امر انطوان جانبا لانه ليس من الاهمية بحيث يلغي من خلده ما اختتمت به الضابطة استنطاقها له ، فماذا كانت تعني بقولها قبل ان تامره بالانصراف :((ربما انت من كنت ابحث عنه ....)) تبحث عنه ؟ هكذا تكتشفه في اولى مراحل التحقيق معه ..؟..عجبا..هل هو تسرع منها ام ان القضية مدروسة ككل قضايا الغيستابو ؟ انهم لايتسرعون ..لايرتجلون الامور ..الا بعد عرضها على الدرس والتمحيص بعد انضاجها على نار هادئة ..فكيف بكلمة اليوم ..؟ثم قهقه بوداود منفردا كما لو انه جن وهو يقول لنفسه ((لعل انطوان ابرق الى المخابرات الالمانية باسمي يوصيها بحسن معاملتي ومعاملة بعض من اختارهم ؟))..

باتت هذه الكلمة تحفر تفكيره ، مثقلة بسلسلة من علامات الاستفهام .لماذا هو بالذات ؟ ألانه يحسن الفرنسية ؟ ام لانه غير فرنسي ولاينسجم نوعا ما مع التفكيرالفرنسي؟ وهي لما تساله بعد ان كان ديغولي التفكير ام بيتاني الاتجاه .. بل ربما لانه زميل انطوان ؟...شبكة من الاسئلة المترابطة التي يمسك بعضها باعناق بعض باتت تطوق فكره ، تنغص وحدته دون

ان يجد من الحدس ما يكفي لاقناع نفسه بواحدة منها ..

وفي الهزيع الاخير من الليل لم يفتأ يرددها في خوف ..في هلع لكن من داخل الخوف والهلع يشع بصيص امل لايخلو من شك لم يغفله بوداود ..امل يبرق حين يشخصن المسالة كما لو ان اهتمام الضابطة به يعني امرا مشتركا يخصها ويخصه خارج علاقة المحقق بالمحقق معه ..ولكن ...هل يعقل ؟ ..بوداود الذي لم يفلح في استمالة ذهبية الامية ابنة قرية الثيران النائية ، يثير نازعا ما في صدرضابطة من صميم المخابرات، بله وفوق ذلك من طينة المانية ؟ ..لكم هو يبسط الامور ..انه لايزال في نظرته ريفيا حتى النخاع ، تستهويه سهولة الانقياد الى نتائج لما يطمئن بعد الى صلابة مقدماتها ..

ورغم ذلك يوغل في التبسيط وهو يتساءل ، الم تبلغه هيلين قيمة جناح اللذة ، ان اوكتافيا .اجمل من بالجناح تهيم به ؟..هكذا عفويا ومن باب فعل النظرة الاولى ؟ انه كرجل ريفي لايؤمن بمنطق المراحل، فحبه لذهبية لم يسلك ترتيبات معينة ، بل جاء هكذا مندفعا ،مقتحما ما يواجهه كفيضان وادي قريته قبل ان تغتاله عنجهيتها كما يعتقد ..

كان اليوم الثاني بدوره يوم استنطاق لا يدري بوداود هل شمل بقية الاسرى ام يخصه لوحده ..ومع ذلك يبدو انه يوم مميز فحضوره الى مكتب الاستنطاق حدث بعيد المغيب وقد خلا هذا المكتب من كل اعوانه الا من الفاتنة الالمانية والرجلين اللذين يقودانه اليها ..ولم يعرف هل ان امرا ما دعاها الى الوقوف ام انها قامت لاستقباله ..والجديد في يومه هذا ايضا ان المرافقين قد انصرفا الى خارج المكتب ..لينفرد بوداود بالضابطة الشقراء او تنفرد به هي ..وحملت اللحظات الاولى للقائهما جرأة غير مسبوقة ..فهي لاتزال واقفة مكشوفة الراس وقد وضعت قبعتها على منضدة المكتب الى جانب اوراق واقلام وصور شمسية شبه مبعثرة في غير ما انتظام قد تتعلق باشخاص يحقق معهم .

حياها بوداود فحيته مبتسمة كما لو ان الامر لايحمل أي مظهر من مظاهر الاسر اوالاستنطاق ..لم تدعه للجلوس وهولم يتوقع منها ذلك ..فاين هو من الجلوس ولم يفت بوداود الانشراح الذي طرا على محياها اليوم انها تبدو متفتحة عليه من خلال حركاتها على الاقل ، ..بل انها هي من جلس ..

قالت مبتسمة وعيناها على الاوراق :

ـــ لقد اوصيت السجانين المباشرين بحسن معاملة الاسرى

وخصوصا من لا ينحدرون من اصول فرنسية

ـــ نشكر لك اهتمامك بنا ..يا حضرة ..

كانت نظراتها خلال هذه الامسية مشبعة برغبة في الحديث على ما يبدو ..وصدرها يتكتم حيوية خلف المعطف العسكري الالماني الطويل المميز الذي ينبسط الى اسفل الحد المعروف في حجم المعاطف العسكرية ..

شفتاها الدقيقتا ن الفاتحتا الحمرة قلما تجنحان الى الصمت رغم هالة الوقار التي توحي بها شخصيتها لقد تعود بوداود على لقائها بل وأمن نقمتها بعد ان ادرك حدود ما يستفزها ..هل كل ما يلتقيان عنده هو نقمتها على الفرنسيين وامتعاضه منهم ؟ اجل ..هذا ما استنتجه بوداود دون

ان يجرأ على سؤالها ..

وفجاة اصرفت نظرها عن كومة الاوراق وقالت له :

ـ قلت انك ممن حضروا معارك مدينة(ليل) على ما اذكر ؟

ـــ اجل يا سيدتي ..وبعض معارك منطقة الموز..

ـــ وهذا يعني انه بلغك اسر الجنرال هانكي الالماني ؟

ـــ نعم حدث ذلك من طرف فوج المشاة الفرنسيين ال 38

بعد ان اسقطت طائرة الجنرال هانكي يا سيدتي

وقالت في اهتمام اكثر :

ـ ثم ماذا بلغك بشانه ايضا ؟

ـ لاشيء ..فانت تعرفين انني مجرد جندي لا يحق

له ان يعلم الكثير عن مسائل حساسة كهذه .

لقد تم ابلاغنا باسر الجنرال هانكي من باب

رفع المعنويات لا اكثر.

وتراجعت نظراتها وهي تقول :

ـ ما هي اعلى رتبة زارتكم ايام وجودكم بالجبهة ؟

ـــ عفوا سيدتي لم افهم ؟

ـ مثلا هل زاركم الجنرال غاملان

قائد الاركان الفرنسي اوالجنرال جورج

مساعده على الاقل ، او كولتز..اوغيرهم؟

ـــ ربما تم ذلك في زيارات سرية .

وقبل ان تصل اليه وقد غادرت مقعدها على عجل قالت :

ـــ الكابتان غلين ..هل لك ان تصحح معلوماتي

حول المهمة التي يقوم بها ؟ .

فقال وقد اكتشف انها ترتدي تنورة عسكرية اسفل المعطف وليس (بنطالونا)كما توقع :

:

ـــ سمعت انه كان يقوم برصد تدفق القوات الالمانية..

ـــ تقول كان ؟؟

ـــــ لان مهمته لم تعد تكتسي كل الاهمية التي اعطيت لها

من قبل.

ورمقته بنظرة اخافته حدتها وهي تقول بصوت متوسط اللهجة وقد اقتربت منه اكثر :

ـــ كل اجاباتك اما انكار او نفي او احالةعلى الماضي..

ـــ انتهت مهمته لان قواتكم استولت على تلك المناطق

وابتسمت في وجهه قائلة :

. ـ اما في هذه فانت محق .

وافرحه ثناؤها وقد تلمظت بلسانها وقالت في وداعة ربما مصطنعة :

ـــ اعتقد انك لاتجهل ايضا امر الرماة الجزائريين والتونسيين

والسرايا المغربية والرماة السينغاليين..وتموقعهم ؟

اقصد من يسميهم الفرنسيون ب ـ المحليين ـ؟

وفترت شفتاه وهويحاول ان يقول :

ـ تعلمين سيدتي انني ممن تجندوا في صفوف الجيش الفرنسي

رأسا أي بعيدا عن نشأة هذه الفرق ..وكل ما اعرفه عنها انها

افواج اكتسبت تدريبا قتاليا عاليا فضلا عن شجاعتها الطبيعية

وابتسمت كما لو انها اشتمت في كلامه نوعا من التخويف . .ثم قالت بعد برهة من صمت :

ـــــ ما جدوى احتفاظكم باسراركم وقد سقطت باريس ذاتها..؟

واخذ يتتبع حركة رموشها المتسارعة ..لماذا لم تكمل ..ياليتها تواصل حديثها..وبعد ان خيم سكون جاء صوتها هامسا مندفعا كعادته:

ـــ اقول وقد سقطت باريس ..هل تسمعني..انها باريس ..

وكما لو انها انتشلته من بركة ماء بارد، حاول ان يتكلم، ان يستوضح، ان يزغرد..ان يرقص ..ان يرثي ..ان يبكي.. ثم ركن الى القول بلغة حكيم وهو يجدد تحية وقوف :

ـــ انها عدالة السماء يا سيدتي .

وضحكت ..متعجبة :

ـــ عدالة ؟!

وكاد يقول لها كل من يسقط عواصم الناس سوف تسقط عاصمته ، لكنه خشي ان تفهم انه يعني عاصمتها ايضا . فقال عوضا عن ذلك :

ـــ اجل ..لكم أسقطت من عواصم

..قبل ان تسقط.

اخذ وقوف الضابطة بعدا كانه الحيرة ثم وفي خطو ثابت تحركت عائدة الى مقعدها.وهي تقول في نفسها ((عيناه هما مدار السر.وحدهما مدار السر..بؤرة الانجذاب)) في تاثر بالغ تلقت ذلك الاحساس وهو يعبر حدسها ، ثم طلبت الى الحارسين اللذين دخلا على عجل اعادة .. بوداود الى زنزانته الانفرادية ، هل دعته فقط لتزف اليه خبر سقوط باريس ؟ لايدري ..

كان يبدو لها انه غادر المكتب محمولا على اجنحة فرحته ..وفعلا فهو لم يتلق بشرى من هذا الوزن منذ ان غادر بلده ، بل ومنذ ان راى النور قبيل اندلاع الحرب العالمية الاولى. وحين غادر مكتب التحقيق لم يفته ان اسيرين ينتظران دورهما في الامتثال امام الضابطة ، واذن فالمقابلة لاتخصه لوحده كما توقع ، فساءه ذلك لامر ما ، ورغم الفرحة التي اظهرها امام

الضابطة بات الذي احدثه الخبر في نفسه خليطا من الفرح والتخوف وايضا الاشفاق ، مزيجا من الاحاسيس المتصارعة التي لاتستقر على حال..لماذا يتوقع للعالم مستقبلا ابهى في ظل الالمان ؟ ام ان الامر يعود فقط الى تاثير جمال الضابطة وحسن معاملاتها له ؟

على اية حال لاشك ان انطوان سيشاركه انبساطه ولو عن بعد ..لكن انطوان مهما كان الامر لا يمكن ان يفرحه سقوط عاصمة بلاده ..ام انه غير فرنسي ؟.

واثناء العودة لام بوداود نفسه على انه لم يتجرأ على سؤال الضابطة الالمانية عن زميليه عبد الكبير والسابعي القفصي بل وحتى الفرنسيين من زملائه كجورج وجوفر واندريه والقنفذ ذلك العسكري الطريف، هل هو يخشى مغبة سؤال كهذا ؟ لا يدري ..كيف ستستقبل الضابطة سؤالا من هذا القبيل دافعه الصداقة فحسب؟ وما مقدار اعتباره تدخلا في شان عسكري الماني ؟لكن من هو حتى يفعل هذا ؟ وهل ان الكلفة زالت بينه وبين شقراء المعتقل الحربي الى هذا الحد ؟

الغريب انها لم تسال عن أي واحد من هؤلاء الا انطوان ..هل لان بوداود صديقه ؟ ام لانه ذكره فيمن لايرتاحون للذهنية الفرنسية؟ ام لماذا خصته بالسؤال ، فبوداود صديق الباقين ايضا تماما كصداقته لهذا" السرجان شاف" الموسوعي ؟

سقطت باريس ، رددها بوداود وقد بلغ اعتاب الزنزانة ..متسائلا في صمت . لماذا تحمل باريس كل هذه الهالة؟ الم تسقط قبلها، صوفيا ، وبروكسل ووارسو ؟ هل لانها محور الدنيا ام بوابة الغرب القوي الذي لا يسقط عادة ؟

تطاولت ايام التحقيق ولياليه مقترنة بحبس انفرادي يبدو انه غير محدود ..رغم ظروفه القاهرة..فحجم زنزاناته لايسمح حتى باداء الصلاة الا بصعوبة ,لانه لايتيح جلوسا مريحا ولا وقوفا كاملا فضلا عن ان يتسع لاي شكل من اشكال التمدد اثاء النوم..ومع ذلك فهو قد لا يمنع نوعا من قرفساء وان تالمت الاطراف السفلية لاستغراقه وقتا طويلا ..

انه ليذكر قول الضابطة ذات ليلة وقد صادفته يصلي بصعوبة فانتظرته حتى فرغ تادبا معه وقالت باسمة :

ــ كنت اعتقد ان مدام ليشيفاليه وحدها من كان

يصلي بالزنزانــة بعد ان حكم عليها بالاعدام ..؟

فقال لها وهو يحاول الوقوف :

ــ حضرة...ومن مدام ليشيفاليه ؟

ووضعت يدها على كتفه قائلة :

ــ لا تقف ..ابق كما انت ..

واضافت وهي ترفع يدها عن كتفه :

ــ ليشيفاليه كانت سجينة في بلدة "كايين"

اثناء غزو النورموندي..

مر ذلك بخلد بوداود الذي لم يعد ضيق الزنزانة يشغل باله كما في اول الامر لان الجديد بعد قضائه هذه المدة ان الضابطة اخذت تعرب عن مشاعرها لصالحه فلم يعد التحقيق وحده هو مدار اللقاء ، بل رغبة تود ان تتبلور لكن ببطء يحاول بوداود ان ينسجم معه مكرها لكيلا يعصف تسرعه الريفي بهذا الحلم القادم كلية ..

ويستمر تساؤل بوداود ..في غير نظام هذه المرة ، هل تقليده للجودام هو ما جعله يقذف بنفسه وبمحمود الى فوهة اللهب الاوربي ؟.. ترى هل الجودام يزور محمودا في مستشفى مدينة الساحل ؟ ربما فعلها سيما وهو يوجد هناك في الارض التي تعرف لدى الفرنسيين بالضفة الفرنسية الجنوبية .

والجودام في واقع الامر لم يكن على ارتباط يومي بثكنته بعد ان صار وكيلا لامن المتصرفية وزوجا لسيدة في مقام (فيرجين) ولذلك اعفي من الترحيل الى جبهات القتال ، ياله من ذكي دائما تفضي به محطاته الى مسارات السلامة ..لم يكن بوداود وحده يفكر في محمود وربما في اخرين ، بل ان كل واحد ممن عرفوا بافراد طاولة السمر ايام الثكنة قبل الرحيل الى فرنسا ..يفكر في بقية زملائه ..ماذا صنع الله بهم ..

صحيح ان بوداود كان يعتقد انه يتلقى احسن معاملة حتى الان ، ولوان مخاوف اخذت تنتابه منذ ان صارحتة المستنطقة الالمانية الشقراء بان القيادة تنوي اخلاء القاعدة من خلال نقل الاسرى الى احدى المعتقلات القريبة من برلين اما لظروف امنية اولاستقبال دفعات جديدة من الاسرى ، هذه المخاوف على حدتها لم تحجب في نفسه اثر كلام دار بينه وبين مايكا متناولا موضوعا يعرفه منها لاول مرة ..

لقد كانت تركز نظراتها على عينيه و باناملها تمسح جفنيه في رفق كما لو انها بصدد اجراء عملية تجميل على وجهه ..وتقول في حيرة وانجذاب وقد اخذ هو الاخر يحدق في عينيها :

ــ بوداود ..هل توحي اليك عيناي بطيف احد ما ؟

ــ طيف احد غيرك ؟!... لاافهم ..طيف من مثلا ؟

ثم هل يعقل ان ارى طيف غيرك من خلال عينيك؟

وضحك و اكمل :

ــ ام ان الامر ينطبق عليك ؟

وفاجاه ان تهز راسها بالموافقة وهي تقول :

ــ كان ذلك فيما مضى ..

اخذت تمعن النظر في بؤبؤي عينيه اكثر من ذي قبل وهي تقول كما لو انها تحادث نفسها :

ــ عيناه تشبهان عينيك تماما ..

وفزعا ازاح اصابعها عن جبينه وسال :

ــ من هو ؟

واضحكها انتهاره لها بكلمته وقالت :

ـــ نسيت انكم تتحرجون عكسنا من التصريح بخصوصياتكم ..

وتمتمت بكلام لم يبلغ اسماع بوداود او ربما لم يفهمه ..ذكرت فيه ..مذكرات..وعموميات..

لكنه قاطع تمتمتها بسؤاله الذي اشفعه بابتسامة حتى لا يبدو منزعجا:

ـــ سالتك من هو..؟ لو سمحت ..

وبعد ان تراجعت الى الخلف وكأنها تريد ان تنفث انفاس تنهيدة حملتها الى بعيد عنه قالت :

ـــ لاتكترث لمزاحي ..

ومررت بنانها على احدى عينيه وهي تقول محاولة استفزازه اكثر :

ـــ سبق لك ان حدثتني عن الفتاة ذهبية ؟

ـــ اجل ..

ـــ الا تراها ماثلة في احداقي حين تنظر الى عيني؟

وحاول ان يشيح عنها بوجهه .ليغرق في صمت كعادته ..لكنها تفطنت لذلك فقالت لن اكتمك انه كان مجرد شعور انتهى منذ زمن ..واعاد وجهه نحوها وسالها وقد نسي فعلا انها السجان وهو السجين :

ـ لكني سالتك من هو ؟

ـــ هو فتى الاناضول..هكذا كنا ندعوه حينما كان زميلا

في الدراسة بجامعة برلين ..

وتلقائيا انكفأ الجزء العلوي من قامة بوداود وقال وقد ارتسمت على نهايات شفتيه ابتسامة ساخرة :

ـــ اذن فانت تحبينني من باب انني اذكرك به..؟

ودخلت ملامحها طور ارتياع فعلي كما لو انها لم تكن تتوقع لكلامها كل هذا الوقع على نفسيته ..لكنها تداركت الموقف بضحكة لاتدري كيف قفزت سريعا الى ثغرها واعادت اناملها قريبا من عينيه وهي تسرع بالقول :

ـــ هل تغار؟ ..لا انكر ان ذلك كاد يحدث في اول الامر

لكن اوان تخرجي كان قد ازف فغادرت الى الكلية

الحربية وتركته..

قالتها ثم عانقته وهي تستطرد في انشراح :

ـــ واخيرا تشكلت خصوصية ملامحك في نفسي

فازالت بقايا ذكراه ..هذا كل ما في الامر..

وسالها وهو يمسك بيديها :

ـــ وهل كان وسيما ؟

ـــ لا اكتمك ان خثرة سواد عينيه كانت تقتلع وجداني وتشدني اليه شدا ..

ـــ واكيد انه كان يحبك ..فمن ذا لايحب مايكا ؟

ـــ لاادري ..لم اصرحه بشيء كنت يومها مغرورة بكبريائي كالمانية ..

ـــ واين هو الان ؟

ـــ لعله لايزال ببرلين .فلتسترد طمانينتك الان فانا لا احمل بين جوانحي احدا غيرك..

وفي صمت هز بوداود راسه مصدقا كلامها ثم قال وهو يخشى اثارتها :

ـــ يبدو ان وجدانك لا يستقبل الا الاجانب ؟

وسره انها ضحكت عوض ان تغضب.. واخذت تنظر اليه ثم قالت :

ـــ لا ادري؟ مع انني من دعاة الجنس الارقى..

ومع انه لم يفهم ملابسات الجنس الارقى والادنى امتدت ذراعه لتحيط بعنقها وهو يقول :

ـــ يستحيل ان يوجد من مايكا اثنتان..

والى هنا اخرجها ضحكها عن وقارها وهي تقول له :

ـــ عكس بوداود الذي وجدنا له مثيلا هو فتى الاناضول..

واضحكه كلامها فامسكت براحة كفها على قنة راسه الحليق في عصبية ثم غادرت مسرعة ..ومن يومها اصبح يخشى نظراتها حين تركز على عينيه..

المفتش كلاوس

احس بوداود ان ايام الخوف الاولى قد مضت الى غير رجعة واصبح ينتظر ساعات الدعوة الى الاستنطاق بفارغ الصبر سوى ليلتقي تلك الفاتنة الشقراء التي يبدو ان مهمتها معه قد انتهت عمليا وهي تمددها لامر ما ..والواقع انه لم يحظ منها الا ببالغ الاحترام والتودد لحد الان اذا ما لم يتغير الامر فتظهر حزما المانيا معروفا وهو ما لايستبعده بل ويخشاه ايضا ..

مرت ليلته تلك بشوق وصورتها ماثلة في ذهنه لا تريم وان قاطعتها صورة ذهبية احيانا الفتاة التي فصلت بينه وبينها سنون وسنون فضلا عن بحور ودول واجواء لاحد لها ، بل الفتاة التي لم يكن كلام العم بوجمعة عنها مطمئنا لما تخلله من تهرب واستدراك واضحين ، لكن لماذا لايفتأ يجتر ماضي قريته البائسة وقد انبلج صباح الماني يلوح اغراء وتشويقا ؟ لماذا يلاحقه السلاح والياس طوال حياته عكس الجودام الذي يعتزل الحب والقتال ويعيش للحياة وحدها ؟ لماذا عليه ان يحمل في قلبه حب امراتين ومصيرجيشين؟ ، لكن على الرغم من كل هذا الشرود تظل الكلمات التي تتردد في اذنه بكل ما تحمله من عذوبةجرس ونكهة ، هي كلمات الضابطة اذ ان ذهبية بخلت بالكلام ونامت في صمتها الثقيل كقريتها..

وبخارج الزنزانة استرعت سمعه جلبة قوية كما لو انها قرقعة ابواب عديدة تفتح في ان واحد فارتعدت فرائسه وتساءل :هل قرر الالمان قتل اسراهم في هذا الهزيع الاخير من الليل ؟ ..ام هل هي جلبة فرار بعض الاسرى ؟ لايمكن واصاخ بكل حواسه لكن صوت الجلبة تبدد فجاة فتراجعت مخيلته لترسم طيف سيدة مكتب الاستنطاق من جديد ..بحيويتها العسكرية ..بلغتها الاجنبية المحببة ..بنظراتها ذات الازرقاق الدافئ. ..بكل شيء فيها ..واخذ يستعيد كلماتها الاخيرة التي شيعته بها :

ـــ لماذا تكتمون اسرارا لا تخدم الا عدوكم

التقليدي ..؟؟

واضافت وهي تهم بمغادرة مقعدها :

ـــــ من حسن حظ فرنسا ان يكون لها

..اتباع أوفياء مثلكم ..

واغتاظ لقولها وهويحدد سمك الظلام الذي يعكسه ضيق الزنزانة بعينيه ووضع يده سهوا على السطل الذي كان يستخدمه كمبولة وكان عبارة عن خوذة متوسطة الحجم ..وتنهد وهو يذكر نصيحة والده ((عادة لم يحمل اجدادنا السلاح الا في وجه هذا الجيش الذي تنوي الانضمام الى صفوفه)) ولعن بوداود السلاح كل السلاح وتساءل لماذا تطاردنا لعنة حمل السلاح جيلا بعد جيل ؟ اليس من حقنا ان نعيش كالاخرين خارج قرقعة السلاح ؟؟ قال ذلك وهويذكر وصية الصواف خال محمود .

كانت هواجسه اطول بكثير من ليلته فلقد مر تفكيره في قرية الثيران ، بحال والده المصر على موقفه منه و بذهبية التي كانت تتحدث عنها القرى كما لو انها الجازية الهلالية او ابنة الخس وعن محمود طريح سرير المستشفى بمدينة الساحل .، متسائلا ان كان شفي من اصابته ؟ وعن الرجل اللغز انطوان ، وعن سر الصواف خال محمود .

ما ان فتح الباب و أدخل مكتب الاستنطاق ، مكتب الضابطة حتى انسته اللحظة ما كان يفكر فيه .ماذا يرى ؟ انه منظر لم تقع عليه عيناه اطلاقا ، لقد رأي ما لايتوقع ..انها كتلة بشرية من اللحم الاحمر ملفوفة في زي عسكري ارقط اللون ..ذاك كان الرجل الذي يجلس على مقعد الضابطة في غيابها ..بدينا كما لو انه ينتمي الى وزن غير معهود في الرياضة ، وذا قامة قصيرة الى درجة جعلت بوداود يعجب لقبول رجل قصير الى هذا الحد في صفوف الجيش .. أي جيش فهو لايربطه بالجيش الا بزته ثم انه من غير رتبة ظاهرة. لقد ذكره من حيث قصر القامة بالقنفذ لكن شتان بين الثقلين ... ظل بوداود منتصبا وقد غادر مكتب التحقيق حارساه ليتركاه اعزل امام هذا الوحش البشري ..الذي يبدو انه دخل في عراك مع اوراق كانت مكومة على منضدة المكتب ربما لقصر ذراعيه ، وكان امامه فنجان من القهوة يرتشف منه في نهم اذ للجرعة صوت يراد به التخويف هو الاخر، كانت قهوته تستهلك بشراهة ، لعله وضعها موضع التدخين بعد ان منع تعاطيه من قبل الفوهرر ، كان منظر الرجل قد حجب خصائص المكتب في عين بوداود ، فودع لطافته وعذوبة منطقه وحنوه ودفئه ..وبعد برهة من صمت بدت لبوداود انها طالت الى ما فيه الكفاية بادره الضابط مهددا بلسان عربي لاعجمة فيه :

ـــ بعد مراجعة اقوالك اتضح انها غير دقيقة

بل ومخالفة لتصريحات زملائك ممن استنطقوا

..لقد اضعت وقتنا ايها المخداع

كان وقع الكلمات صارما ، مخيفا ، وعاد الى قهوته كما لو انه يبلل اوتاره الصوتية ويمنحها بعض المرونة ثم اضاف :

ـــ تذكّر دائما انك بين يدي الغيستابو

الغيستابو التي تعني المخابرات الالمانية..

و هي اذكى من ان تقع في ما تنسجه

اقوالك من خيال ..فمهمتنا ان نلقن من

يوهمنا كيف يقول الحقيقة وحدها ..ايها المرتزق .

وبحركة من الرجل الممتلئ وقد غادر مقعده يسجل بوداود اول لطمة قوية تصيبه على خده ..الحقها الكتلة بلكمة لاتقل قوة تلقاها جبينه،واخرى على قفاه و لم يعقبها كلام ..كما لو انه ترك بوداود ليحس اكثر بالامها ..وهو يعود الى فنجانه يستدر ما بقي به ..كان يحاصر قامة الاسير بتيار بصره المنبعث من عينين زرقاوين ضيقتين، وقد احتفظ خداه الممتلئان احمرارا بتوهجهما ، وبصره مستمر في تركيز دقيق على ملامح بوداود وكأنه يقيس عمق نظراته او

يدرسها نفسيا ولكن بوداود اصرف نظره الى مقدمة المكتب لكيلا يبادله النظر ..وقد حز في نفسه بكل مرارة ان يوصف بالمرتزق فكاد لا يبتلع هذه الكلمة الكبيرة ومر زمان بينهما في غير كلام اختتمه الرجل الكتلة بقوله كما لو انه يوصيه و ينهي اللقاء :

ـــ لوكنت امتثلت امامي للدفاع عن بلدك

لاحترمتك ولكنك هنا من اجل

هدف اخر لايخدمني ولايخدمك

هذه الكلمة انست بوداود وصفه بالمرتزق فنبس وقد انفرجت شفتاه :

ـــ صدقت ..ايها الضابط ..

وحافظ صوته على تهدجه وهو يقول :

ـــ واذن ..

كان المساء قد حضر الى خارج مكتب الاستنطاق حين غادره بوداود واشعلت بعض الانوار الداخلية في الزوايا التي لاتعكسها الى خارج حيث التعتيم لاسباب امنية ..وتثاقلت خطى بوداود بين حارسيه المزمومي الشفاه ..كان يرفل في اغلال ليست بالرومانية على كل حال فهي عادة ما تصطحبه كلما غادر الزنزانة الانفرادية .

وغالبا ما شبه امره بالمرأة في قريته التي لا تغادر منزل طفولتها الا في اتجاهين مقر الزوجية او مقبرة الوادي على الضفة الاخرى فهو ايضا اصبح لا يفارق الزنزانة الا حين يساق نحو مكتب التحقيق او صوب بناية المعتقل ايام الاحاد كما حدث منذ زمن يسير.

وعلى فضاعة السجن ككل سجن يحتفظ كل مكان من المكانين في نظر بوداود ببصيص ضئيل من التشويق يهز جوانحه نحوهما ..فبمكتب الاستنطاق هناك زيارات تلك الضابطة التي تمثل ظاهرة جمالية اختصرت محاسن نهر الراين بكل تاريخه الطويل و اما بالبناية الجماعية ـ ولو لم يجد بها بوداود كل معارفه من الاسرى ـــ فهناك رجال من مختلف الدول التي اجتاحتها المانيا يشاطرونه الاحساس بثقل الزمان والمكان حتى ولو اختلفت جنسياتهم ولغاتهم ورغم طبيعة الانكفاء التي جبل عليها استطاع ان يمد جسور صداقة مع بعض الاسرى سيما الافارقة ..كـــــالاسمر الذي زعم انه على اتصال سري بعسكري الماني ناقم على الحرب وتهور الفوهرر، ومن ثمة لم يجد حرجا في الافضاء الى عبد الكبير بمعلومات عامة يدعي انه يتلقاها من هذا العين الالماني سواء عن تارجح جبهات القتال او عن تقدمها لصالح هذا الطرف او ذاك ، ومن عبد الكبير كانت تمر راسا الى بوداود الذي خيل اليه انه عثر على مصدر شبه محايد اتاحته الظروف اذ على شح افاداته واضطرابها غالبا فهي على النقيض من تلك التي يستقيها من الضابطة التي لا تفضي اليه بشيء ذي بال الا حين تكون في حالة انتشاء بالنصرفقط فتكرر اسماء مواقع هذا الانتصار كميونخ.. دنكرك.. مذبحة دييب و كوفنتري و طبرق فضلا عن العواصم التي اسقطتها القوات الالمانية وزحف قوات موسيليني على الجنوب الفرنسي مثلا .

دون ان تطلعه على حالات الانكسار التي اخذت تلحق بالجيوش النازية في الفترة

الاخيرة .لاسيما في اكبر موقعين هما العلمين وستالينغراد ..

واصبح بوداود يلمس من نفسه بعض الاطمئنان الى رواية الاسمر مستندا الى الوضع الذي يخيم على نفسية الضابطة ، فملامحها تفقد توهجها يوما بعد يوم، كزهرة جف البلل من حوليها ، بل و تعكس نوعا من التذمرالمكبوت منذ ايام قليلة خلت وصار انشراحها متكلفا ..ومزاجها عصبيا الى حد ما ..مما امكن لبوداود ان يستخلص ان مفاتنها بوجه عام قد دخلت مرحلة اهمال ..

ــ ما الذي يحدث ؟

يتساءل بوداود ..لم كل هذا التاثر ومواقع الانهزام كجبهتي العلمين وستالينغراد لاتزال بعيدة عن عرين الفوهرر؟..عن برلين ؟ بل وفي امكان صاحب هذا العرين ان يمد مخلبه نحو اي اتجاه يريد من العالم ؟

وهز بوداود كتفه وهو ينتهي الى القول ربما هي على غير وفاق مع عشيقها ان كان لها عشيق ..فلماذا يحمّل القضية بعدا غير شخصي اذن ؟

وليلا تحرك مفتاح وصيد الزنزانة المصفح فارتاع بوداود ..هل قرر الضابط الكتلة اعادة استنطاقه؟ تعذيبه؟ اعدامه ؟ فليس من عادة الباب ان يفتح في مثل هذا الوقت المتاخر نوعا ما ..واطل وجه احد حارسي الزنزانة بخودته الرمادية لكنه سرعان ما فسح المجال لشبح كان خلفه هل هو الكتلة العضلية ذاته ؟ لا..لا ..انها الضابطة ..حمامة المعتقل العسكري التي اخذت تتقدم منه في توأدة .. حيته ..ثم اغلقت الباب خلفها بعد ان انصرف الحارس الى خارج في غير انشداه، عكس ما توقع بوداود ..نحّت قبعتها جانبا وتقدمت منه في حركة صارت فيها انثى بالفعل ..فكت ازرار معطفها العليا دون ان تتكلم ودون ان يفهم القصد من كل هذا الهجوم أهو استمرار لطور اللكمات الذي انشأه الكتلة منذ اليوم ؟ ام هو زحف شبقي مكشوف يمارس في العلن ..؟ ووضعت مقدمة اناملها على راسه الحليق كما لو انها تجس جبينه وقفاه ..

لم يشعر بوداود باي تجاوب معها ..لانه نفسيا منساق وراء البحث وراء معرفة الغاية من كل هذا الاندفاع الذي تبديه نحوه ..انه لامر عجب لقد اخذت تقبله وعيناها في عينيه وجذعها الاعلى يمارس احتكاكا صريحا بجسمه ..ويتساءل اهي تعيش لحظة غير التي يعيشها هو ربما بدليل ان وجهها قد استجمع توهجه ، وشفتاها في شبه ارتعاش.وقد صار صدرها الممتلئ شبه عار ،وانفاسها تحيط به متزاحمة في قوة ..؟ ام هو افتعال تركبه ملامحها لغاية ما ؟ ثم نطقت بصوت كأنه حفيف اشجاروقد اغفلت مسدسها (اللوجي) متدليا في جرابه على حافة خصرها هكذا في ثقة عمياء ، قالت بصوت هامس لايكاد يسمع :

ــ لماذا تلتزم الصمت ؟

وظل يعتقد ان وراء الحركة والكلام شيء ما ، لكن .ماهوهذا الشيء؟ لايدري بالطبع .. وخيل اليه انها مجرد مواساة تريد منها هذه المراة ان تنسيه اثارااللطمات العنيفة التي تلقاها من يد الضابط الكتلة ، هل افسد عليها هذا الضابط هدفها من بوداود ؟فكر في ذلك ثم تساءل ماهو هذا الهدف ؟

كان توترها النفسي قد اثر على صوتها الذي جاء شبه مضطرب حين قالت :

ــ اريد ان اساعدك ان ساعدتني طبعا؟

والتفت نحوها بخفة ولا شعوريا لامس يدها متسائلا في غرابة :

ــ اساعدك ؟

وابتسم على مضض وقد سارعت بوضع يدها الاخرى على يده وقال :

ـ وهل انا في وضع من يقدم مساعدة ؟

وهمست في اغراء محبب وقد سمحت ليدها بالايغال في صدره وعيناها تراقبانه في اهتمام كما لوانها طبيبة تجس نبضه وهمست :

ــ لاتضطرب..هدئ من روعك ..

واضافت وهي تطوق عنقه بذراعها:

ــ نعم عليك ان تساعدنـــــي.

وسالها في ذهول :

ــ وكيف اساعدك ؟ ثم هل انت صادقة في طلبك يا حضرة ؟

وقالـــت وهي تطوقه بيديها ووجهها يقترب من وجهه اكثر :

ــ حين تاتي على ذكر حضرة احس

ان مشاعرك بعيدة عني ..زل كل هذه الرسميات

من بيننا ...دع فقط مايكا في مواجهة بوداود

..وهما عاريان من كل لبوس

ولاول مرة خطر بباله ان اسم مايكا قد يكون اسم شهرة فقط كعادة افراد المخابرات في العالم كله..

وعندها قبل يدها حين ادنتها من فمه وقال :

ــ طيب وبماذا اساعدك يا مايكا..؟ مع حفظ اللقب ..

ــ و مصر ايضا على حفظ اللقب ..

واقتربت منه عيناها وقد ازدادتا اتساعا ، انها نظرات شبلة تدرك مقاتل طرائدها .علق في نفسه وظل محتفظا بوضع وقوفه ..واردفت :

ــ هذا امر لاتكفي فيه كلمة واحدة ..انه يحتاج

الى كلام ..والى .....لادري.

ولكن لماذا تنصرف نظراتها دائما نحو عينيه ؟ هل هي تدرس عمق تركيزه؟ ام تحاول النفاذ الى معرفة صدقه؟ ام ان الامر يتلعق بفتى جامعة برلين ..؟ اجل لعل الامر يتعلق بذلك بالفعل ..لانها دائما تختتم نظرها الى عينيه بقولها في شبه سر مكشوف : انهما تشبهان.... ولا تكمل ..وكذلك فعلت الليلة ايضا..انها تتمتم بكلمتها تلك كما لو انها تستفز بوداود او تلهب غيرته ..هل هو يتلقى حبا دافقا ام حربا نفسية ؟ لا احد يعلم ..

ولما تقدمت منه ادرك ان المسالة دخلت مرحلة اكثر جدية ، سيما بعد ان اقبلت عليه تقبله قبلات مطولة صامتة بطيئة مركزة كما لو انها تدخله في حالة استعداد نفسي للجواب ثم قالت:

ــ ان تتعامل معنا .

وكاد يفهم قصدها ..فانقبضت عواطفه نحوها ..وان كانت قبلاتها الدافئة قد اثارت مشاعره فبادلها احداها ورعشة مترددة تكاد تغمر جسمه ، ثم قال بصوت خافت :

ـ اتعامل معكم كماذا ؟

ثم اضاف متسائلا وقد اشفع جديته بابتسام فاتر:

ــ اتعامل معكم كجاسوس ؟

واتسعت شفتاها لترسم بسمة وهي تقول هامسة ايضا :

ــ ليس بكل هذا المعنى الكبير

الذي يخيفك وانما تزودنا ببعض

المعطيات الممكنة عن تحركات العدو الفرنسي..

قـــــــــــال:

ــ ولكنكم تسيطرون على فرنسا ؟

ــ نعم فرنسا موزعة الان الى ثلاثة اجزاء

جزء للالمان وثان للايطاليين

وثالث لحكومة فيشي الموالية لنا

فقال باسما كما لو انه يحاججها :

ـ واذن فما حاجتكم الى بائس مثلي ؟

فقالـــــــــــــــــــــــت :

ــ لا تتمسكن .. فانااعرف مدى جسارتك

ثم اردفت وقد اخذ صوتها يعلو نوعا ما كمقدمة غضب وكأنها تخيفه :

ـــ نحن لا ننتظر منك خدمات في مستو ى

ما قدمه سكورت سيني او فرانس ماير

على كل حال .

ولعلها تفطنت الى شدة صوتها فغيرت مجرى الحديث بقولها :

ـــ اخبرني اولا عن جمود عواطفك نحوي

هل انت من صخر ؟ ..

وابتسم وقـــــــــــــال :

ـــ حضرة الضابطة ..لست في وضعية

الذي يحس بشيء .. صدقيني يا سيدتي

واضـــــــــــــــــاف :

ـ انا احترمك واعزك وكل الاسرى

يفضلونك على كل من يتعاملون معهم

واحتك جسدها بجسده اكثر هذه المرة وهي تقول في اغراء :

ـــ لاتقل الضابطة ..انا اسمي مايكا ..

وابتسم قائلا وعيناه في عينيها :

ـــ رجال المخابرات ونساؤها يشتهرون دائما

باسماء مستعارة يا انسة مايكا ..

وقالـــــت محافظة على وضعها الملتصق به :

ـــ المهم ان جنسيتهم لا تتغير عكس اسمائهم ..

وحذق تعريضها به فلجأ الى الصمت وهو يبادلها النظر ، ولما احست بانها اغضبته قالت له :

ـــ وهل يهمك اسمي الحقيقي؟ هل ترغب في معرفته ؟

لن يحرجني ذلك فانا اثق فيك ثقة لاحدود لها

فقال بصوت خافت :

ـــ اعرف ذلك ، شكرا لك.. قلت لك ان الجميع يحبونك

ووضعت اصابعها على فمه كما لو انها تسكته وهي تقول :

ـــ وانا لا تهمني الا محبة واحد منهم هو انت.

عندهاعادت الى الجد وقالت مستأنفة حديثها السابق :

ـــ اطمئن ...عودتك الى فرنسا ســـــــوف

لا تكلفك اي عناء لانك ستعود اليهـــــــــا

فارا عبر قرى الحدود واريافه وهنـــــــاك

ستجد من يخدمك من الفرنسيين المقاومين

على اعتبار انك اسير فار فشبكات المقاومة

الفرنسية مزروعة على امتداد الحدود الالمانية

الفرنسية مهمتها تسهيل تهريب الاسرى بتوفير

كل شيء اليهم حتى المعلومات حول تحركات

جيشنا ..ام هل تعتقد ان الفرنسيين تخلوا عن قضيتهم

وناموا ايها الابله ؟..

وقال وقد تراجعت يدها عن صدره :

ـــ وبماذا عساني ان ازودكم من فرنسا

ومخابراتكم وجيشكم هناك ؟

فقالت ـ وهي تلامس عنقه باناملها :

ـ انت لست مغفلا ولكنك تتغافل ..من باريس

سوف تظهر حماسا للمقاومة وترغب

في الالتحاق بشمالي افريقيا حيث جيش

فرنسا الحرة التابع لديغول

و حيث نزل الحلفاء ..ومن هناك تباشر مهمتك هل فهمت.؟.

قال متنهـــــــدا :

ـــ مهمة صعبة ..وانا اجهل اساليب الجوسسة

وتقنياتها المعقدة ..

وهمست اليه في اغراء :

ـــ ليست صعبة ..انت تحملت ما هو اصعب

اما التقنيات فستتلقى تدريبا سريعا عنها انها

بسيطة ..بالنسبة لرجل حاد الذكاء مثلك ..

ثم اخذت تنظر اليه من مسافة اقرب وقالت في تذمر لتستفزه :

ــ يؤسفني ان تكون مدام ميلين اشجع منك..

وقال متجاهلا :

ــ ميلين الفرنسية الاسيرة ؟ وماذا صنعت ؟

ــ الم يخبرك زملاؤك الاسرى بصنيعها ؟

واضافت مسرعة :

ـ اذن لم تعد محل ثقة عندهم كما كنت من قبل ..

علينا ان نسرع والا انكشف امرك للفرنسيين

وكاد يبكي وهو يسالها :

ـ اي امر ؟ انا لم اصنع شيئا ولايمكنني

ان اصنع شيئا لا اعرفه ..

وانصرف بصره نحوها وقال مبتسما :

ــ ثم انني قد لا اصبر على فراقك ايضا ..

وضحكت قائلة :

ــ لوكان ذلك حقا ما قابلتني

بكل هذا البرود ..لكنني ساظل وفية لك

وسانتظر عـودتك او نلتقي هناك بعد النصر ..

وحتى لا تتلقى منه تمنعا اكثر غيرت مجرى الحديث قائلة :

ــ تلقيت اليوم رسالة من شقيقتي اغنيس المقيمة

في "لينتس" بالنمسا قالت فيها ان والدتي في

برلين كانت مريضة وتعافت ثم ان اغنيس تقول انها

بصدد الوضع ولذلك دعتني الى زيارتها ان سمح

الظرف الذي نمر به ..

ثم اضافت وهي تتهيأ للخروج :

ــ هي متزوجة من مصور تعرف عليها حين كانت

تقضي عطلتها بتلك المدينة قبل الحرب ..

قالت ذلك وهمت بتوديعه دون ان تنتظر اي انطباع منه على ما ابلغته به بشان شقيقتها ووالدتها ، لكن شحوبا كان يعلو وجهه شدها اليه لتساله :

ــ بوداود..ما بك ؟

وقال في تثاقل كما لو انه يئن بحمل ثقيل :

ــ لادري .. اه.. لاشيء .. لاشيء..

وقالت بلهجة اكثر اغراء :

ــ اخبرني ..هل نسيت من اكون بالنسبة اليك ؟

وتراجع عنها بوجهه كما لو انه يحادث احدا غيرها وهو يقول :

ــ لماذا اقحمت هذه الامور في امرنا ؟

وسالت في اندهاش :

ــ امركم ؟ ومن انتم ؟

ــ انت وانا ..

ــ اي امر ؟

ــ علاقتنا لا تتحمل اكثر من الحب يا انسة ..

وقالت وهي تعيد الاقتراب منه بشكل اخذ يخافه :

ــ حبي لك لايزاحم حبي لالمانيا ولا حبي

لها يزاحم حبي لك..

وحين اطالت سكوتها كان يعتقد انها تنتظر جوابا منه لكنها استطردت :

ــ اما انت فوضعك يختلف لانك معفى من اي التزام ..

فانت لست ملتزما لاتجاه فرنسا ولا تجاه المانيا

ولا حتى تجاه ..؟..

ولم تضف لكيلا تجرحه او تثير غضبه بل فضلت الانصراف بعد ان ودعته بكلمات جافة . فاكمل كلمتها قبل ان تتوارى خلف الباب :

ــ اكملي .. ولا حتى تجاه بلدي الاصلي..

فالتفتت اليه وقالت مرفقة كلمتها ببسمة من شانها ان تخفف غلواء الخطاب بينهما :

ـــ اما هذه الاخيرة فقد قلتها انت ولم اقلها انا..

ثم غادرت .وعلق بوداود في نفسه وقد صار حذرا اشد الحذر ((لو لم تقحمي مسالة الجوسسة في احاديثنا لقلت انك صادقة في دفعي الى الاحساس ببلدي))..

الفصل التاسع :

سر العسكري الاسمر :

قضى ليلته تلك متشائما لايعرف الى اين ستقوده هذه العلاقة التي اخذت في التعقيد واغرقته في الوساوس مع بروز مسالة فتى الاناضول بعد أن كانت سلسة مفعمة بالعاطفة والحنان ولحسن حظه حل مع الصباح الموالي يوم احد فاقتيد الى البناية الجماعية ليلتقي بقية الاسرى وفي مقدمتهم الاسمر لكنه وهو يلقي التحية لاحظ برودا بل وتحفظا ابداه البعض ازاءه صراحة ..ماذا جرى ؟ تساءل دون ان ينطق

وما ان اخذ مكانا الى جانب الاسمر قائلا له :

ـــ كيف حالك ..هل من جديد ؟ .

وعوض ان يجيب اشاح الاسمر كما صاروا يسمونه بوجهه جانبا وهو يهمهم ..بل واخذ يحادث الذي يليه من الجهة الاخرى متجاهلا بوداود الذي تراجع فضوله والتزم الصمت ..كانت حيرته تكبر وتكبر ..وخيل اليه انه خسر دفعة اخرى من زملائه ..بعد زملاء حلقة السمر بثكنة الراس ...هل يسالهم ؟ هل يستمر في تجاهله لموقفهم ؟ تفرس في وجوههم كما لو انه يشاهدهم لاول مرة ..كان معظمهم متفاوت الاسمرار فهم في غالبيتهم ينتمون الى الكتيبة السنغالية ولذلك تبدو عليهم مظاهر الاحتراف العسكري من حيث السن واشتداد اللهجة رغم تدخل الحارس الالماني بين حين وحين لتهدئة وشوشتهم ..فضلا عن نباح الكلب الضخم الذي لا يفتا يعبر عن حضوره بين الحين والاخر ..

والى جانبهم يوجد رجال تجلت شقرتهم لتثبت انتماءاتهم الى بلجيكا وهولاندا والدانمارك وبولونيا والنرويج فضلا عن ابناء اوربا الغربية

عندها سمع بوداود زميله السابق أي الاسمر يهامس الذي يليه من الناحية الاخرى :

ـــ دفعة جديدة من الاسرى جيء بهم

من الجبهة الفرنسية ليلة امس كما بلغني ..

وسال الرجل الاخر وكان يبدوعليه الاحتراف العسكري من قوة بنيته ومن خيوط شيب تخللت شاربيه :

ـــ لعلهم نقلوا من معتقلات الالمان بفرنسا ..؟

ـــ اكيد ..

وطغى على الجلسة التي لم تصر حميمية بالنسبة الى بوداود عكس سابقاتها همسات ووشوشة ..فالكل يهامس جاره في ود الا بوداود الذي يزم شفتيه وقد انصرف بصره الى زاوية الكلب الضخم الذي يحتل مقدمة الباب الخلفي الكبير بدون منازع وقد انتفض مطلقا دفعات تحذيرية من نباحه مما حدا بالحارس الى الدخول لاستطلاع أي مستجد غير انه اكتفى بتمرير عينيه الزرقوين عبر وجوه الاسرى ...كان ذا منظر ملفت من حيث اللياقة البدنية والحزم البادي من مظهره وهو يرتدي بزة ميدان و بندقيته الـــ " كارابين" ممتدة افقيا عبر

نحره ..وسمع بوداود احدهم وقد كان قصير القوام حيويا يقول لزميله الذي يليه :

ــ كدت اموت تحت التعذيب يوم امس..

وتدخل اخرمن جلاس الزاوية الشرقية وقد خفت صوته وكان اقل سمرة ذا شفتين حمراوين:

ـ اكيد انهم زبانية ذاك الشرس ..

وايقن بوداود انهم يعنون الضابط الكتلة كما يسميه هو ، فهم يتجنبون ذكر اسماء المحققين خوفا من ان يتفطن الحارس الالماني الى مدار حديثهم ،ومن احاديث الاسرى ادرك بوداود ان الكثيرين منهم يخلطون بين الضابط الكتلة والرائد كلاوس.على اعتبار انهما شخصان ، مع ان الالمان ينادونه الرائد كلاوس هكذا باسم ورتبة مستعارين من باب التمويه على شخصيته ، فهو مفتش زائر لايحل بالمعتقل الا في زيارات متقطعة ، تفتيشية ، فضلا عن انه لايقيم بالمعتقل عكس بقية الضباط ..لكن الغريب انه يبدو مخولا لمراقبة فرع مخبراتي يديره برونسكي الذي هو برتبة جنرال ؟ تساءل بوداود قبل ان يضع ذلك ضمن مجاهل عمل الجيستابو . هذه الزيارات الفجائية كان يخشاها الاسرى ، لانه حاد الطبع سريع الغضب ، لا يكاد الاسير ينصرف من امامه قبل ان يتلقى صفعة او ركلة او لكمة حتى ، بل غالبا ما كاد يفترس بعض من حقق معهم في جو من الصراخ و الرفس و التعنيف وكان يذهب به غضبه الى بعثرة الاوراق المنصصة على هذا المكتب او ذاك ، وهو يضغط قفل محفظته الجلدية الضخمة قبل ان يصيح في الجلسة الضيقة التي يعقدها عادة في وجه المخبرين :

ــ عن افتكاك اية معلومات تتحدثون

ايها السادة و الناس هنا عندكم في نزهة

هل تنتظرون منهم الادلاء بما

يخدمنا طواعية ومن تلقاء انفسهم ..؟

وحين يسال اسيرا عن اصوله فينتسب الى غير فرنسا حذرا من اقدام الكتلة على تعذيبه يقول هذا حانقا :

ــ ما يهمنا هو الجيش الذي اسرت ضمنه

انتسب لمن شئت ..كلكم اعداء المانيا..

وتحدث الاسرى عن اشرافه شخصيا على تعذيب الكثيرين منهم بواسطة وسائل متعددة ..

اثناء تفكير بوداود في امر الكتلة كان الاسير صاحب الشفتين الحمروين يقول بلغة فرنسية تشوبها رطانة واضحة قد اخلا فيها حرف الغين موقعه لحرف الراء مرارا وقد بدا الرجل نحيلا طويل القامة :

ــ بعضنا يتعذب والبعض الاخر يبيت بين

احضان الشقراوات الدافئة ..

وابتلعها بوداود دون ان ينبس ببنت شفة.رغم ان عبوسا واضحا علا محياه فبدا كمن يكابد

هما مزمنا ...المهم لديه انه فهم التعريض ..وادرك سبب تحفظ الاسرى تجاهه منذ ايام ..فماكان منه الا ان قرر العزوف عن محادثة أي منهم ..فهم في الواقع ليسوا باصدقائه ، وان بناية المعتقل هي فقط ما جمعه بهم ..فليتركهم على اعتقادهم مادام لا يستطيع مكاشفتهم بما يربطه بالضابطة الشقراء ..التي عليه ان يكتم سرها..

وتساءل شبه مبتسم وهو يخاطب نفسه ...أه يا بوداود لكم صرت مستودعا لاسرار ثقيلة..اسرار متفاوتة الخطورة كجراح المعركة.سر الصواف يليه سر الشقراء ..ثم سر ذهبية الفتاة التي تزاحمت الاعوام لتشفيك من اثار نظراتها دون ان تفلح ..لالشيء سوى لانها النظرات الخام ..نظرات البراءة التي لم تعرف الجمال المركب ثم وفجاة عدل بوداود عن قطيعة الاسرى مغامرا بقوله:

ـــ هذا الشرس الذي تتحدثون

عنه هوشخصيا من لطمني على خدي ..

وتمتم النحيل :

ـــ لطمات على الخدود نهارا سرعان

ما تمحوها قبلات ليل محمومـــة...

ومرر بوداود بصره على وجوه السجناء ، كانوا منكسي الرؤوس كما لو انهم بصدد السير في جنازة مهيبة ..وقلما همس احدهم الى الاخر ..يا لهؤلاء المساكين يعتقدون ان المطلوب منهم هو ان يعادوا الالمان وان يستمروا على عدائهم لهم ليعربوا عن انتمائهم الى فرنسا ، صدق الضابط الكتلــة حين قال لبوداود اثناء التحقيق معه :

ــ اني لاحترم في البولونيين

مقاومتهم الشرسة التي ابدوها

انهم شرفاء بحق ..

لقد حمد لهم صمودهم رغم ان هذا الصمود كان ضد قوات بلاده الالمان ..دون ان يشيد بصمود كتيبتي الفرسان الجزائرية والمغربية في واقعة لاهورن ، الذي دام يوما كاملا بواسطة مدفع واحد من عيار 25 ..لان صمود الكتيبتين لم يكن لصالح بلديهما ..بل انه اشاد ايضا بمقاومة الفنلنديين في وجه القوات السوفياتية بقوله :

ـ لقد ذادوا عن خطهم ، خط .مانيرهايم ذود الابطال

فصمد مدة اطول من المدة التي صمدها خط ماجينو ..

وفهم بوداود من كلام الضابط تعريضا بخط ماجينو الفرنسي وما ال اليه امره..بل انه شكر ايضا للدانماركيين مواجهتهم للسوفيات رغم انها لا تقارن بمجابهة الفنلنديين على الاطلاق كما سبق لمايكا ان قالت ..

هكذا قال الضابط الكتلة الذي راه بوداود يضحك لاول مرة حتى وان كان ضحكه سخرية من

خط ماجينو الفرنسي ..

تفطن الاسمر الى تبرم بوداود واستيائه سيما بعد ان استدار ليوليه ظهره حسبما يسمح به موقع الجلوس.، فبادره بقوله :

ــ بوداود .. هل من خبر عن مجريات الحرب ؟

وقال بوداود في تجاهل :

ــ ومن عساه يخبرني يا اخي ؟

فقال الاسمر على الفور :

ــ مايكا طبعا .. عقيد الاستخبارات ..؟؟

فانبهر بوداود لصراحة الرجل و لاطلاع الاسرى على علاقته بمايكا ..لكنه قال :

ــ وهل انا من الحظوة عندها

بحيث تطلعني على خبر خطير كهذا ؟

وابتسم الاسمر ثم تنهد وقال :

ــ وما جدوى علاقتك بها اذن ؟

وقال بوداود وكأن خبرته في السجن سمحت له باستنتاج ذلك :

ــ وهل تعتقد انه في امكان الاسير ان يجبر

سجانه على نوع العلاقة التي تربط بينهما ؟

في هذه اللحظة اخذت دفعة اخرى من الاسرى تلتحق بهذا الجناح ، وما ان التصقت عينا بوداود بوجوه بعضهم حتى برقت اسارير وجهه ، انهم .هم..رفاقه واحبته ..

ومن خلف الصفوف جاءه القنفذ الى ان جلس امامه وقال :

ـ بوداود..لقد اشتقت اليك والى محمود ..

فضحك بوداود والاسمر وعبد الكبير وماماادو وكل من كان قريبا منهم . ثم تنهد السابعي القفصي وقال للقنفذ :

ــ محمود على كل حال لن يكون

الا احسن منا حالا..

فهز القنفذ راسه موافقا ثم قال :

ــ اجل فهو بين افراد جيشه وفي بلده ..

ولم ينتظر عبد الكبير اي تعليق من بوداود كما توقع هذا ..

وفجاة تذكر بوداود ما رواه محمود عن خاله الصواف ، الذي كان يردد له دائما المثل القائل : **((كم جابوا لا كم غابوا))** (7) ، ويحدثه عمن كان يسميهم برجال المعتقلات بلا منازع .. فيساله محمود فزعا: هل هم مجرمون؟ فيجيبه ضاحكا : لم يعد الفرنسيون في حاجة الى مزيد من المعلومات حول هؤلاء فقد صاروا يعرفون حقيقتهم ولذلك هم تارة يعتقلونهم وطورا يفرجون عنهم حسب شدة الاحداث ..

ولما سال محمود خاله عما اذا كان قد لحقه اذى بسبب علاقته بهؤلاء ، قال الصواف : " ولكنهم في معظمهم من جيراني ، هل يستطيع احد منعي من جيراني ؟ " قالها ثم استانف كلامه : " لقد استنطقت بشانهم مرات وسجنت مرارا.."

لم يكن جورج وجوفر والاخرون من الجنود وضباط الصف الفرنسيين ليسمح لهم بملاقاة غيرهم من زملائهم في الجيش الفرنسي من ذوي الاصول غيرالفرنسية ، وكان لا يجسد الاستثناء من هذا الاجراء الا القنفذ و الاسيرات الفرنسيات اما هن فربما لابقائهن قريبات من مواقع العمل كالمطبخ والملهى و المقهى ودورات المياه وغيرها حيث يشتغلن منذ الصباح كمنظفات ومساعدات في الطبخ ..اما الابقاء على القنفذ فظل محل تندر الاسرى وتعجبهم حتى قالوا :

ــ هولا يثير الا نكت الالمان و ضحكهم

ولذلك ابقوه قريبا منهم للتمتع بمنظره

والتفكه بقصر قامته

في حين اخذ يردد لزملائه ان الالمان لم يبقوه قريبا من نقطة الحراسة المشددة الا لخوفهم منه كاسير بالغ الخطورة ودليله في ذلك ــ كما يرى ــ ان الكلب الضخم قد ضاعف من يقظته ونباحه تحسبا لاي عمل يقوم به هذا العسكري القصير القوام. لكن بعض الاسرى كانوا يستفزونه حين يقولون له ان ما يثير الكلب فيه هو شخصه القليل فيعتقد انه طفل يريد ملاعبته..

ويضحك الجميع كما لو كانوا بمقهى الا بوداود الذي يبدو وكأن الضحك لا يصدر من اعماقه بل يتطفف كدواء خارق المرارة ..فهو منذ ان كاشفته مايكا برغبتها في استخدامه كعميل معلومات احس بقوة داخلية تكبح انجذابه نحوها ونحو كل شيء مفرح فحزن لتراجع صدق نبضه تجاهها مقرا في نفس الوقت بصعوبة العودة بقلبه الى عهد ما قبل مايكا ..وظل بمفرده يعلك سؤالا يراه انكى من كل شيء اخر ..هل ان ما اقدمت عليه من تودد يعني انها احبته حبا كان مخططا له كما اصبح يعتقد ؟ وان ما يتخيله في شكل هيام به ان هو الا تحبب مصطنع ؟ على الرغم من كل هذا اليقين الذي كاد يصل اليه مال الى الاطمئنان بان حب مايكا له حبا مشكوكا فيه افضل من ان تكرهه او تعامله كمجرد اسير من اسرى المعتقل الحربي فمسالة نظرهم اليه كمشروع جاسوس ستصرف عنه نقمتهم وتقيه العذاب على الاقل ..

طوال فترة تفكيره هذا كان القنفذ ينظر اليه في صمت بينما تحادث الاخرون ثنائيا غالبا وجماعيا فعبد الكبير مع السابعي القفصي و الاسمر يحادث مامادو والنحيل يريد ان يبتسم في وجه بوداود كما لو انه يعتذر له عما سلف منه تجاهه ..

فاخطر انواع الكلام على القلب البشري هو ذلك الذي يرفض ان تتيحه لغيرك ليشاركك فيه ..علق بوداود ...لكن لو ان قلب مايكا خلو من حبه لم كلفت نفسها الانتقال كل ليلة الى زنزانته

عبر رحلة اغراء وشوق الى لقائه؟ في وقت كان يمكنها ان تخلد الى الراحة من جراء عمل شاق من الاستنطاق وبحث الملفات والجلسات المغلقة مع رؤسائها ؟ وجهرة سال نفسه : ما معنى ان تقحم عاطفتها في امر خطير كهذا لو لم يقم في وجدانها ما يدفعها الى حبه ؟ وهم اناس يحرصون على التفرقة بين الاشياء ولا يخلطون..؟

في هذه اللحظة كان عبد الكبير قد اشتكى اليه نكء جراح الاصابة التي تعرض لها يوم القاء القبض عليهم فنصحه بوداود بمكاشفة النقيب الذي يتعامل مع الاسرى في حين علق الاسمر ساخرا :

ــ وهل توجد رعاية صحية بهذا السجن ؟

رغم هذا الملل الذي تعكسه احاديث المعتقلين كان الجميع يخشى تصرم الدقائق لان انقضاء النهار يعني العودة الى الزنزانات الى الوحدة الى الموت البطئ بين جدران صلبة باهتة الطلاء شديدة القتامة ....كان المعتقل وفق ظروف الحرب لايخضع لخطة ثابتة ، فهو تارة يتخلى عن النظام الانفرادي الا بالنسبة لوجوه معدودة منهم بوداود دائما بطبيعة الحال وطورا يعممه على الجميع..وهو ما حدث منذ احداث النورماندي الى ان اصبح يسمح للمعتقلين من اصول فرنسية ان يلتحقوا بجناح البناية الكبرى ايام الاحاد وهو ما كان محظورا يوم ان كانت المانيا في اوج جبروتها. .

وحين تلقوا امرا بالوقوف استعدادا للانصراف تلقاء الزنزانات وجد بوداود نفسه الى جانب عبد الكبير الذي لم يشر الى اي موضوع قد تشتم منه جدة خارج الكلام المستهلك فادرك بوداود ان الاسمر قد جفت مصادره او تكاد ولذلك كان قد بادره فور لقائهما بالسؤال عن مجريات الحرب..بل كانت تلك اللحظات فرصة لبوداود ان يلوم الاسمر ولو في شكل سؤال :

ــ من يشيع مسالة علاقتي بمايكا ؟

فقال الاسمر ضاحكا :

ــ الزنزانات متلاصقة كما تعلم وسكون

السجن يجعل دبيب النملة يسمع ولو من بعيد.

فقال بوداود مستسلما هذه بالمرة :

ــ ولكن في السجن كل شيء ياتي خارجا عن ارادتك

سواء كان قسوة استثنائية او شعورا اخر..

والى هنا قهقه الاسمر بشكل ملفت وقال مربتا على كتف بوداود :

ــ هي حظوظ يا اخي ونحن لم نعتقد

غير هذا..

من خلال هذا الحوار بدا لبوداود وكانه اكتشف طيبة الاسمر لكن ان ينسب هذا الاخير ما يصدر عنه من معلومات بخصوص الحرب الى عين المانية فهو ما ظل يشغل بال بوداود بل ويشك في

صحته ، فالالمان لا يتهاونون في انتقاء اعوان السجون انتقاء دقيقا ثم ان الصرامة التي يخضع لها المعتقل لا تسمح باي ادنى اختراق .وامام وضع كهذا فمن اين للاسمر بما يسر به الى عبد الكبير ؟ ثم لماذا الى عبد الكبير بالذات مع انه يعلم ان عبد الكبير والقفصي لا يخفيان شيئا عن بوداود كما ان هذا لا يخفي عنهما شيئا الا ارتيابه في امر مايكا لان ذلك يحتاج الى مزيد من الانضاج..

واذن ما الداعي الى تسريب الاسمر معلومات بكل هذه الخطورة الى عبد الكبير ؟ هل ليبلغها بدوره الى بوداود فيتيح له اختبار هذا الاخير ان كان سيوصلها الى مايكا او لا ؟ وما الغاية من ذلك ؟ تساءل بوداود في صمته.. واجاب ، الغاية ان هو ابلغ مايكا بذلك فهو جاسوس للالمان بلا شك .. لكن هل ترى الاسمر يلعب بالنار الى هذا الحد لمجرد ان يختبر ولاء بوداود للالمان ؟ ربما ..ام تراه يجهل ماذا سيحصل ان علم الالمان بتسريب معلومات من عين المانية تكون قد زرعت بالمعتقل الحربي ؟

أناشيد الجراح :

كان الغالب على ظن بوداود ان مايكا ستحتفظ بغضبها اثناء عودتها اليه لكنها اقبلت مع منتصف الليلة الموالية باشة متفتحة الاعطاف شغوفة بلقائه حيث لم تتوان منذ اللحظة الاولى لدخولها عن اظهار مشاعرها تجاهه ناقلة اليه ما تكابده من شوق الى لقائه اثناء ساعات الفراق التي يستغرقها عملها ، وعن عمد اخفت جلساتها المطولة مع المفتش كلاوس (الكتلة) ليلة البارحة الى جانب زملائها في مكتب الاستخبارات حيث لاتزال تحتفظ باعجابها للاميرال كناريس رئيس المخابرات الالمانية الذي كانت عبقريته محور سهرتهم انذاك .فكناريس هو من اوعز الى المقدم هلموت مايررئيس فرقة التجسس ـ منذ ايام ـ باشارة غريبة مكونة من قسمين قال ان الحلفاء سيستخدمونها تنبيها لحركات المقاومة في فرنسا بان الهجوم على وشك ان يشن بل ان مايكا لتعجب من تيقنه بحيث ذهب به الامر الى اخطار القيادة بتكهنه هذا مشيرا بعدم اخذ ما تذيعه المحطات الاخبارية المعادية المنبعثة من انجلترا على انه مقدمات اعلان لهجوم النورموندي اذ هو بالكاد تعليمات مبطنة رامزة الى جيوب المقاومة داخل فرنسا وغيرها للقيام باعمال تخريب لان الاعلان عن الهجوم ستتقدمه اذاعة الاشارة الغريبة ذات المقطعين..

والحق ان مايكا لم تكن هي من تلفعت عيناها بغرابة ما كان ينقله المفتش كلاوس من امر هذا الاميرال بل ان المقدم ماير ذاته دهش يومها لذلك..

اما مؤشرات الهجوم التي نقل الكتلة ان الاميرال اشعر بها القيادة العليا فانها تتلخص في بيانين رمزيين لا اكثر كما حددهما كناريس، منبها المقدم هلموت ماير الى الزام مساعديه التقنيين بتتبع كل ما يصدر عن تلك المحطات الاذاعية بغاية التنبه الى ذلك الاعلان فور اذاعته .

كانت مايكا تسترجع كلام المفتش الكتلة متظاهرة بالانصراف الى كلام بوداود الذي كان يتحدث عما يكابده سكان قريته نتيجة سلوكات رجال الكولون ، والى هنا قالت له محتدة وهي تستعيد تنظيم هيئة هندامها العسكري بما فيها معطفها الخارجي وتنورتها العسكرية :

ـ الا تزال تذكر ابنة قريتك التي حدثتني عنها ..؟

ولم يجب على الفور كما توقعت .. بل تركها تنتظر لبعض الوقت ثم قال ضاحكا

ـــ ولماذا علي ان انساها ..؟

وانفجرت ضاحكة ثم قالت في دلع وهي تهز راسها :

ـــ انا سالتك ولم اطلب اليك نسيانها ..

قالتها دون ان تنصرف كما توقع بل عاودت الجلوس على نصف مفترش مخدعه فاسحة له مجالا الى جانبها وان كان المكان اضيق من ذلك ، واضافت وعيناها ترسمان حالة استرخاء :

ـــ يبدو لي انني سانام هنا الليلة، انني مرهقة

فلي ثلاث لم انم انه الشغل وظروف الحرب الرهيبة

فقال بصوت خافت لكنه جاد :

ـــ هذا يسعدني ..

قالت وهي تحاول مد رجلها الى ابعد:

ـــ ويسعدني انا ايضا لكن ..

ولم تمدد الحوار كما انتظر منها بل اكملت :

ـــ يسعدني فعلا لكن اين نحن من ذلك ..؟

ولما همت بالانصراف ربتت على كتفه ثم قالت وهي في طريقها الى الباب الذي كان قريبا جدا منهما :

ـــ لنؤجل ذلك الى ما بعد الحرب ، صدّق على

قولي بكلمتك التي تناجي بها السماء عادة ..

فقال بوداود وهو يشيعها بنظراته كما لو انه يودع هالة مضيئة تم قذفها نحو جنح ظلام :

ـــ ان شاء الله ..

فتثاقلت خطوتها حين بلغت الباب وقالت متنهدة وقد تفتحت اساريرها:

ـــ اه..فعلا..انها هي.. الكلمة المطمئنـة ..

واعقب صوتها الشجي قرقعة الباب الفولاذي الخشن وقد اغلقه الحارس الليلي ، ليحل محل مايكا بكل روعتها سكون ثقيل وشعور رهيب بالانفراد سرعان ما اعطتهما ظلمة المكان ووحشته كل معاني القبر المجهول الذي يندر اكتشافه ..ومن داخل كل تلك الوحدة ابتسم بوداود وهو يسترجع كلام ميكا عن ذهبية .. واين هو من ذهبية وقد مر من الزمان ما هو كاف لتكون فيه اما ميتة او متزوجة ففي بلدة الثيران ليس للمراة خيار ثالث ،.فهل تشكل ذهبية استثناء لانها الاجمل ..؟ من يدري؟..ثم تنهد مختتما تخمينه بقوله : لكن كلام العم بوجمعة لا يوحي بذلك..

كانت مايكا منذ ان حددت له المهمة التي اصبحت تنتظرها منه لم تتاخر ليلة واحدة عن زيارته، صحيح انها تزور بعض الاسرى في الزنزانات التي بجواره سواء بدافع العمل او التمويه لكن محطتها المفضلة التي تطيل بها الرسو هي زنزانة بوداود الذي اصبح فيما يبدو برما من هذه الزيارات احيانا ليس كراهية في فاتنة المعتقل الحربي او لانه سئمها ، ولكن للمسالة المستجدة التي باتت تستاثر بمعظم حوارهما ..ولكم ظل يحن الى زمن كان ينظرفيه الى مايكا نظرة الفتاة المحبة خارج كل الابعاد و التلونات ، فكر في كل هذا ثم سأل نفسه ، لماذا يصطدم حبه دائما بما يخرجه عن طبيعته كعاطفة خالصة لاتحمل الا ما يوشي به عنوانها ؟ بالامس اعترضت صفته كمجند في الجيش الفرنسي طريق حب ذهبية له ، واليوم يترصد حبه لمايكا هذا الامر الجديد ليبعثر اوراقه ويصرفه عن ما تنشده القلوب عادة حين تتمازج نبضاتها ، ولـــم يطل تفكيره حتى تحركت كل المفاتيح الخارجية التي تعود على حركتها قبيل انفتاح الوصيد الفولاذي المدرع ، وبالفعل برزت مايكا بكل حيويتها وجمال محياها الذي لا حلبة له الا مصارعة النور الذي سبق انفتاح الوصيد ..لم يعد الكلام وحده كافيا في نظرها ولذلك جاءت راسا الى حيث يجلس بوداود لتجثو على ركبتيها امامه كما لو انها ستؤدي بحضرته نوعا من القسم غير معروف ، ثم قالت :

ــ زرت جيرانك وانا في طريقي اليك ..

ــ وهل منهم بعض معارفي ؟

وضحكت وهي تمسح على جبينه بيدها :

ــ معارفك مبعدون من هذه الناحية

لاسباب تخصني ..

وشد على ذراعها النوراني الممتد نحوه وقال لها :

ــ هل لي ان اسالك سؤالا بريئا لاينبغي

ان تحمليه اكثر من براءته ؟

وضعت يدها الاخرى فوق يده التي تمسك بذراعها وهمست :

ــ اذا كان بريئا فعلا ..

قال لها على الفور :

ــ اين مدام ميلين..؟

وبغتة جذبت يديها كلتيهما في خفة متناهية واستوت واقفة وقد علا محياها احمرار غضب ثم تحركت في سرعة الى خارج الزنزانة دون ان تنبس بكلمة واحدة ، تاركة بوداود وسط صليل الباب الذي اغلقه الحارس بسرعة وبعنف ايضا ، وكانت اول مرة يسالها فيها عن شان فرنسي ذي علاقة مباشرة بالمعتقل ..

انطفأ النوران معا ، نور وجهها ونور المصباح وعم الظلام الى ان صار كما لو انه يمسك باليد .وعكف بوداود على نفسه يلومها ويوبخها بقسوة. كان يخشى امرين اكيدين هما فقدان ود الفاتنة الالمانية و تغيير معاملتها له ، والحقيقة انه لم ينم ليلته تلك ، ياله من احمق في كل مرحلة من مراحل حياته الا ويخسر واحدة من افتن الحسناوات هكذا بصورة تلقائية ومجانية كما يفعل صبي بالعابه ، ثم من بعث هذا الاهتمام بمدام ميلين في نفسه غير الاسمر الذي قد يكون عشيقا لها او معجبا بها ؟ او..او..؟؟ ومع ذلك لم يحقد على زميل المعاناة ..لكن على الرغم من كل هذه التوقعات والمخاوف التي تنتابه الى ان سببت له صداعا نصفيا ، بات لايخامره ادنى شك في ان مايكا ستعود وربما في احدى ساعات الليل هذه ، فهي وان زهدت فيه كحبيب فلن تتخلى عنه كمشروع لطموحها الاستخباري ، ثم ان محاولة تجنيدها له كجاسوس لايمكن ان تكون قد تمت من تلقاء نفسها بعيدا عن علم او حتى تشجيع رؤسائها ، ومن ثمة فان اي قطيعة ستعلنها ازاءه ستعد فشلا ذريعا في مهمتها الصعبة هذه ..

ابان الهزيع الاخير من الليل وجد بوداود في استنتاجاته هذه ما يقوي اطمئنانه الى احتمال عودة مايكا فنام غير ممدد دون ان يغير من وضع جلوسه .

اما مايكا فكانت وزميلتها فيسترمان لاتزالان في جناح البرق ولا شيء يغلب على تفكيرهما سوى عبقرية الاميرال كناريس وقد تجلت في اهتدائه الى مقطعين شعريين شكلت اذاعتهما اشارتين ببدء هجوم النورموندي الذي شنه الحلفاء بعد ان كانوا اذاعوا قبله ــ وفي فترات

سبقت ـ عشرات الاعلانات كان على كناريس ان يؤكد لقيادته في كل مرة بانها مجرد ايهام للطرف الالماني وان الرسائل التي تشير الى يوم الغزو لن تكون كثيرة العدد كما سيحدث فعلا .. . كان ما يشغل بالي مايكا و فسترمان اكثر هو كيف تسنى للاميرال التوصل الى هذه النبوءة فهل كان ذلك فقط من باب الحاسة السادسة ام نتيجة افادات سرية تلقاها من عيون قد زرعت في اعماق دوائر الحلفاء بانجلترا ؟ واتفقتا على ان الامر لا يخرج عن حدة العبقرية التي يتمتع بها هذا القائد البارع ولو ان الوصول الى تسمية المقطعين بل وترديدهما والترنم بهما من قبله على اسماع اليوتنان كولونيل هلموت مايريبعث على الحيرة فعلا..

الاكيد ان ماير كان ـ رغم كونه رئيس فرقة التجسس ـ قد ذهل و السرجان قالترايخلينج يسارع اليه حاملا سماعتي الاذن حين التقط البيان ..واستمع المقدم ماير الى المقطع في ذهول (8):

((النواح الطويل مـن

كمنجات الخريـــف ...))

ثم سرعان ما اتبع بالمقطع الثاني :

((تجرح قلبي بهذا الملل

وهذا الخمـــــــول ...))

.. وفي الصباح وقبيل تناوله شطيرة من خبز وقليل من مربى مدت اليه من تحت الباب ، لاحت له فكرة فاحتفظ بها ..وكانت تخص سؤاله المغامرعن مدام ميلين الذي جعل مايكا تغضب منه الى درجة اخافه غضبها ..وفعلا وبمجرد ان ولجت مع الباب نصف المدرع في الليلة الموالية وسلمت حتى بادرها وهو يضع راحة يده على شعرها وقد نحّت القبعة ربما تادبا معه كما تفعل دائما وقد افرحه انها لم تبعد يده عن راسها وتفاءل بذلك كمقدمة لحوار قد يعيد الوفاق بينهما :

ـ هل جعلك سؤالي عن ميلين تعيدين النظر

في المهمة التي كنت تنوين اسنادها لي ؟

ـ اكيد ..

ـ وهذا ما كنت اصبو اليه من سؤالي اذ ماذا

يعنيني من مدام ميلين ؟

ـ انت رهيب فعلا ..

ثم اضافـــــــــت :

ـ لقد فشلت في تهربك اذن .. ثم انني اعرف

لماذا سالتني عن مدام ميلين بالذات .

لان بنات الريف الفرنسي سيسالنك عنها

وعن السجينات وهن يتحن لك ما سينسيك حبي

فهن لطالما فتحن مخادعهن للاسرى الفارين

انهن مقاومات شرسات وفوق ذلك جميلات

كجمال مدام ميلين او افتن .

واختتمت كلمتها ضاحكة وهي تكمل :

ــ الا تراني غبية احيانا هل انا من يقنعك

بجمال الفرنسيات وانت من قضى وقتا

طويلا بفرنسا ؟

قالتها ثم ركنت الى الصمت لتضيف قبل ان ينطق :

ــ اسمع لا تجبني الان عن اقتراحي سامنحك

وقتا للتفكير ...ان وافقت فستجدني رهن اشارتك

لتلبية كل شيء تطلبه مني. ليلتك سعيدة .

وقالت وهي تهز راسها كما لو انها تحذره :

ــ اذا انهزمت المانيا ستعرفون من تكون فرنسا..

قالتها ثم اعادت وضع قبعتها على راسها وهي تناوله علبة سجائر فاخرة وتقول كما لو انها تذكرت شيئا :

ـ لك ان تدخن رغم ان التدخين محظور

و في اللقاء القادم سأتيك بقنينة من الذ شرابنا

انها من نوع " دونكيل ".. وستعاقرها حبا في مايكا

ولا تمنحها الى احد زملائك يوم الاحد..

قالتها وانصرفت بخفة عسكرية متقنة ..واختتم اللقاء الحلم بقرقعة اخرى من مفتاح الباب النصفي المصفح ...عندها ادرك بوداود سر الرأفة التي حظي بها لدى الضابطة منذ ان وقفت على تذمره من فرنسا والفرنسيين ..وسر ابقائه ضمن مجموعة قليلة بالزنزانة الفردية عكس معظم الاسرى ..وابتسم مرددا في نفسه :

ــ لذلك صرت مدللا منذ لقائي الاول بها ..

بل وصارت تحبني الى هذا الحد المكشوف..

لكن هاجسا اخر انتابه ..ليقوض شكوكه هذه ، لعل عواطفها صادقة ؟..من يدري؟ ثم اليس من حقها ان تخدم بلدها وجيشها بكل ما تطيق دون ان يلغي ذلك عواطفها او حبها لبوداود ؟...واشعل لفافة معتقدا انه الوحيد من بين الاسرى الذي ينفرد بتعاطي التدخين في هذا المعتقل الممتد ، رغم انف الضابط الكتلة ..

وعلى ذكر الضابط الكتلة ..هل ان امر الضابطة الشقراء مايكا يجري بمعزل عن علمه ؟ ؟ وهل ان اللطمات اصابت بوداود خارج علمها هي ؟ ام انه توزيع ادوار متقن ودقيق ؟ .

ايقن بوداود انه ليس في وسع الفكرة التي عرضتها عليه ان تستقر في خلده ، ليس محبة في الفرنسيين و لا استخفافا بمكانة وجمال مايكا ، ولكن لانها عمل غير محبب اليه ، صحيح انه سمع دائما عن براعة جميلات الالمان في التجسس وايقاعهن بضحاياهن عن طريق فتنة الجمال ولطف المعاملة معا والذكاء المفرط والروح العلمية العالية ، لكنه لايزال فاشلا في ترويض نفسه على قبول هذه الدعوة ولو مبدئيا ، ولانه لايامن عواقب مجابهة مايكا برفض صريح منه ، فاذن عليه ان يتبنى فكرة وسطا وهي الممانعة الناعمة ليكتشف مدى تنازل هذه الشقراء عن مفاتنها وتضحيتها في سبيل مطلبها هذا ،وفي هذه اللحظات الحرجة بالنسبة اليه زاره ضيف قدم من بعيد كما لو كان يلومه على افتتانه بالضابطة الشقراء وانشغال وجدانه بها الى ابعد حد.فرحب بهذا الزائر الخفيف الظل الذي لم يكن سوى طيف ذهبية واخذ يحادثه او يستشيره او يستنصحه في ما عساه يصنع ، لكن ذهبية بخلت بالوداع كما بخلت بالحديث قبل ذلك و " علي " صرف نظره عن نقل اخبارها الى بوداود وكأن هذا لم يعد يهمه في شيء ، هل تزوجت ؟ وممن ؟ واستعاد كلمة العم بوجمعة :

ــ حاول ابن القائد الزواج منها لكن صهره

والد زوجته الحالية (غزالة) وهو اعظم القياد

حظوة لدى المتصرف المدني هدد بالانتقام ،

فاثنى ذلك ابن القائد عن طلب يد ذهبية

فاختار هذا الاخير تزويجها من حارسه الابله ..

وعلى مضض ابتسم بوداود.

القسم الثالث

الفصل الحادي عشر :

جسدعلى بياض:

قضت ذهبية ليلتها تلك وهي في منتهى السعادة ، فالى جانب تاكدها الان من استعدادها النفسي للقبول بابن القايد زوجا او خليلا حتى ، ربما كان هناك شعور اخر اخذ ينمو بداخلها تلقائيا ولو انها لم تتفطن اليه ولا تعمدته ، وهو شعور الانتقام من بوداود ذلك الذي لم يعد يهمها امره الى درجة انـــــها لاتسال عن ظروف الحرب ، ولاعن حياته او مماتـــــــه فيها..وخيل اليها انها لاول مرة تعيش لحظة شعـــــــــور بالاستغناء عن بوداود نهائيا فان ابن القايد هو اخر عربة في قطار حياتها ، ان هي لم تسارع بالصعود الى متنها ، فستلفظها المحطة عانسا شوهاء..

ثم تتساءل في قرارتها هل ان وعد ابن القايد بتعويض حصان والدها هو ما شكل كلمة مفتاحية سحرية لانفتاح قلبها على مصراعيه تجاهه ؟ بل وجعلها تسلمه شفتيها في رضوخ تام كمومس محترفة ..؟ صحيح ان مشهد عربة الحصان النافق وقد صارت ملقاة بزاوية المنزل مشهرة العمودين ساكنة العجلتين، كان مشهدا محزنا غالبا ما اجهشت ذهبية بالبكاء لوقعه في نفسها الرقيقة رافة بابيها الذي لزم الصمت منذ ان افتقد حصانه كما لو انه دخل في حداد مفتوح ، لكن ذهبية لم تكن في يوم ما ممن يجرفهن الاغراء تحت أي ظرف من الظروف فكيف بها تتهاوى من شموخها ؟

استيقظت رملية فجاة لسبب ما ولما نادتها ذهبية ادركت ان الفتاة لاتزال ساهرة فقالت :

ـ فيم تفكرين ؟

ـ في كل شيء وفي لاشيء ..

فضحكت رملية وقالت بصوت لما يتخلص من اثر النوم بعد :

ــ لعله الشمام(الابله) وقد حان دوره ..

ــ ولماذا تحاشيت ذكر صاحبه ؟

ــ اذن فهمت . خشيت اننا عدنا الى بوداود ..

ــ اطمئني فقد دخلنا زمنا اخر ..

ولم يمض طويل وقت على رملية حتى استانفت نومها ، تاركة ذهبية تسبح في شبكة نسجها الظلام الذي يلف المكان ، من التساؤل والنفي و الترجيح ، لكن فات الفتاة الحالمة ان تسال نفسها ان كان لقاؤها الجريء بابن القايد قد خلف اثرا ما في نفسه ، فهي لم تحصل منه على اية كلمة او اية اشارة يمكن ان تفهم منها اكثر مما فهمته منه رملية و (الابله) اثناء اللقاء ، باستثناء الحركة التي اقدمت عليها شفتاه في لحظة هاربة ..

لكن تلك الحركة ولو اعتبرتها عابرة لم يظفر بها بوداود طوال سنين حبه لذهبية ، حتى مخاطبتها كان يتجنبها خوفا من ان يثير غضبها او ان ترصده عيون القرية وهي تعيش في اقصى حالات الانتباه لسلوك كهذا، من هذه الزاوية كان بوداود في نظر ذهبية مثيرا للشفقة تماما كما صار في نظر محمود ايام ثكنة مدينة الراس..

لقد كان حبه هادئا لاجرأة فيه ولامفاجاة ولاتدري ذهبية اتمدح هدوءه المفرط هذا ام تنعيه لخلوه من الاقدام .بل ان حال بوداود بالنسبة اليها لشبيهة بحال ابن القايد اذ كيف تيقنت من حب بوداود لها في غياب أي كلام بينهما ؟ الم يكن هو الاخر حبا من طرف واحد ؟ قد تقول بذلك لولا ان الخالة رملية هي من كانت تنقل اليها تباريح بوداود التي كان يفضي بها الى صديقه محمود ابنها ، ثم لماذا تستمر في هذا الاستطراد الذي يوحي به الليل ؟ هل هي في حاجة الى مزيد من العشاق كاية فاتنة ؟ لم يبق الا (الابله) لكي يمر بساحة قلبها ، وابتسمت وهي تستعيد هيئته حين رافق ابن القايد في زيارته للخالة رملية ..من يدري فقد يكون عاشقا. اذ مادام الاخرون لا يصرحون بحبهم لها فما يمنعه من ان يحبها بدوره حبا كاتما للصوت ؟ كادت تؤكد لنفسها هذا الاحتمال ايضا .ولو ان هذه الخاطرة اضحكتها فعلا ، ومر بخلدها محمود ابن الخالة رملية الذي لم يعد حديث الزواج يسكن خرائطه منذ ان اصرفته ابنة خاله الصواف في شديد لهجة حين جاءها خاطبا :

ــ ابنة المدينة لاتعيش في الريف ..

ومحمود ـ حسب (علي) اخي بوداود في اخر زيارة له قبل ان يغادر مستشفى مدينة الساحل ـ قال ما رددته بلدة الثيران ولا تزال : ((نحن بصدد الالتحاق بالقوات شرقي فرنسا ..واذا امد الله في عمري لن اعود الا بفرنسية او باحدى السبيات الالمانيات..)) وفهم القرويون كلمته على انها نكاية في ابنة خاله الصواف واعتزمت ذهبية ان تسال رملية عن رأيها في كلمة محمود تلك اذا كان الصباح ..

لكن الصباح جاء بموجة نفسية مغايرة اجتاحت وجدان ذهبية واعصابها ، اذ اذهل رملية كلام الفتاة وهما تتناولان قهوة الصباح ، لقد زايلها هدوؤها صارت عصبية نادمة رافضة حانقة كل ذلك عبرت عنه حينما صاحت وهي تمسك بشعرها بقوة :

ــ ماذا جرى لي البارحة امام ابن القايد ؟

هل كان يتابط تميمة جلب ؟ ام انه

من قوة الشخصية بحيث اخرسني اخضعني .اهانني

الى درجة انه قبلني ؟؟؟

ولما حاولت رملية ان تتكلم سبقتها الى القول :

ــ هل هناك رجل يمكنه تقبيل ذهبية ؟ اية معرة لحقت بي؟

وظلت رملية تتاملها في صمت وذهول وقد شكت في سلامة عقلها حين استطردت:

ــ ما الفرق بينه وبين بوداود؟

وكادت تضيف : لكم كانت ابنة الصواف اشرف مني حين ردت يد ابن عمتها محمود لمجرد انه (...) متحججة ظاهريا بمسالة الريف والمدينة ، لكن ذهبية خشيت اغضاب رملية ان هي قالت ذلك لان الامر يعني ابنها محمودا ..

ولم تكن ذهبية تدري ان مسالة تصريحها بتقبيل ابن القائد لها ليلة البارحة اوقعت رملية في حيرة بل وفي غضب ايضا ..بحيث لم تشعر وهي تقول :

ــ وفعلها في منزلي ؟

ونظرت اليها ذهبية معجبة وهي تشك في صدق انزعاجها

ثم وفجاة غادرت منصرفة نحو منزلها بشكل اوحى لرملية انها لن تعود اليها اذا كان المساء ، حملت خواطرها المتاججة المضطربة واختفت عن ناظري رملية التي احتمت بالصمت حتى لا تثيرها اكثر، والشيء الوحيد الذي احتفظت به ذهبية في نظر رملية هو جمالها كل جمالها ..

واثناء الطريق غيرت اتجاهها نحو جمعة ابنة العم بوجمعة التي لم تزرها منذ ازيد من شهر تقضى ، ومرت بالدكان حيث كان العم بوجمعة منصرفا الى شرح ظروف الحرب وملابساتها كاستاذ محاضروبضعة رجال ينصتون اليه في ادب جم :

ـ تدخّل امريكا حسم الحرب

لصالح الحلفاء بعد ان كاد هتلر

يسحقهم .

ودون ان يبش في وجهها او يندفع نحوها بكل ذلك الانشراح الذي عهدته فيه ادارالعم بوجمعة وجهه نحو ذهبية التي ابتسمت وهي تحييه وتساله عن جمعة ،ولم يفت الفتاة برودة الاستقبال التي واجهها بها بل تمنت لو انه حافظ فقط على لهجته التي كان يحدث بها مستمعيه منذ حين ، دون ان يجف صوته ويقطب قائلا :

ــ جمعة بالمنزل ليل ــ نهار ..

ورددتها ذهبية في نفسها وهي تخطو نحو الخلف :

ـ ليل ــ نهار ؟!

هل هو يعرّض بها لانها لا تقضي ليلها بمنزلها ؟ وكادت تتراجع عن زيارة ابنته ايضا غير انها واصلت خطوها في تثاقل والتذمر يعلو محياها وهي تعتلك تلك الكلمة كجذوة حارقة في جوفها ..

ــ ليل ــ نهار ؟!

وفي الوقت الذي ايقنت فيه ذهبية انها فقدت عطف العم بوجمعة ، وعادت اليها بقوة كل شكوكها السابقة في تصرف رملية خرت قواها بل وكادت تنهار لولا ان تساؤلا مفاجئا باغتها فانتشلها من كبوتها ، ما الذي جعل ابن القايد يتمكن من تقبيلها في طواعية منها ؟ كيف حققت له مبتغاه ؟ ألجرأته ام لضعفها امامه ؟ وضحكت على مضض معلقة ((لو انه اقدم ساعتها على اغتصابي لفعل دون ان يواجه مني اية مقاومة ..لقد كنت شبه مخدرة)) ..

ولما بلغت منزل العم بوجمعة وجدت ابنته غير ملمة الا بخبر او خبرين من اشاعات القرية واحاديث ليلها ، كقول " علي" عن شقيقه بوداود نقلا عن محمود انه اصبح اما قتيلا او اسيرا لدى الالمان ، ولم يكن ذلك بالخبر الذي لم يشغل قلب ذهبية فبوداود لاتزال لحبه بقايا عالقة بوجدانها تعرب عن حضورها بين هذا الحين و ذاك ولو تظاهرت بعكس ذلك ، لكن ما شغلها فعلا هو قول جمعة :

ــ يقولون ان ابن القايد اصبح

كثيرالتردد على منزل رملية ..

واجفلها الخبر فارتاعت وهي تسال جمعة :

ــ تقولين " اصبح " ؟ او لم يكن

يزور الارملة من قبل كما اخبرتني ؟

وضحكت جمعة وسالت ساخرة :

ــ وما الذي يشده اليها ؟

ــ واذن ؟ا

ــ اعني ما الذي قد يدعوه

الى زيارتها قبل وجود ذهبية عندها ؟

وانتهرتها بقسوة صارخة :

ــ جمعـــة ؟ا

وانهت بكلمتها تلك ضحك جمعة التي قالت :

ــ لكم صرت مجنونة بعد ان كنت اعقل فتياتنا

فانا ابلغك كلاما سمعته لتاخذي حيطتك فقط

كانت جمعة لم تنه حديثها حين اخذت ذهبية تتحفـــــــــز للانصراف ، وهي تقول كما لو انها تختتم لقاءها بزميلتها :

ــ هذه قرية لاهم لها الا ذهبية

انهيتم معي شوط بوداود لتشرعوا

في شوط ابن القايد ..

وفي اثناء طريق عودتها من عند جمعة احست ذهبية ان ما بلغها من هذه الفتاة لا ينطوي على ما يدعوها للتفكير فيه ، فهو مجرد اتهامات مبطنة ، وهي تعرف قرية الثيران ومن ثمة فكل شيء كان متوقعا ، انها الان تسال نفسها هل عليها ان تعود الى منزل رملية ليلا ام تلغي صفحة هذه الارملة كليا من حياتها ؟ ، وكجرح غائر عاودتها مسالة القبلة اللعينة التي سجلت على شفتيها سهوا من طرف ابن القايد ، فاخذت تتحسسهما بلسانها وكانها تمحو بقاياها.لكن مقتها

لابن القايد تراجع بمجرد ان وقعت عيناها على هيكل العربة الملقاة على الجدار الخارجي للاسطبل مشهرة العمودين ساكنة العجلتين،

ترى ما الذي يحدثه مشهد هذه العربة في نفس ابيها بوحجلة وهو يمر بها يوميا ؟ لاشك ان قلبه لينفطرحزنا وكمدا ، لكن هل مسالة الحصان ترتبط بالقبلة في تفكير ابن القايد الى هذا الحد كما ارتبطت في تفكيرها ؟ ربما ، وفي حزن اجتازت المشهد الحزين وولجت المنزل وكان اول ما استقبلها بالردهة القريبة من الباب وجه رملية التي ابتسمت اختبارا لما اصبحت عليه الان نفسية ذهبية ، فردت الابتسام بل ورحبت بالارملة التي قالت :

ــ اذهلني خروجك على تلك الصورة

فهرعت في اثرك ..

فاومات اليها ذهبية بعينيها أن اسكتي ، لكيلا تتفطن والدتها الناعسة الى فحوى ما سيدور بينهما من حديث ، فقالت الناعسة التي جاء صوتها من المطبخ الضيق :

ــ ولكن اين كنت ؟

ـ كنت عند جمعــة طبعا ..

وقالت لها رملية هامسة وهي تضحك :

ــ ستعودين معي بدون شك ؟

فضحكت ذهبية كأن شيئا لم يكن وقالت :

ــ عودة الناشز ..

وعلا صوت ضحكيهما معا الى ان بلغ الناعسة التي ابتسمت دون ان تقف على فحوى ما يجري بينهما من حديث ، كانت نفس ذهبية قد اخذت تستانس بوجود رملية ، ولذلك قالت لها :

ــ خالتي رملية ..انا احبك ..

فاستانفت رملية ضحكها وهي تقول :

ــ لكن حين يغضبك الاخرون

لا تنتقمي مني .فانا لاذنب لي ..

وبتسامحها المعهود قالت ذهبية :

ــ اطمئني ليس هناك من يغضبني

ما دمت في حماك ..

فادنت رملية فمها من اذن ذهبية وسالتها دون ان تنهي ابتسامتها :

ــ ولا حتى ابن القايد ؟

وهزت راسها في غنج الحسناوات وقالت مبتسمة :

ــ ولا حتى ابن القايد.

واخفت عن الارملة ما ابلغتها به جمعة عن مسالة زيارة هذا الرجل الى منزلها حتى لا تغضب هذه او تغيرمن سلوكها معه فذهبية تريد لتجربتها ان تستمرلانها تنطوي على المثير و على الجديد بالقياس الى ما كانت عليه من حياة رتيبة يعشش في ثناياها الفراغ المهول بل والضياع الذي اخفى ملامح مستقبلها.

واستغلت رملية ما توجد عليه ذهبية في هذه اللحظات من مزاج رائق وهدوء خاطر وبشاشة لتنقل الى الناعسة وعد ابن القايد بتعويض الحصان الذي نفق .فكادت هذه تزغرد فرحا وهي تقول :

ــ اية بشرى سعيدة سيتلقاها بو حجلة ؟

ذلك في حين اكتفت ذهبية بالابتسام تعبيرا عن رضاها ، ورملية تقول :

ـ وهل يتصرف ابن القايد

الا كقايد يا الناعسة ..؟

ونظرت اليها ذهبية كما لو ان لهذا المديح علاقة بها . بل وقالت :

ـ ان منظر العربة وهي مهملة

ليحز في النفس حقا يا خالتي رملية ..

ورحبت رملية بكلمة الفتاة ليس لانها تنم عن حقيقة متفق عليها فحسب ولكن لانها ايضا صدرت عن ذهبية بالذات ـ فقالت :

ــ قريبا سيستانف سي بوحجلة عمله .

ومرة اخرى اعربت الناعسة عن فرحتها وهي تشرح لرملية ما وصل اليه وضعهم من حيث المعيشة اذ لولا سعة صدر العم بوجمعة الذي فتح دكانه في وجه بوحجلة مؤجلا تسديد ديونه في كل مرة ، لكانوا في عداد المتسولين وما اكثرهم .ورقت رملية لحال الناعسة لانها تذكرها بما كاد يصل اليه امرها هي الاخرى قبل ان يصبح محمود ذا مرتب .

كانت رملية قد تناولت طعام الغذاء مع الناعسة وذهبية ، وقد حضر بوحجلة عليه هندام رث يعكس حالته النفسية المتازمة قبل ان يختفي باحدى زوايا السكن المتواضع ، وما ان شيعت ذهبية الخالة رملية نحو الباب حتى بادرتها هذه بقولها مبتسمة :

ــ سيزورنا السيد الليلة ..

وطارت من ذهبية ضحكة مدوية وهي تقول لها :

ــ هل وفد عليك البشير(تعني الابله)

ــ طبعا ..وسانتظرك..

واردفت رملية متسائلة :

ــ المسكين..تعاملينه كما لو انك

متنصلة من خطبته :

فانفجرت ذهبية ضاحكة وهي تقول :

ـ اطمئني لسوف اتركه احتياطيا ..

بكل اطمئنان القت رملية بكلمتها تلك على خطورتها دون ان تخشى ثورة من ذهبية وكأن الارملة اكتسبت خبرة واسعة وموثوق بها في التعامل مع نفسية الفتاة .اغلقت الباب خلف رملية وعادت محمولة على انشطار في تخمينها ما لبث ان استولى عليها بين انتظار موعد اللقاء و التفكير في البقاء ببيتها دونما حاجة لهذا اللقاء ولا لدار رملية معا..

كان الخوف الذي يعصف بها يستند الى حقيقتين مرعبتين . كلام الفتاة جمعة اثناء الصباح وخشية ما سيوصلها اليه انقيادها لابن القايد . وكعادتها وجدت اطمئنانها في عامل الزمن ، اذ لا يزال الوقت مبكرا قبل اتخاذ الخطوة التي عليها ان تخطوها .و على أي حال لقد انستها هذه الحركة التي رمت بنفسها فيها تلقائيا بوداود وحبه الساكن الميّت المميت فجسدها الذي يفور حيوية وتدفقا لايمكنه العودة الى الركود كما كان عليه امرها في زمن بوداود.انها تود ان تعيش الحياة ولووفق ما تختاره لها الحياة ايضا.ستغادر اذن عالم بوداود بما فيه شقيقته ضروى تلك البدينة القصيرة الشبيهة بشجيرة الضرو التي كلما رات ذهبية الا وجن جنونها وحسناء بلدة الثيران من الذكاء بحيث تعرف ان تلك الشجيرة الممتلئة شحما تتناولها بكلام مسيء مع جمعة رغم ان هذه تحب ذهبية ..

فذهبية حتى وهي تصرخ في وجه جمعة منذ حين كانت في الواقع تمارس لوما موجها لضروى لان ابنة العم بوجمعة لا تردد الا كلام هذه البدينة ..وتذكرت قول جمعة :

ــ فانا ابلغك كلاما سمعته لتاخذي

حيطتك فقط ..

وضحكت ذهبية في غيظ متسائلة ، كلاما سمعته جمعة ؟ وممن تسمعه ان لم يكن مصدره شجيرة الضرو المنحطة القوام ؟ ..لكن ما الذي يعنيها من ذهبية ؟ هل لانها رفضت شقيقها بوداود.؟ ام هي الغيرة من جمالها الذي تتحدث عنه ركبان القرى واسواقها؟

وامام الغضب الذي يجتاح وجدانها اصرت ذهبية على عدم التراجع ستذهب في طريقها هذا طريق ابن القايد و الابله لكن بثبات وروية ..لن تندفع لن تعرض جمالها مقابل أي شيء .. لكن..لكن.. استدركت وهي تقضم ابهامها باسنانها انها تخشى ان تاتي عليها لحظة ضعف في غمرة هذه المغامرات فتقدم جسدها على بياض لهذا الغول الشره جنسيا فعلاقتها الجديدة لا مكان فيها للعفة على ما يبدو عكس علاقة بوداود لامكان فيها للتباريح القاتلة للاهات للشوق للسهر للموت البطئ بكل مترادفاته ..انها علاقة الحياة علاقة الحركة علاقة التواصل فلم الخنوع ولم الخوف اذن ؟

مـــــــــــدام ميلين.

جن الليل وابحرت النجوم الى مرابضها منساقة خلف مجراتها ، وغادر الضباط غرفتهم السفلى التي تبدو من الداخل بيضاوية الشكل ، وهي من الاماكن الباعثة على الاطمئنان من ناحيتين كونها الغرفة التي تتفاعل بها الاستعلامات البالغة السرية ، صدورا وورودا ثم ولانها من المباني ذات الخرسانة الشديدة الخصوصية المضادة لاي قصف جوي محتمل ككل حيز ذي اهمية في المعتقل ..

غادروا الغرفة المميزة يتهادون في خطو متقارب الايقاع يعبر عن شموخ يحسنه الالمان في ازمنة عزهم ، ليلتحقوا بنادي الضباط القائم كقلعة مهيبة على الزاوية الاخرى ، حيث سيشرعون في تناول وجبة العشاء التي جهزت على مناضد مزدانة بباقات زهر وقد امتدت على سطحها زجاجات خمر بدا بعضها ذا عمائم بيضاء لافتة.. .

وبدخولهم كانت مدام ميلين. وهي اجمل الاسيرات الفرنسيات ، تقترب من انهاء عملها الصباحي .بحيث شارفت تهيئة الاطباق والصحون ووضع الملاعق والسكاكين على الاختتام، ثم مسحت العرق المتصبب من جبينها وقد ظل محياها المتوهج يعكس حيويتها كامرأة من بنات العقد الثالث ، واضحة الشقرة ، متينة المعمار، لم تفلح نوائب السجن في طمس حقائق جمالها الفاتن ولا الحد من تسابق العيون على الارتواء من رونق وجهها..انها تمثل مدرسة اخرى في الجمال غير تلك التي تمثلها مايكا بامتياز فهي ليست ابنة البحر مثل شقراء المعتقل الحربي بل انها ابنة الانهار ابنة بلدة في الريف الفرنسي شطت عن البحار شمالا وجنوبا وكل ما في الامر انها ممن اقتبسن ملامحهن من خرير نهر الراين ككثير من الفرنسيات و الالمانيات ممن يتعايشن مع ضفاف هذا النهر العظيم ..

فشقرتها المميزة لم تكن من الشدة بحيث تضفي على بشرتها نوعا من مهق اومن نموصة قد يطمسان حواجبها وجفونها اللذين كانا من ابرز عناوين جمالها ، عكس ما تركنا عليه الحال في صورة الفتاة ماري مثلا..

ذلك فضلا عن لطافة انفها الذي توازنت ارنبته في انحدار غير مجحف لتطل على ثغر دقيق الشفاه تحاشت هندسته الاتساع بينما امتد جيدها قضيبا من ذهب وهاج ، لقد كانت قسمات وجه الاسيرة الفرنسية من الروعة بحيث تجبر الناظر اليها على الحضور بكليته دونما انفلات ومن هنا كان السر الذي جعل منها محط انظار الجميع حتى اولئك الذين ينكرون على الفرنسيين اي فضل او اية ميزة كقائد فرع المخابرات برونيكو و الجنرال لانج عشيق فسترمان الذي انصرفت عيناه تلقائيا نحو مدام ميلين اثناء دخولها جناح المرقص لغرض يتعلق بالنظافة ..

وهي من مقاومات الريف الفرنسي الشرسات ، الى ان القي عليها القبض فخصها الالمان بوقت اضافي من الشقاء المطبخي والاعمال الشاقة ، بعد ان تاكدوا من ريادتها لعمليات اخفاء الاسرى الفرنسيين الفارين من المعتقلات الالمانية ، وتسهيل عودتهم الى التراب الفرنسي ..

في هذه الليلة تزوت الفرنسية الفاتنة جانبا دون ان تجرأ الا على استراق نظرات مترددة متحفظة الى الضباط الالمان ..نظرات كسرها الاحساس بالمذلة والهوان اللذين اصابا الكبرياء الفرنسي في مقتل ..اذ ما خطر ببالها يوما انها ستقوم على خدمة ضباط من غير جنسيتها بكل هذا الخضوع وهذه المهانة ..

صحيح ان هناك من بنات الضفة الجنوبية للبحر الابيض المتوسط من غير الفرنسيات ، من يخدمن ضباطا فرنسيين و ربما احسسن هن الاخريات بنفس المرارة والشعور بالاتضاع ، ولكن ان ترهقك الذلة وانت فرنسي فهنا الامر يختلف في نظر مدام ميلين..

وكما جرت العادة لم تكن هي الاجنبية الوحيدة بالمطبخ الذي كان يتسع الى ردهة ذات سقف من زجاج سميك تقوم مقام حجرة طعام ، بل كان الى جانب مدام ميلين مجموعة من زميلاتها الاسيرات ممن يسهرن على تنظيف تلك الردهة رغم اتساعها الى غاية منتهى الرواق المفضي الى مرقص النادي بكل توابعه من دورات مياه ، وغرف ملحقة ، وكل هذا ياتي تكملة لعملهن المطبخي الذي يزاولنه كقيامهن بمقدمات عملية الطهي مثل تقشير الخضر وتنظيم الفواكه ضمن قفف الطاولة ،وغيرها تحت اشراف عمال المان محترفين وعلى راسهم الطباخ البدين تريسكو الذي ينتهي نفوذه في الواقع في حدود المطعم ، تماما كما يشرف الفتى الانيق كارل على الحانة ، وللمرقص هو الاخر رجاله ، وهكذا ..

اخذ الارهاق يدب في اوصال مـــدام ميلين، فهي تبذل من الجهد اليومي ما يفوق طاقتها ، في حين كان يسمح لزميلاتها بالانصراف في اوقات معينة بحيث لا تبقى في معترك العمل الشاق الا هي ومـــدام كارول جارتها وشريكتها في المقاومة ايام الريف..

وعلى الرغم من هذه الشدة في المعاملة باتت فاتنة الريف الفرنسي تحس بنوع من الشعورالمجهول ازاءها يغمر بعض رؤسائها المباشرين والمتعاملين معها ، وقد صارحت كارول بانها لاتعرف كيف تسمي شعورهم هذا فهو ليس معاملة بالحسنى كتلك التي اوصى بها المسيح ولا تسامحا حتى ..فقالت الجارة كارول ضاحكة :

ـــ انه جمالك ..ونحن نتفيأ ظلاله ..

.فور ولوج الضباط بوابة غرفة الطعام ، اشتدت حركة الاسيرات والعمال وقد بدوا بمأزر وطاقيات بيضاء كما لو انهم خلية تمريض ساعة اجراء عملية جراحية ..

وبالفعل فقد كانت مدام ميلين التي لطالما فتح جمالها شهية الاسرى بحكم حرمانهم الجنسي ، محط انظار المان كثيرين ، ككل امرأة جميلة بطبيعة الحال ..غير ان الطباخ تريسكو كان اكثرهم جرأة على التحرش بها مستغلا حالتها كمرغمة على قضاء اوقات اضافية بالمطبخ الى جانبه ..

والواقع انها استمرت في التمنع ، مع علمها المسبق بمدى ضيق مجال الممانعة في ظل ظروف كالتي تعيشها ، وتكمن علة رفضها في احساسها بان ما يدعونها اليه هولمجرد اذلالها كفرنسية وليس حبا فيها او انجذابا لجمالها

اما مدام كارول فانها وان لم تطلب الى زميلتها الانصياع الى المتوددين والراغبين في جسدها ، فقد ظلت توصيها بعدم اللجوء الى صدهم باي وجه من اوجه العنف . حتى لا ينعكس ذلك عليها بردات فعل تجعل معاملتهم لها اقسى مما تعانيه الان ..

كل هذا تدركه مدام ميلين التي يشغل بالها ايضا امر زوجها الذي تجهل خبره منذ الهجوم الالماني على بلدتهم الحدودية الصغيرة ..

تفطنت الى انصراف الجنرال متلرقائد حامية المعتقل.وقد غادر النادي مبكرا كعادته فور فراغه من تناول طعامه . بينما تحرك بقية الضباط نحو جناح السمر الذي تتصدره حانة معزولة باحدى زواياه وقد انفصلت عنه بجدار نصفه زجاجي ، ويتوسط جناح السمر هذا مرقص دائري الهندسة ، ينتهي الى ما يشبه منصة او ركحا مسرحيا ذا علو بسيط .وقد اخذت تشنف اسماعهم انغام ذات طابع سيمفوني تنبعث من واجهة الحانة ، سرعان ما ادرك الجميع وبمجرد دلوفهم انها احدى روائع الموسيقار العبقري فاجنر ..

ففاجنر لا يحتل مكانة مميزة في الذوق العسكري الالماني كموسيقار عالمي طبقت شهرته الافاق فحسب، بل ولانه الفنان المفضل لدى الفوهرر ذاته . ومن ثمة فالهيام بروائعه الخالدة يعد من شيم الوعي الفني النازي ..

تحت جلجلة الانغام تقدم الضباط ليفاجأوا بالجنرال لانج..وقد سبقهم الى الجلوس على احدى ارائك المرقص . والى جانبه مساعده.وما ان دخلت فسترمان الى رواق المرقص حتى بشت في وجهه من بعيد منتظرة من باب اللياقة العسكرية مرور الجنرال برونيكو ، والعقيد مايكا امامها .. ورمقتها هذه بنظرة ذات مغزى مرفقة بابتسامة تعاطف وتشجيع كما لو انها تهنئها بمناسبة حضور الجنرال لانج .

فمايكا منذ ان صارحتها فسترمان(اوالتركية)، بمدى وثوق العلاقة العاطفية التي اصبحت تشدها الى هذا الضابط السامي الوسيم وتشده نحوها ، تدرك سر زياراته الليلية الى المعتقل الحربي رغم ان ارتباطه بهذا المكان ليس مهنيا ، لانه قائد فرقة دبابات متمركزة قريبا من المثلث الحدودي الالماني/ الفرنسي/ السويسري ، وهي الفرقة التي غالبا ما كانت مبعث فخره باعتبارها ملحقة بفرق البانزر ، نخبة الجيوش الالمانية على الاطلاق .

حيا قائد فرقة الدبابات الذي قام احتراما. حيث خاطبه الجنرال برونيكو :

ـــ اهلا ..حضرة..لقد توقعنا وجودك..

ـــ اهلا .. تحياتي ..

اخذ الجميع اماكنهم بشكل تراتيبي اللواءان لانج و برونيكو،. فمايكا. ثم اخرون ..وبعيدا منهم ظلت نينا تحادث النقيب كلارا التي لم تتعجل الجلوس لامر ما ..

والى الجانب المقابل جلس ضباط ملحقون بفرع المخابرات ومساعد الجنرال لانج الذي فضل تغيير موقع جلوسه ..واضطر اللواءان لانج و برونيكو في هذه اللحظة الى الوقوف ترحيبا

بمدير المعتقل وكان هو الاخر برتبة لواء، فاسحين له مكانا للجلوس بينهما ..

اسلم الجميع اسماعهم الى انغام فاجنر وهي تتموج في الافاق راسمة منحنيات هولامية من الاخيلة في النفوس لتعايش تيار الزمن ككل فن سمعي..

وامام ثقل الصمت الذي خيم على الضباط اهتز جسم كلارا متجاوبا مع الايقاع البطئ فما كان من نينا الا ان سايرت رغبة زميلتها وهي تدعوها الى حلبة الرقص جهارا ..

كانت النقيب كلارا ممتلئة البدن في غير ترهل .بيضاءالبشرة وقد قص شعرها الى ما فوق عنقها . عكس نينا النحيلة . الطويلة القامة . التي بدت تضاريس وجهها لهزالها ..

وتعليقا على انسجام هذا الثنائي الراقص سارعت فسترمان بالنظر الى مايكا التي نحت كأسها جانبا لترد بابتسامة عريضة ..كانت كلتاهما تعرف عن كلارا غريزتها المثلية الجموحة ، التي لاتطفئها الا نينا كشريكة سرير سرية ..ومن هنا تعاظم الرابطة الجنسية التي تجمع المرأتين ..

والعارفات بسر كلارا ، وهن قلائل ، يدركن انها امرأة محظوظة اذ لو تجاوز سرها الرهيب الوسط الضيق المتعاطف معها من الزميلات لصارت ربما في عداد نزلاء احد معتقلات التركيز والتكثيف او باوشفيتز ذاته الذي يشكل المثليون نسبة عالية منهم . لان المثلية سلوك منحط في نظر الفلسفة النازية ، ومن ثمة فهو فعل مجرم ..

اجل . ان كلارا لمحظوظة وقد تجلى حظها في كون فسترمان لم تاخذ شذوذها ماخذ الجد وبالتالي ما كانت لتشي بها الى رؤسائها ، اما مايكا فبالرغم من ان فعل كلارا يظل انحرافا اخلاقيا شنيعا في نظرها فان انحيازها الى فلسفة القلب جعلها تلتمس بعض العذر لهذه المرأة التي لايصرف شبقها عن اجساد بنات جنسها أي وازع ..

اما كلارا فلم تعبأ لكل هذا النقيق الذي يدور من حولها بشان لذتها. فهي قد خلقت للذة كما تعتقد ولذلك فهي تطارد كل جسد انثوي غض. وقد اتاح لها المعتقل باحتوائه على اسراب من الاسيرات الفرنسيات والبلجيكيات والدانماركيات و فاتنات بولندا وغيرهن ، غنيمة اضافية هائلة وما عليها الا ان تختار ضحاياها بكل حذر واقتدار ، ومن هنا وبطبيعة الحال ، وكامرأة ذواقة ،ادخلت كلارا ، الفاتنة ميلين في خطة صيدها رغم ان هذه الاخيرة لاتزال تركب راسها مدعية انه لم يسبق لها ممارسة مثل هذا الفعل غير الطبيعي بالنسبة لسجيتها السوية ..

تقضى بعض الوقت . انصرف فيه خيال كلارا الى التفكير في اسيرات المعتقل الحربي وقد اخذت تفاضل بين جمالهن ، وهي تواصل الرقص الى جانب زميلتها نينا ، ولم يفتها وثوب الجنرال لانج من مكانه معتذرا لزملائه بالانصراف نحو فسترمان التي كانت تختلي الى ما تبقى بكاسها في صمت وتلهو بمفتاح بين اصابعها انها لتبدو لزميلها وهو في طريقه اليها وقد جللتها هالة انوار المرقص بمختلف الوانها ، اقرب الى فتاة تركية فعلا منها الى فتاة المانية . سواء من حيث شدة سواد شعرها وحاجبيها ورموشها او من حيث بنيتها الجسمية بوجه عام ...رغم انها من اصائيل الكولونيات ، فهي ابنة كولونيا ، مدينة العطور والاناقة انها غير شقراء . والشقرة ليست بالدمغة الوحيدة للالمنة ..هكذا علق الجنرال لانج وقد اقترب منها وهي تسارع الى وضع كاسها على المنضدة التي امامها ، وتقوم في ادب جم قائلة وقد تحركت شفتاها في ابتسام : .

ـــ حضرة اللواء.. هل علي ان أؤدي

تحية عسكرية ام اكتفي بعناقك فقط ؟

فقـــال قبل ان ينحني ليقبلها :

ــ كليهما معا.. فالتحية واجب عسكري

والعناق واجب لادري كيف اصفه ..

وتقدمت نحوه ضاحكة وهي تقول :

ــ بل صفه بانه واجب وجداني ..ياجنرال..

وحيته بالاثنين معا كما قال. حريصة على جلوسه قبل جلوسها

فالرجل جنرال مهما كان نوع العلاقة التي تربطهما..

ولما عادت الى مكان جلوسها قالت محتفظة ببسمتها وهي تمسك بيده في لطف محبب اليه :

ــ كيف تجبرني على أداء التحية

اليك ، حتى بعد ان صرت حبيبي ؟

قال وقد انصرف نظره كلية اليها في اهتمام دون ان يلقي بالا لرقص كلارا او نينا :

ــ ان استخفافنا بشكليات الاشياء

سيؤدي بنا حتما الى الاستخفاف

بجوهرها ، يا فسترمان ..

وهزت راسها ان صدقت ، وهمست :

ـ اعترف انني اقل من ان احاجج

الجنرال لانج او مايكـــا..

ثم تحدثت في اول الامرعن موسيقا فاجنرالتي لاتزال احدى قطع اوبراه تشنف الاسماع ، وعن مايكا وعما لم تر فيه سرا من برقيات الصباح . والجنرال يصغي في صمت الى ان خيل اليها انه لايشاركها سمرها فقالت بنبرة اقوى :

ــ لانج..ماذا حدث؟ ما بك ؟

وزفر. ثم تناول منديلا من جيب معطافه العسكري. ومسح على انفه وهو يقول محتفظا ببعض التذمر:

ــ اعتقد اننا سنغادر مواقعنا .

والتفتت اليه في ذعر ، متسائلة في دهشة :

ـــ لا افهم ... من انتم ؟ واية مواقع ؟

وحافظ على هدوئه هذه المرة مراعاة لمشاعرها وقال وهو يتناول اولى جرعات من كاس وضعها النادل امامه منذ حين :

ـــ مواقع تمركز الدبابات ..طبعا

ـــ الى أي اتجاه ؟

ـــ لاادري بالضبط ربما باتجاه التراب

الفرنســـــي..او لاادري ..

ـــ ولكن موقعكم الراهن موقع استراتيجي

كما سبق وان افهمتني ؟

وضحك في تثاقل :

ـــ ستخلفنا عليه فرقة اخرى طبعا

فنحن لن نسلمه للفراع بطبيعة الحال..

وضغطت على يده في حنان اقوى وقالت :

ـــ اخشى ان افقدك في هذه الحرب

اللعينـــــة..فوضع المانيا لم يعد كما

عهدناه ..

وهز راسه موافقا قبل ان يكمل كلامها :

ـــ.. وحده الفوهرر لايزال مطمئنا

الى ما نحن عليه ..ولا ادري أهو

اطمئنان واقعي ام مجرد تنطع..؟

وعلقت فسترمان شبه مقتنعة :

ـــ انه رجل لايعرف الدوران

الى الخلف .

وقهقه لانج وهو يقول :

ـــ هذا صحيح ..اوليس هو القائل:

((اذا طعنت من الخلف فاعلم انك في المقدمة))؟

وادركت رغبته في الانصراف من قوله وهو يضع يده على ركبتها:

ـــ عليك ان تطمئني يا حبيبتي

فجيوشنا لاتزال سيدة ميادين الوغى ..

رغم بعض الانكسار .. انها المانيا يا فسترمان ..

لكن الجنرال رأى انه من غيراللائق انصرافه قبل خلو كلارا ونينا الى استراحة كما درجت عادتهما ..غير ان كلارا الان وعلى مرأى من الجميع تذوب في عناق مطول لايخلو من لمس خاطف لاعضاء شبه حساسة من جسد نينا النحيل ، ورغم انه سلوك غالبا ما خرج عن قواعد الرقص المعروفة لم يحمّله لانج اكثر من ما ينبغي، لجهله بخلفيات العلاقة بين المرأتين موعزا ذلك الى كون كلارا ربما كانت تفعل ذلك وهي في منتهى الثمالة ..

ثم اعاد لانج راسه نحو فسترمان واخذا يتهامسان فلم يجهض وشوشتهما الا دخول مـــدام ميلين وهي تتجه راسا صوب زاوية الحانة وبالتحديد الى خلف الجدار النصفي حيث يجلس رئيس عمال الحانة او فتى الحانة الانيق كما تلقبه الاسيرات سرا ،وكان في هذه الامسية يرتدي قميصا ابيض موشى بربطة عنق سماوية اللون .وقد حافظ على تسريحة شبه نصفية لشعره . اما وسامته فقد كانت محل اجماع نساء المعتقل اسيرات والمانيات .. وكعادته ابتسم في وجهها وسع شفتيه ، وقال بلغة فرنسية تشوبها ركاكة نطق :

ـــ هل غادر الثور مطبخه ؟

وشرقت بضحكتها وهي تهز راسها ان نعم ..وكان يعني الطباخ البدين تريسكو..

وفي هذه اللحظة بالذات ، استزادت فسترمان من وقت الجنرال برهة اخرى حين عرجت على ذكرفاجنر ثانية بقولها :

ـــ اسمع الى رائعته هاته.. ففاجنر ذو فن

رفيع وممتع..وهو عكس سباستيان

باخ الذي اعطى فنه بعدا دينيا..

فقال لانـــج على الفور :

ـــ تعرفين انني لااهيم بهذه المطولات من

المعزوفات ..فنحن العسكريين ديداننا

السرعة ..انظري الى كلارا كيف انها تتلوى

في تشنج عل حركاتها تتماهى مع الايقاع البطئ

..الرقص حركة و الحركة لاينبغي ان تكون

ثقيلة الى هذا الحد المقرف..

فضحكت وقالت :

ـــ انت اذن ذو ذوق ريفي..فولكلوري..

متسرع..الريفيون عجلى بطبعهم

لان الفن عندهم نوع من قتل الفراغ.

والهروب من الصمت فحسب

وحين ضحك الجنرال كانت كلارا ونينا قد لجأتا الى فترة استراحة. مما اتاح له ان يغادر نادي الضباط بعد ان ودع فسترمان وداع من لا ينتظر لقاء بعده ..وقد انتزعت شفقته حين بللت مقدمات دموع عينيها السوداوين الفاتنتين ..وقالت شبه مرتعشة :

ــ اخشى... اخشى..ان افتقدك ..

تاكد لو حدث انني ساترهب ..

وحتى ينتشلها من حالة حزنها قال :

ــ تترهبين ..؟ بأديرة المـــــانيا ام

تنتسبين الى مساجد الاناضول اقصد استنبول

ايتها التركيـــة ؟

وابتسمت راغمـــــة مجاملة له ..ثم افترقـــــا وكانهما يحيلان مهمة الحديث الثنائي الى مدام ميلين و فتاها كارل القابع داخل جوف الحانة ليتبادلا بعض اللمسات مطمئنين الى علو الجدار النصفي الذي يفصل زاوية الحانة عن بقية جناح السمر..

ــ ربطة عنقك جميلة ..فانا اتعشق

اللون السماوي ..

ويمسح على طاقيتها البيضاء ويقول :

ــ هو لوني المفضل ..انه ذوق مشترك..

اذن ...

فتدنو منه وهي تسمح لاصابعها ان تتجاوز لمس ربطة العنق نحو صدره وعيناها تحاصرانه عن قرب :

ـــ هل من خبر ذي بال اليوم ؟

ويقبّل شفتيها القريبتين منه ويقول :

ـــ استراسبورغ ..؟!

وهي تقبله بحرارة وتستزيده :

ــ ما بها ؟

ــ الالمان بصدد نفض ايديهم منها ..

ــ وكيف ؟

ــ قوة الحلفاء هناك لاتقاوم ..انها ارمدة جهنمية..

وسرها ما سمعت . فاحتفظت بفرحتها في صدرها لتبدو كما لو ان رغبتها في الاطلاع لاتتجاوز مجرد فضول لمعرفة انباء الحرب ،واصغت بكل اهتمام الى فتى الحانة وهو يشكو

حدة الانغام الصاخبة التي غالبا ما يستصعب معها استراق السمع الى الضباط حين يتحدثون عن الحرب وهم على طاولة السمر والشراب وقال باسما :

ــ في الساعات المخصصة للرقص

وللانغام لا تنتظري اخـــــــبارا

يا جميلتي ..فطاقتي السمعية يشلها

ارتفاع صوت الايقاع انـــذاك ..

قالها وقد صارا في وضعية المتعانقين رغم انه لايزال جالسا على مقعد غير ذي مسند بحيث رسمت مدام ميلين انحناءة بهيكلها لتوازي قامته حتى تكون اكثر انسجاما معه ، وقد افرحها الخبر ورأت فيه جديدا بالفعل ، بل واخذت تنتظر موعد انصرافها نحو بقية الاسيرات وكأنها تحمل اليهن بشرى ..وهي بشرى فعلا ..فاقتراب سقوط مدينة في حجم ستراسبورغ بكل رمزيتها ليس بالامر الهين ..

وكانت مدام ميلين قد مكنها جمالها وتهافت الابصار على محياها الأخاذ من استقاء العديد من معلومات الحرب .منذ ان لجأت تحت وطأة ضغوط الطباخ البدين الى الاسرى الفرنسيين وشبه الفرنسيين ، أي ابناء المستعمرات وهي في اقصى حالات التذمر و الغضب كاشفة لبعضهم أمر تحرشه بها ، وفي مقدمتهم العريف اندريه الذي هرع نحو الاسمر، وهو في أقصى حالات الغضب ، وكان هذا قد نصب نفسه بصورة تلقائية رئيسا لتجمع الاسرى ، وصار يتصرف كحكيم وكمشير يعود اليه هؤلاء في كل أمرذي خطر،.فطلب من العريف ان يهدأ لانه استشف أول ثغرة في جدارالسر الالماني الصلب ..فامسك على يد أندريه وهو يقول له :

ــ لايمكن النظر الى القضية من زاوية

الغضب والثأر.. يا كابرال ...بل هنا

يجب استغلال كل ما من شانه ان يستغل..

وأمام جدية كلام الأسمر، تراجع غضب أندريه فاندفع يساله:

ــ ماذا تعني ؟

ــ سأخبرك فيما بعـــد ..

لكن اتركني أتصرف ..

ــ طيـــب ..

ـ ومادام ميليـــن ..؟

وقال الاسمر وهو يسحب يده من يد أندريه كما لو ان المقابلة انتهت :

ـ أترك أمرها لـي ..

وسأخبرك بكل مستجـد

في الموضوع ..يا كابرال..

ولما انصرف اندريه ،علق الاسمر كما لو انه يحادث نفسه :

" لاشرف يعلو شرف القضية المركزية...أيها الاغبياء..ماذا ستصنع ميلين بشرفها اذا لم يسترد شرف فرنسا ؟ ثم ماذا عسى اندريه الاسير ان يفعل في وجه الالمان غير انه سيعرض نفسه لمزيد من المهانة وربما للضرب و التعذيب ؟

وصلت مدام ميلين الى هذه النتيجة بشق الانفس ، انها لتذكر الان خطواتها الاولى البالغة الخطورة التي خطتها منذ ايام. لقد اتقنت لعبتها منذ ان عرفت كيف تستغل تحرش الطباخ البدين تريسكو بها ففي اول الامر اظهرت ميلها اليه مبدية اعجابها بشاربيه وقد استطالا في نظام دقيق لينعكفا في النهاية الى الاسفل كلساني زاحفة غير معروفة ، كما ولم تخف استحسانها لبشرته النحاسية ، ومن هنا اخذت كلما انهمك في خلط المرق باحدى الطناجر الضخمة تمرر اصابعها بخفة على منتهى شاربه قريبا من شفتيه ثم تتثاقل في سحب يدها ليتمكن من تقبيلها او عضها او حتى دلك ذراعها بيده الاخرى ، وتدريجيا اقتنع الطباخ بتصاعد رغبتها معتقدا قبولها بتحرشه ، وقد اصبحت الاشارة تكفي عن اي لغة يقتضيها ترويض الحسناء ، فمما اثلج صدر الطباخ ان مدام ميلين اصبحت لاتجابه مخاصرته لها حين تمر قريبا منه بكل ذلك الجفاء و الاستياء و الحذر الذي كان يشكل ردة فعلها في الايام الاولى ، بل صارت تتقبل مغامراته اليدوية على عنفها احيانا لان هدفها اكبر من كل هذا السلوك ، ولم يكن تريسكو الطباخ نذلا بل قابل تفهمها له وانفتاح وجدانها عليه بسخاء غير محدود فبذل لها من اطايب المطبخ كل نادرولذيذ كان يخص به النادي ضباطه وحدهم ، بل وانتدبها حكما في اعتدال مذاق المرق وتقدير توازن نسبة الملح فيه نيابة عنه وتلك ثقة لم يحظ بها حتى اقرب مساعديه من ذوي الخبرة المطبخية الطويلة ،

كل هذه البدايات مرت بخلد مدام ميلين قبل ان تلتقي الاسمر بعيد السماح للاسرى بالخروج الى البناية الكبرى ايام الاحاد لساعات معدودات ، وحين التقيا بادرته بقولها :

ــ لقد تمكنت من الثور لكنه

يجهل لغتي وانا اجهل لغته

ثم ان معلوماته عن تطورات الحرب

جد محدودة فهو متفرغ للطعام والخمر.

فقال الاسمر بامتعاض :

ـ واصلي فقط انه راس الخيط

الذي لايمكننا الاستغناء عنه حتى الان

ومما ساعدها على التقدم في مغامرتها ان الطباخ لايتعاطي الخمرة باعتدال بعد ان يفرغ من تناول عشائه بل انه يعاقرها بظماء السكير النهم الى ان تهرب الكلمات من لسانه الملتوي فيصل الى كلمة مفتاحية اصبحت تعرف لدى مدام لينين بـــ " الشعار" وهي قوله :

ــ انا ملك المانيا ..

يقولها بتلعثم وهو يشير الى التاج الورقي الابيض الذي يعتمره ، فتدنو منه الى ان تلمس جسده باحدى فخذيها او بصدرها الممتلئ او تمرر ذراعها على عنقه ، ثم تقف امامه وهي تنظر اليه بعينين مغريتين شبه ناعستين وبفم نصف مبتسم ، وعندها يدخلان لعبة الاصابع كما تسميها مدام ميلين ، وهي عبارة عن اشارات رمزية حلت محل لغة التخاطب بينهما لان كلا منهما كان يجهل لغة الاخر ، الى درجة ان ميلين لم تفهم معنى الكلمة الشعار" انا ملك المانيا " الا بعد ان اخبرها بذلك كارل قييم الحانة ..

فعن طريق لغة الاشارة هذه افهمها (الطباخ) انه حين يضع ابهاميه فوق بعضهما فهو يشير الى الحرب على الجبهة الالمانية السوفياتية وان كان الابهام الايسر هو الاعلى فزمام المبادرة بيد السوفيات والعكس بالعكس ، اما ان تعلق الامر بسبابتيه فهو يعني جبهة مصر وشمالي افريقيا ، وعلو السبابة اليمنى يرمز الى رجحان كفة الحلقاء او العكس ، ذلك في حين ان التقاء السبابة بالابهام في شكل نصف دائرة يعني الوضع في فرنسا بحيث تمثل السبابة جبهة الشمال ويمثل الابهام الجبهة الجنوبية ، بينما يضع احدى يديه على تاج راسه في اشارة الى قبعة تشرشل متى كان الامر يعني الانجليز .

لكن رغم ترحيبه بهذا النزرالقليل والغامض غالبا من المعلومات التي تاتي بها مدام ميلين نقلا عن الطباخ فان عامل اللغة ظل يشغل بال الاسمر فالطباخ ليس بشخصية استخباراتية تجيد اكثر من لغة ، ولعل نفس الصعوبة ستواجه خطوته الثانية التي يفكر فيها ولو بدرجة اخف ، وهي توسيع دائرة التقاط المعلومات بدل حصرها في المطبخ ، وللامانة فان مدام ميلين حين ارهقتها لعبة الاصابع غير المجدية ، كانت هي من نبه الاسمر الى محاولة وضع الطعم في حانة النادي حيث المرقص وقنن الخمر التي ستشكل فرصة اخرى لاستراق السمع ..سيما وان الثائرة الحسناء قد حددت رجل المهمة الذي هو الفتى كارل قييم الحانة ، الفتى الذي فسرت نظراته نحوها منذ البداية باشارات تؤكد سهولة احتوائه سيما وانه اقل من الطباخ جهلا بلغة موليير..

ومدام ميلين ليست من الغباوة بحيث تبدي رغبتها صراحة في الوصول الى معلومات على جانب كبير من الخطورة كهذه وبشكل مكشوف ، بل انها فضلت كمدخل لمهمتها استغلال تظاهرالفتى كارل بالتحكم في اللغة الفرنسية لتطلب منه ترجمة كلام سامي الضباط بين الحين والاخر، لقد كانت وسامة هذا الفتى الانيق تدفعها لاستقبال مغازلاته بشكل ارحب من الطباخ فهو في روعها يستحق ان يصير عشيقا حتى خارج مسالة المعلومات لو لم يكن المانيا ..

في هذه الاثناء كانت فسترمان تجلس لوحدها بالزاوية التي تعودت الاختلاء فيها بحبيبها . مما دفع مدام ميلين الى سؤال كارل:

ــ ولكنني لارى الليلة عشيقها الى جانبها ؟

فقال وهو يلامس مقدمة صدرها :

ــ سمعت ان فرقته نقلت الى ضواحي ستراسبورغ

حيث يشتد القتال اثر انزال الحلفاء ببروفانــس ..

واحتفظت مدام ميلين بهذه الافادة لاهميتها في نظرها ..واستمرت في صمتها مبدية انفاسا قوية لتشعر كارل بانها تبادله لمساته التي لاتكف عن اي زاوية من زوايا جسدها الفاتن ، كانت

تغالب فرحتها بدخول الحلفاء الى جنوب التراب الفرنسي ..واستطرد محدثها كما لو انه يكمل معلوماتها :

ـ بعد ازيد من شهرين بقليل عن هجوم الشمال بالنورموندي

يحقق الحلفاء انزالا ببروفانس جنوبا..

ثم استدرك مغيرا مجرى الحديث :

ــ تصفين الجنرال لانج بانه عشيق فسترمان ؟

وضحكت متغاضية عن جولان يده عبر اجزاء جسدها :

ــ وهل جلساتهما الاستثنائية

تعقد للوعظ ام للنصيحة ؟

ـ انت رهيبة يا ميلين ..

ــ بل سجينة.. مسكينة يا كارل ..

وحين دعي كارل من طرف احد الضباط الى خارج الحانة لامر ما ، التفتت مدام ميلين مذعورة خشية ان يكتشف سر ما يبلغها به من معلومات ، ولما لم تلحظ اي مكروه اخذت تسترجع حوارا لها اجرته مع الاسمر رئيس بناية الاسرى كما يسمي نفسه يوم ان لبت دعوته لاستجلاء ملابسات التحرش الذي تعرضت له من قبل الطباخ في اول الامر وادى ذلك الى غضب العريف اندريه واخرين ، ميلين تذكر ان الاسمر نصحها بتهدئة روعها ، مفضلا استغلال هذه الفرصة عوض المجابهة . فسالته غاضبة :

ــ ماذا يعني ذلك ؟هل علي ان اتنازل له ؟

وقال في ما اعتقدت انه خبث :

ــ ليس الى هذا الحد ولكن علينا ان نستلطف

بعضهم لنحصل على معلومات حول هذه الحرب.

ــ وماذا نصنع بهذه المعلومات ؟ هل نحن بجبهة القتال ؟

ــ لنعرف ما ينتظرنا

فمصيرنا مرتبط بمصيرالحرب..

واردف وكانه يشجعها :

ــ ثم ان خبر انتصارات الحلفاء يقوي من عزيمة
الاسرى بما يحافظ على تماسكهم وعدم اختراقهم او

اتخاذهم جواسيس كما تجري بعض المحاولات .

ولامر ما ذكرتها كلمات الاسمر الاخيرة بما يشاع عن بوداود ومايكا ..

وكادت مدام ميلين تبتسم وهي تذكر حادثة لم تكشف للاسمر عنها ، لقد عرضت عليها كلارا ممارسة السحاق بل وهددتها خارج الجناح مصوبة مسدسها نحوها ، لكن لحسن الحظ تصادف تهديدها مع مرور مايكا رفقة فسترمان فما كان من مايكا الا ان عنفتها متوعدة بكشف سلوكها وحذرتها من مغبة ما تفعل ثم التفتت الى مدام ميلين تطمئنها وتخفف عنها ما لحق بها من خوف ، ومن يومها اصبحت كلارا تكبت رغبتها الجموحة مكتفية باطالة النظر الى وجه مدام ميلين حين تصادفها ومن تلك اللحظة ايضا افتكت مايكا اعجاب الحسناء الفرنسية التي كانت حتى قبل الحادثة تقرأ في نظراتها نوعا من الدفء و الامان .

صحيح ان مدام ميلين سمعت من الاسرى عن حكاية مايكا مع الاسير بوداود وشاركتهم تحفظهم من هذا الاخير ، لكن وربما لذلك ظلت تلمس في مايكا نوعا من القبول يضعها في مكانة نصف سجانة ، حتى قبل ان تكون تتوقع منها تلك الوثبة الصريحة في وجه السحاقية اللعينة كما اصبحت تسميها ابنة الريف الفرنسي ، بعيد ذلك اي مساء ذلك اليوم وقبل ان تلتحق بمكانها في جناح السمر عرجت مايكا على الزاوية التي كانت تقف بها الحسناء الفرنسية ، وحيتها بيدها دون ان تتحدث اليها فردت ميلين التحية وقد ازدادت ترحيبا بهذه اللفتة غير المتوقعة، وعلقت في صمتها ، لطالما شكل جمال المحيا مدخلا للخير ..

ولجت مايكا الجناح الواسع تاركة ميلين تتساءل في نفسها هل هي عاطفة بوداود التي تسكن قلب هذه الضابطة قد اصبحت تشملنا جميعا نحن معشر الاسرى ؟ علقت مدام ميلين ولم تشرك احدا في استنتاجها هذا ..لكن رغم كل ذلك اخذت تفكر في كلارا من جديد متسائلة اليست اهون الشرين وانفعهما ؟ فالسحاق قد يكون اقل شناعة من الزنى في نظر ميلين التي ليست لها علاقة بالنازية عدوة المثلية ولاهي من التدين بحيث ترى فيه رايا اخر ، على الرغم من ان السحاق ليس من عادتها ولا من خلقها ، لكن من يدري ؟ ربما كانت علاقتها بكلارا اكثر فائدة من حيث اهمية معلوماتها كونها ضابطة ومن ثمة فهي اكثر اطلاعا على الشان العسكري بحكم وظيفتها ورتبتها كنقيب.. ثم تستدرك مدام ميلين قائلة في نفسها لكن كلارا لم تكن في النهاية سوى واحدة من ضباط الامن النسائي النازي وهل لاحد ان يزعم انه يحصل على خبر ذي قيمة من جهاز امن او ممن يسبحون في فلكه ؟ فالمخبر عادة ياخذ ولا يعطي البتة ولو انه يتظاهربتبادل الحوار..واختتمت الفاتنة الفرنسية خواطرها معبرة عن امتعاظها بقولها يبدو انه ليس علي الا ان اظل رهينة هؤلاء الصغار تريسكو وكارل و سالتزم وصايا الاسمر لانه لا خيار امامي الا ذلك..

في كل ذلك لم تكن عيون الغيستابو بعيدة عن تحركات مدام ميلين و اهتمامها الخاص بالطباخ وكارل كما ظلت تعتقد بل كان رجال هذا الجهاز ينتظرون لحظة تلبسها فقط . وحين اقتيدت الى مكتب الاستنطاق بهذا الشان انصرف شكها مباشرة الى كلارا ، وهي تتلقى انواعا من التعذيب اثناء التحقيق الذي تواصل لايام بعد ان واجهها فتى الحانة كارل برغبتها في معرفة مضامين الحوار الذي كان يدور بين الضباط . اما الطباخ تريسكو فلم يعرف عنه خبر منذ لحظة التحفظ على مدام ميلين ، وغلب على ظن الاسمر لما ابلغته الاسيرات الخبر ان فتى الحانة كان مزروعا عليهن ومن ثمة ساير مدام ميلين الى ان كشف امرها وامر الطباخ معا ، والواقع ان الثائرة الفرنسية رفضت الاعتراف بالتهمة بل وانهت المسالة عندها فلم تذكر الاسمرولا اندريه كشريكين في الامر، وكانت المسالة اكبر من مايكا التي سالت الجنرال برونيكو عماذا ينتظر بشان هذه الاسيرة وقد اختتم التحقيق ،لكنه اكتفى بالقول :

ــ نحن في انتظار اشارة بشانها من الجهات العليا..

وفي لقاء الاحد كانت مدام كارول في مقدمة من بكينها جهارا على الرغم من تطمينات الاسمر :

ــ ليس بحوزة الغيستابو ما يثبت ادانتها..

وعلق القنفذ هامسا :

ــ الغيستابو لا يعنيه اثبات فقد صفعني احد

جنودهم على خدي لمجرد انني التفت الى الخلف

ذات مرة ام هل نسيتم ؟ ومن تدعونه كلاوس الم يعنفني

و يامر بتمديد اقامتي الانفرادية لانني بحلقت في عينيه

حين كان منصرفا ..

وعلى مضض ضحكت مدام كارول من داخل دموعها وهي تنظر الى الاسمر .كان بوداود وعبد الكبير والقفصي يجلسون في تلك اللحظة بعيدا من زملائهم هؤلاء في حين ظل الفارق بين مامادو و الفريقين بضعة رجال..وكان الكلب الضخم لايزال هناك محتفظا بكل هالته التي ترسّخ نوع من الاعجاب بها لدى القنفذ.

اصبح كثير من الاسرى على علم باسباب توقيف مدام ميلين لكن امر تفكيرهم فيها انتهى عند هذا الحد الا بوداود الذي اخذ يربط بين اختفاء السجينة الحسناء وانقطاع معلومات الاسمر فتاكد ان مدام ميلين هي مصدر الفلتات الاستخباراتية التي كان الاسمر يتظاهر بانه يتلقاها من عين الماني في المعتقل الحربي دون ان يكشف كيف واين كان يتصل بتلك العين الناقمة ، ولذلك كثرت اسئلته عن مصير الاسيرة الحسناء حتى انه وجه سؤاله راسا الى بوداود ذات مرة مع ان بوداود لم يكن له من المعرفة بها ما يزيد عن مشاهدتها من بعيد الى ان تحدث عبد الكبير والقفصي امامه عن اختفائها معللين السبب بما يعرفه المعتقلون .

وقد احدث نقلها من المعتقل الحربي الى جهة مجهولة ما يشبه الضجة في اوساط الاسرى مما ادى الى ردة فعل عنيفة من قبل القائمين على السجن تجاههم بحيث استعاد نظام الخلوات الفردية (الزنزانات) اوجه واطلق المفتش الكتلة يده تعذيبا ورفسا تحت هاجس وجود شبكة جوسسة داخل الاسرى ترصد تطور العمليات الحربية الالمانية من افواه الضباط والعسكريين الالمان واحتمال تسرب تلك المعلومات الى خارج السجن ..

وفي قرارته تساءل بوداود :

ــ هل اقدم الالمان على اعدام تلك الثائرة الحسناء ؟

واجاب نفسه بنفسه :

ــ محتمل جدا ..

الفصل الثالث عشر :

همســـــات نوفاليـــــس

ما ان انصرم معظم الليل وغفا بوداود متملصا من هواجسه المشحونة التي كانت قد بلغت مع المساء اقصى اطوار الاضطراب حتى صحا فجاة على صوت اذهله ..انه صوت صفارة إنذار وقد دوى في الافاق مقاطعا انفاس العتمة ليشد اليه الاسماع بقوة ..كان جرسه متصاعدا في امتداد مخيف وقد اكسبه سكون الظلمة وقعا خاصا في الاذان ..

تكوّم بوداود في اسمال غطائه .. تلوى .. و انتفض قائما ثم اخذ بخطو مترنح يقترب من الوصيد المقفل في صمت ....ماذا حدث ؟ بل ماذا يحدث ؟ تساءل ، وما من مجيب .

وبعد ان بلغت مداها تنازلت حدة الصوت .. انها تتراجع .. تتراجع .. لتنتهي كشهاب انطفأ في امواج بحر الشمال... لكن هل انتهت فعلا ام ان ما سمعه بوداود لايعدو كونه مجرد دورة اولى من دورات الانذار ؟ .

لم يتفرد بوداود بالذهول امام ما يسمع بل ان الاسرى جميعهم كانوا قد استيقظوا مشدوهين وعلامات استفهام تلف كل من بالمعتقل .. ففي هذه اللحظات احس الجميع بوحدة اكثر من ذي قبل ..اذ ليس هناك من يجد الى جانبه زميلا له ليساله عما يحدث او يبادله حيرته وتخوفه..

تاكد بوداود من ذلك وقد لفت نظره وهو يتسمع من خلف الباب حركة غير مسبوقة قد دبت في زوايا السجن واروقته ..بل وخارجه . تتخللها احاديث تصل همهماتها مبعثرة يصرفها بين الحين والاخر صرير ابواب وهدير اليات ووقع اقدام سرعان ما تبتعد ليعقبها هدوء مؤقت..

وعلى الفور استعادت غرفة الاستعلامات السفلى مجلسها ولو في غير انتظام فلقد حضرت كلارا على التو ففسترمان وقد انصرف قلبها الى التفكير في عشيقها.الجنرال لانج.. قائد فصيلة دبابات الضاحية...ذلك لان الجنرال العشيق يواجه خطرين مباشرين مجسدين في ثغري الحدود الفرنسية ، ثم الجزء الالماني من الغابة السوداء المخيفة ..

والى هنا برز وجه مايكا شاحبا مصفرا وهي تفرك عينيها الجميلتين وقد امسكت بقبعتها مما ابان عن عـــــــــدم استقرار تسريحة شعرها ..

تقدمت من كلارا متبوعة بالرائد كلاوس الذي حافظت حركاته على حيويته المعهودة ..

واخيرا حضرالجنرال برونيكو قائد مخابرات المعتقل بكل بزته العسكرية المميزة ذات المعطف الطويل المهيب الذي اخفى بدون شك مسدسه الـــ " والتر" الفاخر .. و قبعة جهاز المخابرات السوداء اللون المرصعة .. ووو...

اما الجنرال متلر قائد قوات حماية المعتقل الذي حضرعلى اثرهم ، فلم يحدث أي طارئ على وضعية الاستنفار عنده ..فهو وفصائله لايبيتون الا وهم في اقصى حالات الاستعداد لاي مستجد سواء أزمجرت صفارة الانذار ام لم تزمجر .وهذا ما صار يعرفه عنه الجميع كرجل ميدان لاينام على ريب ...

لقد كان (متلر)عسكريا حتى النخاع، ولذلك غالبا ما استهجن من الاساس فكرة الخلو الى السمر بنادي ضباط المعتقل فالهدوء الذي ما فتئ يخيم على ضواحي اشتوتغارت و كارسلرو..و هايلبرون وبقية مدن وقرى الجنوب حيث يتمركزون لايعني انهم يعيشون خارج خرائط الحرب الضروس التي تلتهم نارها اطراف العالم شرقا وغربا ..

ومتلر كان في تفكيره هذا من طينة الجنرال ماكسن بمسل الذي غالبا ما اشتط غضبا لتوجه قادة الجيوش الامامية بالنورموندي الى مواقع التدريب البعيدة اوالاسترخاء في اجازات دورية متجاهلين الوضع وهو في اقصى حالات توتره ..

تسمر بوداود منحنيا على الباب وانفاسه تتصاعد ..كان اغلب ظنه ان غارة جوية ستقع،فهي عادة ما تتبع صوت صفارة الانذار ولكن زمنا غير يسير تقضى دون ان يحدث شئ من هذا القبيل ...صحيح انه منذ الهجوم الاطلسي على جبهات النورموندي صارت تحدث اختراقات جوية للفضاءات واخرى شبه برية للاراضي الالمانية ولكنها ظلت تستثني احواز الجنوب ربما لبعدها عن ميدان المعارك ولشدة التحصينات على امتداد الحدود ..

ومع الصباح الباكر أخرج الاسرى من زنزاناتهم تباعا و على عجل ، باتجاه ما كانوا يسمونه تجاوزا بالمطعم ..كان المعتقل يعكس دبيبا وتحركات ومظاهر حرب تجلت بصورة اوضح في مضاعفة عدد الدبابات والمدرعات القابعة امام المداخل بشكل شبه دائم ، محاطة باعداد من الجند... بل ان بعض انواع المدفع الرشاش من عيار (م.ب. 40) الخاص بحرب الشوارع قد زرعت على حفاف الدبابات ..واستعاد بوداود لحظات صعبة في حياته حين اشتدت اصوات اسراب من طائرات دوشكا وهي تخترق الفضاء في غير انقطاع ...

وحين تجمع الاسرى تحت حراسة مشددة لم يزد الضابط الذي خاطبهم ـ وكان برتبة نقيب ـ على ان نصحهم بالهدوء والامتناع عن الكلام فامتثلوا انسجاما مع خطورة الوضع غير ان ذلك لم يمنع الزملاء من ان يتبادلوا النظر في صمت ، واحيانا الابتسام المحتشم والكل يحمل تساؤلا مكبوتا، والحق ان الاسمر حيا بوداود باشارة من راسه بعد الجفوة التي كانت قد دبت بينهما في السابق ، وكذلك فعل العريف اندريه الذي بدا ذابل العود مصفرا وقد وقف في تصاغر لايليق بشموخه المفتعل كضابط صف مميز..

و راى السجناء فريقا اخر من اسيرات فرنسيات لعلهن من ثوريات الريف الفرنسي اللائي لطالما اثنت مايكا على شجاعتهن غيرما مرة ، وقد صرن اليوم في حال لايحسدن عليها ، بملاءات رثة ، وطاقيات من لونها تغطي شعورا لم يفقدها السجن شقرتها بحيث ابت الا ان تتدلى نحو الخلف احيانا ،وان تبعثرت خصائل منها في غير نظام لتكسو ملامح مفعرة لم تعد تدل سوى على بقايا جمال ، كن قد اغضضن ابصارهن ولا يرفعنها الا تدريجيا فيما يشبه قساوة اذلال ، لم يكن عددهن بالقليل فمن بينهن ناضرات عود و مراهقات بل وكهلات وعجائز حتى ،ولم يستغرب الاسرى ذلك ..فهي الحرب التي لا تستثني احدا ..

وفجأة برز القفصي محاولا اختراق الصفوف باتجاه بوداود غير انه لم يتمكن من الوصول اليه لشدة الزحام ، ولعله وحده من ظل محتفظا بابتسامة شاردة لا معنى لها في مثل هذا الوقت ، اما عبد الكبير فقد لوح بيده محتفظا بمكانه البعيد بينما ظل القنفذ مختفيا ضمن الصفوف لقصر قامته..

ومع الضحى عاد صوت صفارة الانذار ليكتشف الاسرى انه لا ينطلق من داخل المعتقل بل ربما جاء من القرى المجاورة او من موقع عسكري غيرمعلوم ..

والى هنا اشتدت الحركة بالمعتقل..وتكاثرت الرؤوس التي تتطلع الى الاسرى بين الحين والاخر، كما لو انها تطمئن على وجودهم..

و لم تكن هذه الطوارئ ـ على ما تحمله ـ لتشغل بوداود عن التفكير في مايكا ، ولو ان تفكيره قد انصرف الان الى وضعية هذا السجن وماذا سيصير عليه امره في حال تعرضه لهجوم جوي اصبح محتملا جدا ..هل يتوفر مثلا على مخابئ خرسانية واقية ؟

مايكا لم تتحدث عن اتساع المعتقل الى مخابئ احتياطية ربما لان ذلك من صميم الاسرار العسكرية ..لكن هل سيتيح هجوم كهذا لو حدث فرصا للهرب ؟تساءل بوداود في صمت مرددا في نفسه هاته الكلمة الكبيرة : الهرب؟ .. الهرب.. هكذا في حالة تيه لاهدف له ؟

واسترجع شيئا يثبت حدوث حالات فرار من السجون الالمانية. ألم تعرض عليه مايكا الفرار ؟ لو لم تعرف المعتقلات الالمانية مثل هذه الظاهرة ما كانت مايكا لتقترح عليه ذلك ..متيقنة من حسن استقبال بنات الريف الفرنسي للاسرى الفارين ..

ماذا لو انه وافق على خطة مايكا دون ان يصير عميلا للالمان وان ينهي علاقته بهم فور بلوغه الاراضي الفرنسية ؟. لكن من يضمن نجاته من مخالب الغيستابو التي لطالما حذر العميد الكتلة من بطشها ؟.. فهناك يتغلل عملاؤها عبر مفاصل فرنسا ربما اكثر من تغلغلهم في المانيا ..

ثم انه بذلك سيخالف ضميره لانه سيعود الى التزامه كجندي فرنسي .فضلا عن خسارته لمودة مايكا وهو الاشد على قلبه ..انه ليس بمستعد للتضحية بمحبة هذا الكائن الملائكي ومقابل ماذا؟ مقابل ان يعيد اندماجه في صفوف الجيش الفرنسي اوليس هو الان ضمن هذا الجيش ؟

ابعد بوداود من دماغه فكرة الفرار ..وهو يتطلع الى وجوه الاسرى كما لو انه يلقاهم لاول مرة ..وقد طفا عليها الهم والضجر والارهاق النفسي .

وكانت عيناه غالبا ما تستقران على الاسمر وعبد الكبير .بينما لم تسمح قامة القنفذ باتضاح محياه ..

كان عبد الكبير هادئا اكثر من اللازم في نظر بوداود ، فهو نجم الليالي الساهرة الذي لايليق به السكون الى هذا الحد ..

انه كمغن وراقص شبه محترف ، لاينع الا ضمن وسط نشط ، متحرك .. وسط يهتز جمعيا على وقع ما .. اما ان يخيم كل هذا السكون الثقيل على شخصيته المرحة فحال لايمكن لبوداود ان يستسيغها بسهولة..

فكر بوداود في الفراركاخر خيار قد يتاح اذا ما تعرض المعتقل الى هجوم اطلسي : امريكي وانجليزي بالتحديد، لكنه تراجع عن فكرته بعد ان ادرك ان هجوم الحلفاء قد لا يلحق به أي اذى ، فهو محسوب عليهم ، و في عداد رعاياهم ومن ثمة لا خوف عليه من وصولهم الى المعتقل .

المهم لديه ان صفارة الانذار لم تعاود زمجرتيها المخيفتين ومعنى هذا ان الامرقد لا يدعو الى مزيد من قلق...بل ربما حدث الانذاران السابقان احترازا او نتيجة توهم طارئ..لكن هل الالمان هم من يضطرون الى التوهم في امر خطير كهذا ؟ تساءل بوداود وهو يتراجع نحو الجدار الذي يقف امامه في جملة الاسرى .

كانت الرجة التي حدثت قد لفها صمت المكان الا من وشوشة خافتة بين الاسرى .. ليستعيد بوداود ذكرى مايكـــــــا بكل هالتها..بكل اندفاعها الشبقي ..بكل ما يحمله حضورها من مشاهد فاتنة تستفرد بزنزانته ، فتحيلها الى روضة شاعرية تبدد رتابة الزمن وثقل الملل..

في اخر لقاء لهما حدثته عن هجوم الحلفاء على المرسى الكبير بوهران بغاية محق الاسطول الفرنسي الذي صار تابعا لحكومة فيشي الموالية لالمانيا وللمحور، اعتقادا منها ان الامر سيدفعه للكلام ، ولما تطاول به صمته ، قالت له محفزة :

ــ هذا امر يعني بلدك ... أليس كذلك ؟.

عندها اعتصرته تنهيدة قوية وقال :

ــ بلدي يتقاتل على اديمه اخرون ..

وركنت مايكا الى السكوت .. غير ان عينيها ظلتا تحادثانه باشياء قد تخصه اوتخصها ..كانت كلما نظر اليها الا وازدادت جمالا في عينيه ..فعم يصدر هذا الجمال الفاتن اذن؟أعن محياها ؟ ام عن انبهار عينيه ؟ ..في غالب الاحيان قد يكون للنظرة الاولى سحرها، لكن تردد النظر يجعل البصر ياتلف المشهد الى ان يستهلك ما يغريه فيه .. اما عند بوداود فالامر يختلف ازاء مايكا ، اذ مهما تلاحقت نظراته وتكررت لاتعود الا بما يأسر عينيه اكثر ... فهي ذات جسد منتج للاغراء ..لانه لايتوقف عند مستوى معين من ممارسة الهاب البصر، ومحاصرة المشاعر ، ومن هنا عمق سرها ..

المثير في بوداود كما تراه مايكا ان قناعته ظلت متوهجة ، تماما كما عرفته منذ ان سألته عن جنسيته في اول لقاء ، فتظاهر بالتلعثم في الكلام وهو في حقيقة الامر يرفض الاعتراف صراحة بالانتساب الى فرنسا او هكذا بدا لها هي على الاقل ..لذلك قالت له في لقائهما الاخير :

ــ لاتزال على تمسكك بما عهدته فيك .

واتسعت عيناها نحوه فازدادتا اغراء وهي تضيف :

ــ اعترف انني لم يسبق لي ان قابلت

واحدا في مثل هذه الصلابة في الموقف الا عند

المتشبعين بالفكر النازي،لكن الفارق بينك وبينهم

ان الصلابة عندك تلقائية بينما اكتسبها هم نتيجة

عمليات شحذ وتلقين كاي مادة تعليـــــــــم .

وضحك ملامسا خصلة من شعرها كانت قد تدلت على مقدمة خدها كعادته ، وهي تتحفز للانصراف .لكنها فضلت ان تقول :

ــ اليسار الفرنسي ذاته تراجع عن مناصرتنا

بمجرد نشوب الحرب بيننا وبين الاتحاد السوفياتي

الكل رهن مواقفه، أثبت تبعيته ، ومع ذلك يسخرون

من المارشال " بيتان " بدعوى انه أصبح عميلا

للخارج وبعض قادتهم يناصبونه العداء فقط لانه

يكره اليهود.

بعيد ضحى هذا اليوم كانت مايكا بقاعة الاستعلامات لاتزال يشدها حديث مطول الى الجنرال برونيكو حول مسالة صفارة الانذار..وكلارا تقف الى جانبيهما واجمة ..

كان شبح طائرات معادية قد خيم على الحدود الجنوبيـــــــة لفرنسا لاول مرة وهو امر متوقع منذ حدوث الانزال الاطلسي بمنطقة بروفانس الفرنسية وحسب تعميم داخلي فان المغيرات قد تم التصدي لها على الفور ..

و هذا التصدي هو ما يقلق مايكا ومن معها بقاعـــــــة الاستخبارات السفلى حيث استنتجوا من ذلك ان الانزال الاطلسي قد تمكن من التمركز فعلا بالاراضي الفرنسية بل

واتخذ له قواعد هجومية من هناك اخذت تطال التراب الالماني..

..صحيح ان انباء الحرب بشمالي افريقيا لم تكن تبعث على الارتياح في طورها الراهن ، سيما وقد حملت معها انباء قصف الاسطول الفرنسي للمرسى الكبير، واندحار رومل بالعلمين ..

فضلاعن الانزال الذي قام به الحلفاء بايطاليا تلك الخطوة الجريئة التي لايقلل من اهميتها سوى استيلاء الالمان على روما التي يدافعون عنها الان بشراسة معهودة في حروبهم ..ولكن ان تتخذ امريكا وانجلترا موقع قدم لهما بجنوب فرنسا بالاضافة الى شمالها بالنورموندي فيحق للجميع ان يستشعر الخطورة ..

وارتمت مايكا على اقرب مقعد لها وهي تعبث بخصلات شعرها وقد تهدل تلقائيا .. اما الجنرال برونيكو فركن الى مكتب موال ليتصفح اوراقا ملقاة عليه بينما احتفظت كلارا بشرودها ..كانت وجوه الجميع تعكس هما ثقيلا وتكابد سؤالا رهيبا ما كان ليخطر لهم على بال منذ سنوات : هل صارت المانيا بكل ثقلها في موقع دفاع ؟ وهو السؤال الذي شاطرهم فيه الاسرى في الجناح الذي صاروا يطلقون عليه اسم المطعم فهم بدورهم كعسكريين يدركون ماذا يعني صوت صفارة الانذار بالنسبة لقوة في شراسة القوات الالمانية .

وتململ بوداود وقد فضل الجلوس على البلاط الارضي كما فعل أخرون ، ان امله ليتضاءل في لقاء مايكا ..مايكا التي يستعيد هيئتها واقفة وممددة ..ضاحكة و شبه عابسة ..عابثة و جادة..منشرحة و منغلقة ..ولكنها في النهاية ودودة متزنة تحترم حق العقل وحقوق القلب معا..

غير ان خياله كلما رسم صورة مايكا الا ووضع الى جانبها صورة ذهبية رغم الاختلاف الذي يقره في هذه المقارنة فهو لايعرف ذهبية الا من الخارج مع انها ابنة قرية الثيران .. قريته.. بخلاف مايكا التي يزعم انه صار يعرف دخيلتها فضلا عن تفاصيل مظهرها..انهما تنتميان الى قارتين لا تتشابهان الا في لون البحار، تماما كما ان الفتاتين لا تشتركان الا في خاصية الانوثة .

وهذا لا ينفي تقارب درجة جماليهما ،حتى ولو احتفظت كل واحدة منهما بالمدرسة التي ينتسب اليها حسنها ..

في هذه الاثناء كانت فسترمان قد جلست الى جهاز البرق (التيليكس) لتتلقى نسخة من اولى الاشارات الموجهة الى قائد حامية المعتقل ، وهو الجنرال ميتلرالذي كان قد حضربدوره مفضلا الوقوف قريبا من مايكا وقائد المخابرات اللذين حييا باحترام جم ..

وما أن أسرعت فسترمان الى هذا الاخير بورقة الإشارة، حتى تناولها من يدها ممعنا النظر فيها ،ثم اقترب من قائد المخابرات ، مبادرا اياه بالقول لانه تبلّغ بالاشارة قبله :

ــ كلما امرنا صباحا بأمر الا واستقبلنا

مساء ماينفيه، أي تخبط هذا ؟ !

واشرأبت مايكا بعنقها نحو الورقة التي احيلت الى قائد المخابرات ولاتزال بيده ولامر ما اراحها ما تتضمنه الاشارة، بل كادت تحتضنها حين احالها اليها الجنرال برونيكو وقد تضمنت العبارات الاتية : **((تجنبا لأي فرار قد يحدث عند أأي قصف مباغت لاتتركوا الأسرى في حالة تجمع)).**

وعلقت في نفسها:

((سيعود بوداود الى الزنزانة اذن))

واعقب تعليقها برهة صمت لايسمع فيها الا طقطقة ألة راقنة منبعثة من الزاوية الاخرى حيث تعكف نينا على رقن موجز يومي

وهي غالبا ما تلتفت مبتسمة في وجه كلارا التي لم تبادلها بسمتها الا في تكلف واضح تدرك نينا سببه .. فكلارا منذ ان دخل المعتقل طور صفارات الانذار وحالة التأهب القصوى مزيحا سمر النادي واختلاس لذة الآسرة التي تعودتها فارقتها حرارة بسمتها ومرحها

اما فسترمان فقد ايقنت ان الاشارة التي تلقاها جهازها مع الاشراق ستفرح مايكا لا محالة ..فهذه المرأة العاشقة للاسير الجنوبي حتى الثمالة لايسمح لها تجمع الاسرى في العنبر او القاعات ، باي تصرف قد تخصه به ، كذلك الذي تتيحه الزنزانة المنفردة ، فهي لا تريد لزملاء بوداود من الاسرى ان يطلعوا على ما يربطها به،لكيلا ينظر اليه كعميل للالمان حتى ولو لم يفعل لحد الان ما يثبت عمالته ، وذلك لامر تجهله فسترمان شريكة اسرارها،

التي عادت على عجل الى مقعدها مفضلة توجيهه نحو مجلس الضباط لتلحظ ما قد يطرأ على ملامح مايكا من تغير نتيجة ما تحمله اشارة اليوم .

ثنت فسترمان ساقيها على المقعد وابتسمت معلقة في سرها : اه... يا مايكا ..ما ارق مشاعرك ..لكم ابتعد بك قلبك الى ما وراء المهمة التي تدعين القيام بها ..مهمة ترويض الاسير الجنوبي على الجوسسة لصالح المانيا .

ولكن ما سر مناعة هذا الرجل امام روعة مايكا ؟مايكا التي يتشوق الجميع الى مجرد الايقاع بها في لحظة مداعبة خارج الصرامة التي تطبع سلوكها ...انها ضابطة مدرعة المشاعر بحيث لايعثر عليها وهي في لحظة ضعف ، كما لو انها ليست بامرأةعلى الاطلاق ..فما الذي دهى هذا الاسير الجنوبي امام جمال دافق كالذي تتمتع به مايكا ، ابنة الساحل الشمالي ؟ .

.فصورة مايكا في حد ذاتها وهج من اغراء ، له سلطانه على القلوب ، فما حقيقة تحفظ هذا الجنوبي؟ هل هو الخوف ام الجهل بسرالمهمة ؟ ام العزوف الفطري ؟ ثم كيف يتسنى لنا ان نصنع جاسوسا اذا كان الجاسوس الاكبريستقر بين اضلاعنا ؟ قالتها فسترمان في اشفاق لانها تحب مايكا ..مايكا التي يعصف بها جبروت صبابة جارفة تكابدها تارة في صبر وطورا في استسلام ككل امرأة ولهانة .

لقد ذعرت فسترمان ومايكا تصارحها بانها وضعت مسدسها قريبا من بوداود حينما ضمتهما خلوة جنسية/ شاعرية ذات ليلة من ليالي ما تسميه مايكا بالفناء الثنائي . .ساعتها انتفضت فسترمان قائلة في غضب :

ــ اية حماقة ترتكبينها بفعلتك تلك يا مايكا

تضعين مسدسك بين يدي أسي ؟ا

وازدادت فسترمان غضبا وهي تضيف :

ــ المسدس لوجر .. عيار (ب 08)

رمز شرف الجيش النازي واحدث مسدس

عرفه الابتكار العسكري حتى الان

تضعينه في متناول اسير؟؟..

وبصدق وببرودة اعصاب انجليزية ،لاتكاد تكون المانية بالمرة

قالت مايكا :

ــ انه ليس بأسير ....انه بوداود يا فسترمان

وانا ادرى الناس بدخيلته ..

فقالت فسترمان وهي لاتزال في حالة فزع :

ــ ولو ...ولو ..ثم لاتنسي انك برتبة عقيد

يا حضرة ..هل تدرين ماذا يمثل اغتيال عقيد

الماني بالنسبة اليهم ..يا حبيبتي ..

وسالتها مايكا في حدة وهي تضع يديها على طرفي خصرها :

ــ بالنسبة اليهم ؟ منهم؟ انا اقدر مشاعرك نحوي

لكن عليك الا تخلطي الامر ..يافسترمان

فبيني وبين بوداود لايوجد عقيد ولا اسير

وبوداود لو يغتال الناس جميعا ما مرت بخلده

خاطرة بالاساءة الي ..مجرد خاطرة..

ودنت منها فسترمان لتقبلها تخفيفا لحدتها التي اظهرتها بين يديها ، وهي تقول :

ــ انت ادرى به.. انت ادرى به ..اعذريني على تجاهل

فارق الرتبة العسكرية بيننا..لقد كانت جرأة غير مسبوقة مني..

فعانقتها مايكا ضاحكة وقالت :

ــ ادرك حرصك على سلامتي ..فانت حبيبتي فعلا..

ثم استطردت مايكا في شبه خنوع وقد تسارعت حركات رموشها كما لو انها تلتمس عذرا لسلوكها :

ــ لكم كنت اعتقد ان الانسان لايحمل صفة النازي الا

حين يصير لا عاطفة له ،ولكن الانسان هو الانسان ..

يحن بقدر ما يقسو ..ذلك هو قانون المزاج الانساني الا

استثناءات قد نجدها لدى اتباع مختلف الفلسفات والاديان..

وركنت الى الصمت برهة لتضيف :

ــ لقد نسي فيلسوفنا نيتشه (وهومفخرة فكرنا)

هذا الانسان الوسط الذي اتحدث عنه، ليوهمنا

انه لايوجد على الاطلاق، او لا ينبغي له ان يوجد ..

مادام لا مكان للشفقة و العاطفة في حياتنا .

واستطردت مايكا كما لو انها تحادث نفسها :

ــ صحيح ان الحياة ليست تجربة واحدة

قد نفقدها دفعة واحدة اذاما اخفقنا في تجربتنا

ولكن هناك من التجارب ما يتجاوز حجمه ليغطي

رقعة الحياة كلها امام ناظرينا.فيستحيل علينا

ابصارالحياة خارج ما فقدناه . .يا فسترمان ..

وتنهدت فسترمان قائلة في استصغارهذه المرة :

ــ انت ضليعة في علوم النفس والفلسفة

والادب والتاريخ يا مايكا ..لكن الحيطة تبقى واجبة

فالاسير عدو ...هكذا تعلمنا .. بل وتعلمت

انت اعمق منا كواحدة من خريجات اكاديمية

برليـــــن العظيمة ..

وحين ضحكت مايكا مداعبة، سبقتها فسترمان الى السؤال

وقد عادت الى جدية لهجتها :

ــ وتضحكين ..؟..ام ماذا تظنينه ؟

وعلى ذكر اكاديمية برلين مر بخيال مايكا طيف فتى الاناضول بكل خثرة عينيه التي كانت تتعشقها لكنه سرعان ما توارى لان بوداود كان يشكل صلب حديثها مع زميلتها :

ــ انا معك في ان الاسير عدو، لكن بوداود

ليس كذلك لانه صاحب ثأر مع اعدائنا

الحقيقيين..وعدو عدوك من يكن بالنسبة اليك ؟..

وهزت فسترمان كتفيها وقالت :

ــ لا تغتري كلهم يتظاهرون بذلك طالما كانوا في قبضتنا.

وقهقهت مايكا متسائلة بصدق :

ــ وما حيلة مايكا اذا كانت تجسد الانسان

المزيج الذي اهمله العظيم نيتشه ؟

واضافت :

ــ نيتشه ذلك الذي كان يريد منا ان نكون

محاربين وفقط اليس هو القائـــــــــل :

((يجب عليكم ان تحبوا السلم كوسيلة لحروب جديدة))

وقبل ان تعيد فسترمان مقعدها الى وضعه الطبيعي بعد استرجاعها ما جرى بينها وبين مايكا ، تذكرت انها اختتمت حديثها معها بتحية عسكرية جادة كما لو انها تؤكد اعتذارها اليها...فقالت لها مايكا ضاحكة :

ـــ بوداود لايفتأ يختتم لقائي به دائما بتحية

مماثلة ..اعترافا بفارق الرتبة بيننا ..ففي اول

الامر كنت ازجره ثم تركته على سجيته.

واضافت مايكا يومها وصوت ضحكها يجلجل:

ـــ حتى اللقاء الذي تعرفينه يختتمه بالتحية

قبيل انصرافي رغم ضيق المكان..هههههه ...انه عسكري

.. وفوق ذلك مهذب واحيانا خجول ..

ان وجه مايكا في هذه الصبيحة يبدو مشرقا من بعيد كما تراه فسترمان ، وقد ازداد اشراقا مع الخبر الذي اوصلته اشارة اليوم اليها ،وعلقت فسترمان : يالها من فنانة رقيقة في هيئة عسكرية صارمة.

لم تدم فرحة مايكا بنقل بوداود الى الزنزانة ولا حتى بعد ان زارته ليلا ليتبادلا تباريح الاشواق،حيث قالت له وهي تعانقه في شغف فور ان دخلت الزنزانة وسارع الحارس الى اغلاق الباب المدرع خلفها :

ـــ لكم خيّل الي اننا قد لا نلتقي ابدا ..

ـــ كنت اكثر يأسا من اللقاء بعد الذي حدث ..

وعصف بصدرها تنهد مسموع وهي تقول :

ـــ الوضع في حالة الخطورة فعلا ..

ثم قالت مفصلة الامر باشارة من اصابعها:

ـــ هجوم الحلفاء يشتد بضواحي مدينة

ستراسبورغ ..

وتساءل في دهشة :

ـــ ستراسبورغ ؟!

واسندت قامتها الرشيقة الى الجدار لتوضح اكثر :

ـــ الجنرال الفرنسي لوكلير يقود هجوما امريكيا ـ بريطانيا

يهدف من خلاله الى تحريرالمدينة كما يزعم ..

ـــ الجنرال الفرنسي.؟!

ـــ قائد فرقة الهجوم على ستراسبورغ ..

واشتدت غرابة بوداود وهو يسالها :

ـــ تقولين انه فرنسي ..؟

واكدت منتظرة تعليقه :

ـــ نعم.. فرنسي ..

ثم اخذت مايكا تتحدث بصراحة هذه المرة :

ـــ قيل ان خلافا دب بين الفرنسيين وحلفائهم
حول قيادة هذه العملية..فاحتج الفرنسيون
بان المعركة تدور فوق اراضيهم ومن ثم فهم
اولى بقيادتها ، وقال الاخرون ان عماد الحملة
جند امريكي وبريطاني ولايحق للفرنسيين
قيادة قوات لا يمثلون فيها أية نسبة.
اوبالاحرى نسبة رمزية .وفي النهاية تنازلوا
ارضاء لديغول..

واختتمت كلامها بقولها:

ـــ صدق "ستالين " حين قال: " وهل لفرنسا فرقة "؟

فقال بوداود في حنق :

ـــ الفرنسيون دائما يحوزون على الشرف
اعتمادا على تضحيات غيرهم ،بالامس
ضحوا بنا معشر الافارقة واليوم يضحون
بحلفائهم من البريطانيين والامريكان
فترابهم دائما مفدى بدماء غيرهم .

عندها هربت مايكا من سياق الكلام وكأنها تفطنت الى امر فاتها وقالت في زهو مفاجئ:

ـــ ما لي وكل هذا الحديث أخوض فيه الان
إن له لأمكنة أخرى اما هذا المكان فله

ثم اخذت تترنم بمقطع للشاعر الالماني نوفالـيـس(9)بلغة المانية لايفهمها بوداود لكنها تنساب في تمازج بين غنة صوتها المحببة وايقاع الشعر..يقول المقطع على لسان مايكا :

((سا ظل وفيا لـــــــــــــــــك

لـئـلا ينعدم الامتنان على سطـــــح

الارض)).

الى ان يقـــــول :

((الحب الوفـــي ينتصر.. يشعر المرء

بـــــــه في النهايـــة.))

وتقدم منها بوداود مبتسما وقال :

ـ كل ما تقولينه عذب ولكنني

لم افهمه عنك.

وبعد ان اوصلت اليه معاني نوفاليس بطلاقة ، شدت على كتفيـــه وهي تنظر الى عينيه وتقول :

ـــ صدقني لقد صارت ظروف

الحرب تزاحم نبضات قلوبنا

كما لو انها قبضة مقراض ..

وحين انتهيا الى مضجعه وقد كانت اغطيته غير منظمة

علقت :

ـــ مخدعك مبعثرحتى لكأنك غير عسكري..

وخشيت ان تجرح مشاعره بكلمتها فاستدركت :

ـــ انه رغم ذلك محبب الي .. لا تكترث ..

دعه هكذا..لقد استقر بمخيالي على صورته

البدائية الراهنة منذ اللحظة الاولى ..

مللنا الاشياء الدقيقة التنظيم..لانها

نتاج عقلي فحسب..نريد الهروب لحظة واحدة

الى افق قلوبنا ..الى فوضاها ..

ولم تتمم كلمتها الا وهي تمسك ببوداود هاشة ثم تداعت في حنو دافق وقد ركبتها تلك الحالة الوجدانية التي تغمرها كلما اقتربت من مضجعه ، ثم قالت بانفاس مندفعة.. متقطعة.. بقوة :

ــ بوداود ؟ كيف ستتصرف ان

تعرض المعتقل للهجوم؟..طمئني..

فقال بلسان المغلوب على امره :

ــ وماذا عسى اسيرمثلي ان يفعل

غير انه ينتظر رحمة اللـــــه..

وتاملت كلماته وهمست :

ـ في مثل لحظات الضيق هاته

يعجبني لجوؤك الى السمـــاء ..

..انه احتماء فعلا..

ثم قال وقد فاجأها بسؤاله :

ــ هل في امكاننا ان نفر سويا يومئذ؟

قالت وقد استسلمت لحالتها الشبقية :

ــ دعني من هذا الان ..سنتحدث فيه لاحقا..

نسيت مايكا طبيعة الظرف الذي تعيشه المانيا بكل ثقله العنيف محاولة اقتطاع برهة من هذا الزمن الملتهب لتستغلها لصالح قلبها وجوراحها ..انها تعيش اللحظة مع بوداود وفقط..وهو ما دفع به الى القول في نفسه : انهم الالمان.. لكل شيءعندهم زمانه الذي لا يستغل الا فيه وفي حدوده ، فلا مجال لاقحام عديد اشياء في وقت واحد عندهم..

وبعد ان قفزت من مربضها وهي تعيد اصلاح هندامها وتهم بالخروج نبس بوداود في تردد :

ــ اخشى ان لا نلتقي بعد اليوم ..يا مايكا..

و عادت اليه بجذعها الاعلى وهي تقول باحرف محتدة :

ـــ حين لم يصبح هناك متسع لحياة مشتركة

بيننا ساقتلك ثم اقتل نفسي ..وبهذا المسدس..

بالتحديد..هل فهمت ..تذكّر هذا دائما..

قالتها بشكل مخيف نوعا ما وهي تشير الى مسدسها دون ان تبتسم ، لتختفي خلف الباب المدرع .

وارتاع بوداود للجد الذي كان يطل من عينيها وهي تتوعده ، قبل ان يعد ذلك من باب مداعباتها التي تعوّد عليها ..

وفي طريقها الى جناح اقامتها مرت مايكا بنادي الضباط الذي صار طللا يلفه السكون وحز في نفسها ان يتحول هذا المخدع المحبب الى مكان مهمل لايعرف ليلا الا من خلال ضوء ارجواني تراجع وهجه وهو معلق على جبين المدخل الزجاجي ذي الدفتين ، وقد تراجعت حدة كل انوار المعتقل من حوله عمدا .

وخاطبته مايكا في صمت ..ايـــه ..ايها النادي الوديع ..لقد ودعنا فيك ليالي السمر منذ شهر او يزيد ليقتصر الحضور فيك على مجرد لقاءات سريعة ..متكلفة ..مقرفة .. قد تتسع لفردين او اكثر ..او ربما لاتتسع لاحد في قادم الايام.

وطوال المدة تلك طالت غيبة لانج الجنرال الوسيـــــــــــم عشيق فسترمان لتستبد بهذه الفتاة ،الوحدة والقنوط ومن جهته اعتزل المرح كلارا الى ان اصبحت علاقتها بنينا شريكة السرير تتسم بالبرود والتجهم بل وتهرب كلتيهما من الاخرى ..

وبدا لمايكا من كل ذلك ان وجدانها وحده هو من تخلف عن الانطفاء ، بعد ان اختصر عالمه كله في بوداود الذي كان لقاؤها به منذ حين قد افلح في اعادة ترتيب اعصابها واثلج فورانها الجنسي و العاطفي، فنامت نوما هادئا كما لو ان الحرب من حولها قد وضعت فعلا اوزارها ..

ومع الصباح التحقت بالغرفة السفلى التي كان قد سبقها اليها اللواءان برونيكو و متلر قائدا المخابرات والحامية معا، وقد غاصا في نقاش جانبي قبيل اللقاء الروتيني الذي سيجمعهما بها وببقية الفريق لتحرير موجز صباحي عما حدث واحتمال ما قد يحدث ..

فبعد ان حيت وجلست اكمل الجنرال برونيكو حديثا كان قد شرع فيه قبل مجيئها :

ـــ انه اجراء غير موفق وغير استراتيجي

في نظري ..

فقال الجنرال متلر وهو ينظر الى مقدمة سقف القاعة فازدادت قامته المتوسطة امتدادا :

ـــ كان الهدف منه ابقاء رحى الحرب

خارج التراب الالماني ما امكن ..يا جنرال ..

وبدت كلمته غير مقنعة بالنسبة لزميله الذي اعترض بقوله منتفضا :

ـــ ذلك لايحدث الا اذا كنت بصدد هجوم

اما وانت في حالة دفاع فعليك ان تبقي

أهم قطعك قريبا منك تجنبا لحدوث أي فراغ..

او ثغرات خطرة من شانها ان تسمح للعدو بالتسلل..

ودون ان تقحم نفسها في جدلهما ادركت مايكا ان الامر يتعلق بتحريك فصائل الدبابات المرابطة بالضواحي لتعزيز قوات ستراسبورغ ..اي الى خارج التراب الالماني..

ولانها لما تتخلص بعد من ميولها الوجدانية العاصفـــة استحضرت مايكا عنف الصدمة التي تلقتها زميلتها فسترمان وهي تستقبل خبر نقل فصائل الدبابات لتقوم مقام فرق البانزر هناك.. خوفا على عشيقها الجنرال لانج الذي يقود أهم هذه الفصائل ..

وهو الذي لطالما توقع ذلك مبلغا فسترمان مخاوفه التي نقلتها الى مايكا فيما بعد :

((ما دامت فرق البانزر ال20و23 و.....

المتمركزة في الشمال قد عززت عمليات

التصدي لهجوم النورموندي فسنسد مسدها

لامحالة في مواجهة أي هجوم جنوبي قد يقع ..

باعتبار ان فرقنا ملحقة بها ..))

وانتشل مايكا من خواطرها صوت القائد برونيكو الذي ارتفع معربا عن شدة انفعال ّ:

ــ حين تغامربتحريك نخبة النخبة من جيوشك

التي هي عماد وجودك فذلك لايعني الا انك قد

دخلت طور الانحدار يا جنرال..

واستطرد بعد استرجاع هدوئه :

ــ لم يحرز الجيش الاحمر السوفياتي انتصاراته

الا بعد ان كف ستالين عن التدخل في اختصاصات

جنرالاته ..وحرر مبادراتهم .

وسكت قائد الحامية مطيلا وكأنه يود اشراك مايكا في ما تنامى بينه وبين زميله من حدة نقاش .. لكن مايكا لم تزد على ان قالت بصوت نصف مبحوح :

ــ اخشى الا يترتب عن تدخل

هذه الفصائل أي حسم كما

حدث لفرقة البانزر21 في

النورموندي ابان العام الماضي ..

فقال قائد الحامية :

ــ ذاك ايضا ترتب عن نظرة الجنرال يودل

رئيس العمليات الحربية في مقر القيادة العليا

الذي اعتقد ان احتياطي جبهة النوماندي

لا يحتاج الى تعزيز بدبابات البانزر ..

وهز قائد فرع المخابرات راسه وهو يقول :

ــ يخيل الي ان ضراوة الهجوم الاطلسي

هذه المرة لاترد ولا اكتمكما ان ستراسبورغ

سوف لن تصمد طويـــــــــــــــلا ..

وقامت مايكا وهي تقول في يأس :

ــ بالامس سقطت سانت ميراجليز

الفرنسية بيد الامريكان واليوم نتوقع سقوط

ستراسبورغ على اهميتها ..ونحن من كان قد

دوخ عواصم العالم ..؟ ا

ولم تجد فاتنة المعتقل الحربي من بين محدثيها مجيبا الى ان التحق بالقاعة السفلى بقية افراد الفريق ومن بينهم فسترمان التي اجتاحت محياها مسحة من شحوب ..

كما كانت تتوقع مايكا ، بينما تلقى الجميع تحية نينا وهي في طريقها الى زاوية الرقن دون ان تخص كلارا باي اشارة منها عكس ما كان عليه الامر اثناء كل لقاء لهما قبل ذلك ..

وفكرت مايكا في المسافة التي تفصل معسكرهم هذا عن ستراسبورغ المرشحة للسقوط وفي بوداود وفي ما قد يصبح عليه مستقبل ايام هذا المعسكر ثم داعبت مسدسها العالق على خاصرتها وهي تتساءل هل ان اوان استبداله برشاشها الخفيف ؟ ام لاتزال ايام المعتقل تحتفظ ببصيص من هدوء؟.

الفصل الرابع عشر :

هـــدأة المسدس :

ومضت ايام عصيبة اختلط فيها صخب القصف الجوي باصوات صفارات الانذار بدمدمة المضادات الدفاعية ..وطال القصف مختلف مناطق المانيا حتى القريبة من المعتقل الحربي ، وسرعان ما انتهى كثير من الخبراء العسكريين الى الاقرار بتفوق اعداد الطيران المغير رغم عنف المضادات فضلا عن دقة اصاباته لمواقع التمركز العسكري وحتى غير العسكري ..فرغم الاعتراضات الجوية العديدة تكاد مقاتلات الحلفاء تستقل بالاجواء الى ان اضطرالجنرال متلر الى استخدام منظاره الخاص كما لو انه غير مكتف بمراقبة المختصين وهم يعرّفونه بانواع المقاتلات الامريكية والبريطانية المغيرة :

ــ حضرة ..انها المقاتلة موستانج

ــ وتلك هي القاذفة الضخمة لانكاستر..

ــ ثم القاذفتان ليبراتور و سبتفير..

كان اخشى ما يخشاه متلر ان تتمكن هذه الاسراب الرهيبة من احداث ممرات عبور في خط استحكاماته تسهيلا لاي زحف بري ..

ولكن المعتقل بكل ملحقاته الدفاعية لم يصب باي سوء حتى الان ..هل لان مظهره من بعيد يعكس تمويها كافيا اذ يبدو في صورة مبان مدنية متلاحمة ؟...ربما... تساءلت مايكا وهي تتذكر ان دبابات ستالين لاتزال تسابق الريح في طريقها الى عرين الاسد.. الى برلين هكذا صراحة ..وامسكت فاتنة المعتقل الحربي بجبينها لهول ما يحدث ، وكادت تصرخ با على صوتها : انها المانيا يا ناس .. المانيا التي لا يجب ان يهان شموخها

وتحت هذا الاحساس كان حبها الكبير لالمانيا يسحق ما سواه بكل قسوة ..حتى حبها لبوداود هو الان يترنح ..يتراجع بقوة امام عاطفة تشبثها بالتراب .. وقداسة التراب .. وما يحمله التراب من معنى ..

وقالت في سرها ، ان الذي ينموعلى حب التراب ،لايجد في ما سواه بديـــــلا ولو منحته الحياة كل ما لديها ..

ذلك لان المانيا في نظر مايكا ليست ترابا مهملا يمكن ان يعطى او يوهب او يمتلك تحت اية طائلة .. بل هو التراب المقترن بالمعنى ..المعنى الذي لايمكن لمايكا ومن حولها الا ان يعيشوا مسكونين بهالته ..بعظمته.. بشموخه ..

ان مايكا ككل ذوات الروح القتالية لمتحفزة للموت في سبيل حماها .. ثم اليس هؤلاء الاسرى كانوا بصدد الموت من اجل تراب اخرغير ترابهم ؟.. فكيف بموت مايكا في سبيل ترابها ؟ ان عليها ان تموت هي الاخرى من اجل المانيا، من اجل ارضها ومراتع صباها ..من اجل اشبالها ..فكل اطفال المانيا هم اطفالها حتى وان لم تنجب بعد ..

وتذكرت الانجاب .. وتساءلت ..والسؤال لم يعد بها الا نحو بوداود .. ماذا لو انها انجبت من بوداود ؟ لقد كان عليها ان تفعل قبل فوات الاوان...ولكن ماذا يعني ان تفعل ذلك ؟ ما تبعاته ؟ ..

ولامر ما طار بها الحنين الى حيث والدتها وشقيقتها الصغرى "انا" بمدينة " سانت بيتر اورد نج "مسقط راسها وقد انساها حب بوداود ومشاغل الحرب تذكرهما تماما كما تحاول هذه الحرب ان تنسيها حب بوداود ذاته رغم انه حب صار متروكا لمصير الحرب مرهونا بمستقبلها ، فاما ان يزدهر ان انتصرت المانيا او ينطفئ ان انطفأ اشعاعها ...اليس هو الحب الذي اينع في ظل قوتها ؟ اذن عليه ان ينتظر خاتمتها ...

تقضت ايام مترعة بالانباء المتضاربة حتى النخاع ، ثم اخلت هاته الانباء مواقعها امام زمجرة السلاح وقد اصبحت دمدماته تسمع بشكل شديد الوضوح على امتداد القواعد العسكرية المتموقعة عبر الناحية الجنوبية من الحدود الفرنسية الالمانية ، وذات صباح قبيل الاشراق دوت المضادات الارضية الجاثمة على ابواب المعتقل العسكري بالذات في نفرة جمعية مركزة وايضا مطولة ،

ذلك ان مواقع الرادات اشارت الى هجوم جوي سرعان ما اصابت بعض مقاتلاته احد اجنحة المعتقل ، بينما تمكن الدفاع من اسقاط طائرتين شوهدتا وقد لفتهما ادخنة الاصابة .. ولكنه لحسن الحظ كان الهجوم الاول والاخير طوال هذا اليوم ربما نتيجة لصحة المقاومة ، غير ان ذلك لم يعد بالمعتقل الى طبيعته ، وربما كان اكثر العاملين به نشاطا في هذه اللحظة هي الانسة فسترمان التي انكبت على جهاز الابراق بدونما انقطاع ارسالا واستقبالا، ثم نينا الغارقة بدورها في رقن ما يشبه الافادات المتسارعة ..

ولعل الانسة فسترمان وجدت في وقوف اللواء برونيكو(قائد المخابرات) شخصيا ومايكا وعدد من العقداء والرواد والنقباء قريبا من مقعدها ما يطمئنها الى جدية عملها ..صحيح ان الجنرال لانج الوسيم الذي تتحفز للقائه مشاعرها ليس من ضمنهم ولكن المانيا هنا ..وهذا يكفي ..كانت فسترمان كمايكا ذات روح المانية عالية تحت كل الظروف ..فحين يتعلق الامر بالمانيا يتزحزح ما سواها الى درجة اقل في الاهتمام ..

وربما لذلك افتكت ابتسامة الجنرال برونيكو قائد المخابرات الذي حيا روحها القتالية من موقعها هذا خلف جهاز البرق ، وقد افرح بسلوكه هذا مايكا على وجه الخصوص كاكثرهم معرفة بفسترمان..وتذكرت مايكا ثورة زميلتها لمجرد انها وضعت مسدسها الى جانب مخدع بوداود بالزنزانة فاخذت تتحسسه الان على خاصرتها كما لو انها تخشى فقدانه .

ولم تستغرب مايكا ولا فسترمان ولا نينا ولا من معهن غياب الجنرال متلر قائد حامية المعتقل . فالرجل يضع أمن المعتقل فوق كل مهمة اخرى ..انه الان يعيد دراسة الوضع على الطبيعة كدأبه ..ألم يعرف عنه انه من طينة الجنرال ماكسن بمسل قائد اركان الفيلق السابع في ليمان الذي اخذ على زملائه تغيبهم عن قيادتهم واشتغالهم بفترات تدريب واجازات عوض الاستعداد للمواجهة على جبهة النورموندي..

ظلت مايكا تعلك افكارها ..وهي تقف قريبا من جنرال المخابرات المديد القامة . وقد توقعت ان يسالها عما وصل اليه امر بوداود ..لكنه تناول الموضوع من زاوية اخرى حينما قال :

ـ الماجوركلاوس غير مقتنع بافادات صاحبك..

وقالت كما لو انها صعقت :

ـ أهو من ابلغك.. يا حضرة ؟

وهز الجنرال رأسه في تثاقل قائلا في انكار :

ـ لم يبلغني..لكنه ترك ملاحظة بهذا المعنى .

و قبل ان تعرب مايكا عن تخوفها اضاف الجنرال :

ـ غير انني حين ذكّرته بما ننتظره من الرجل ..

قال لي مقتنعا ((اذن سايروا الامر بما ترون))

واتسعت ابتسامة مايكا وهي تقول لمحدثها :

ـ شكرا ..لك سيدي الجنرال ..

فقال وقد تناول اول نفس من سيجارته :

ـ لكن المسالة تحتاج الى حسم سريع..

فانت تعرفين طبيعة الظرف الذي نمر به ..

وحافظت على بقايا بسمتها وهي تقول :

ـ هو يقول ان الزمن لم يعد مناسبا ..

منذ ان حلت قواتنا بفرنسا ..

واردفـــــــــــت مسرعة :

ـ لكن رغم عناده.. سافعل ..لن افشل.

وضحك الجنرال قائلا كما لو انه يختتم حديثه في الموضوع :

ـ ام هل ان نفسيته تستحق شخصا اذكى من ماكيا

حتى يتم تطويعها..؟

ورغم انها ضحكت . ارتابت في نوايا الجنرال ..بل وراحت تتساءل وقد تراجعت بنصف خطوة الى الخلف ..هل يجري التفكير في اسناد مهمة تليين بوداود الى غيرها فعلا؟ ..هل المفتش كلاوس يكون قد اوصى بذلك بعد ان لاحظ ان المهمة تراوح مكانها ؟ ام هو مجرد اجتهاد من الجنرال برونيكو ؟

وبعد هنيهة من صمت لم يسمعا فيها الا طقطقات الرقن من اصابع نينا وحفيف جهاز البرق بين يدي فسترمان ..قال الجنرال كما لو انه يحادث نفسه رغم قرب مايكا من موقعه :

ـــ بلوغ المغيرات المعادية هذه المنطقة

لايعني الا شيئا واحدا وهو ان دفاعاتنا على

الحدود قد انتهت فعاليتها ..انهكها الهجوم

الاطلسي ..

واربك كلامه مايكا ..فمايكا على تعاظم مخاوفها .. التي اصبحت تصل احيانا درجة من الياس قصوى .. لا تريد ان تسمع ما يثبط العزائم من مصدر كبير كجنرال المخابرات ..فهؤلاء الكبار عليهم دائما ان يظهروا قوة المانيا ..اما ان يبلغ التباكي الى حد مثل هذه الرتب العسكرية السامية فذلك ما لم يستسغه حتى ضباط دول اقل شأنا كبولندة والدانمراك ممن سارت الركبان باخبار مقاومتهم البطولية ..

لماذا لايختتم الجنرال برونيكو كلامه في هذا اليوم الا بما يستفزها عن غير قصد ؟

ان خواتم كلماته لتعصف بما يستقر في اعماق قلبها : بوداود ثم المانيا ..فلماذا هي تحارب في الذي تحبه على المستوييـــــــن الشخصي وغيرالشخصي ؟ واشتاقت الى كلمة تشبه تلك التي يعرج من خلالها بوداود الى السماء اثناء لحظات الضيق ..ولانها تجهلها لم تزد على ان طوقت قامة الجنرال بنظرة استغراب لم يلحظ عنف تيارها لحسن الحظ ثم انحنت باتجاه جهاز البـــــرق حيث تقبع فسترمان . ولم تكن تدري لماذا كلما تذكرت بوداود الا ومر تفكيرها بمسدسها ؟..ولماذا يحدث هذا في يومها هذا فقط..؟ هل لان اوان استخدام المسدس وربما الرشاش الخفيف قد حان ؟

والى هنا استعادت المضادات الارضية زفيرها المحموم . في وجه سرب مباغت من طائرات العدو بعد ان تصدت له مقاتلات كانت على اهبة الاستعداد ..وكان الجنرال متلر يقف بصدر غرفة عمليات الميدان محاطا باقرب مساعديه. وهي غرفة قيادة الحامية غير غرفة المخابرات التي توجد بها مايكا و برونيكو والاخرون .رغم انها مثلها من حيث العمق الارضي وطبيعة الخرسانة ..

وكان هذا الضابط الصلب قد جعل من هذا اليوم يومه بحق تماما كشبهه الجنرال ماكسن بمسل اذ كان كلاهما يعتقد انه هو من يمثل المدرسة العسكرية الالمانية في ادق قواعد انضباطها وكانت مايكا تحب فيه روحه غير الانهزامية .

ان ماكسن و متلر ولانج ليشكلون ثالوثا تعتز به ثالوثا مفعما بالعسكرية الحقة وهي منصرفة الى التفكير في هؤلاء جاءتهم فسترمان مسرعة ببرقية تلقاها جهاز الابراق منذ حين **((على كافة الافراد استخدام الاقنعة الواقية ..قف..دون الرجوع الى القيادة فان الجنرال متلر مخول باعلان حالة رد اي هجوم ..قف..انتهى.))**

وككل الضباط اضطرت مايكا الى تابط رشاشها الخفيف دون الاكتفاء بالمسدس الذي اخذت تتاكد من وجوده على خصرها في كل مرة .

كان الجنرال متلر يواصل تعزيز دفاعات المعتقل يوميا حتى قبل سقوط هذه الاشارة التي اشعرته فعلا بقرب خطر ما .حيث امر بتموقع سلسلة من الدبابات الخفيفة الحاملة لمدافع " هومل " الاكيدة الاصابة ، و مدمرات الدبابات بانزرييغا فضلا عن تقوية خطوط الاستحكامات خارج سورالمعتقل ولولا خوفه من استفحال تكالب سلاح الجو المعادي لاطمان كل الاطمئنان الى تميز سلاح قوات المعتقل برشاش امجي 42 الرهيب الذي ترك اثارا نفسية خطيرة في

اوساط جيوش الحلفاء على جبهات القتال الاخرى ومع ذلك شدد على مضاعفة افراد ورديات الحراسة واستدامتها وتفتيشها ليلا في مباغتات غير متوقعة منه او من مساعديه الاقربين .. كل هذه المهام جعلته دائم الحركة ومسدسه الـــ " والتر38 . p" يهتز جنب خاصرته كالمجنون.بينما استلقى رشاشه الخفيف على ظـــــهره .. وفي لقاء الصباح رفعت مايكا يديها وهي تصرخ في فرح :

ــ ابلغوا كل المتشككين ان المانيا لن تسقط ..

وشاركها فرحتها اللواءان متلر و برونيكو بينما ظلت فسترمان واقفة امامهم بعد ان سلمتهم البرقية التي سقطت بين يديها على جهاز الابراق منذ حين ..كانت تتضمن خبر هجوم الماني مباغت بمنطقة الاردين حمل اسم **عملية مراقبة نهر الراين** ، و تؤكد على الحذر من اي توغل مضاد ..

وشربت مايكا على نخب هذا الخبر الى ان صارت ثملة رغم ان الثمالة حظرت منذ دخول القوات حالة طوارئ قصوى ، امـــــــا برونيكو فامر التهديد بالنسبة اليه لايزال جديا اذ ما معنى الهجوم المضاد ومقاتلات الحلفاء تغير على اصقاع المانية بشكل اعمق في كل يوم ؟ لكنه اخفى انطباعه عن زميليه خوفا من اعتراضهما سيما وان مايكا اصبحت تراه كما لو انه اكثرهم تشاؤما..كان لقاء الصباح سريعا بحيث لم ترد برقيات تستحق الرد غير تلك المتعلقة بهجوم الاردين بينما تم اعداد تلخيص عن مستجدات البارحة وهي في الواقع عادية ..ثم غادر الضباط قاعتهم متلر الى قواته على خطوط المواجهة و برونيكو الى مكتبه بالطابق الارضي و مايكا الى حيث تجلس فسترمان دون ان تنسى تحية نينا التي ارسلت بها من الزاوية الاخرى ،بينما اكتفت كلارا بالجلوس قريبة من الباب و ربتت حسناء المعتقل الحربي على كتف فسترمان قائلة :

ــ دائما تحملين لنا البشرى ايتها التركية ..

فقالت فسترمان وهي تشد على يد مايكا وتتنهد :

ــ لا تقولي " التركية " فتلك كلمة كان يقولها ....

ثم اجهشت بالبكاء ولم تكمل ..

وقبلت مايكا راس زميلتها وهي تقول لها :

ــ اسفة .. هي كلمة الجنرال لانج..الرجل الالماني

العظيم..

وتساءلت مايكا ..اين هم اولئك الافذاذ ؟ لماذا يتساقطون واحدا تلو الاخر لتحتفي بهم ذكرى الحرب فقط دون ان يشهدوا نتائـــــــج الامجاد التي صنعوها ؟

واستمرت فسترمان في بكائها لانها تبكي لانج وتبكي اسرتها التي تكون قد قضت تحت وابل الهجوم الاطلسي الذي تعرضت له مدينتها ، مدينة كولونيا ..اه.. يا مدينة العطور ..من يخبر فسترمان عما لحق بك من دمار ؟ من اجاز لنفسه ان يسفك عطورك لتسيح في الارض كمياه نهر " الراين " ؟ تساءلت الفتاة الوديعة ثـــــم ازدادت حدة بكائها ..ثم قامت وطوقت مايكا بذراعيها وهي تقول :

ـــ اه يا مايكا ..لماذا افقد حبيبي وحبيبتي

في زمن واحد ؟ لانج و كولونيا معا ..

وهي تحاول التخفيف من صدمة زميلتها كان الذي يثير حنق مايكا ان تحليق المقاتلات المغيرة ودويها امسيا شيئا اعتياديا في هذه المنطقة وكأن القوات الالمانية اصبحت خلوا من المضادات والمقاتلات المواجهة معا ..اه.. يا حرمة التراب الالماني التي كانت حتى العصافير تحسب لها الف حساب ..

ومرت ايام على هذا النحو المخيف الى ان جاء يوم كان فيه الجنرال برونيكو يخلد الى مكتبه يتتبع محطات اذاعية معظمها سكسونية كما لو انه في تواصل مع العم بوجمعة الذي لم يفارق المذياع الصغير اذنه منذ الاعلان عن الهجوم الالماني المضاد في الاردين ، سيما وقد تفرغ الى ذلك بعد ان اوكل الى بوحجلة امر المتجر للعمل عنده كحل لتخفيف ديونه التراكمة ..كان نقاش العم بوجمعة لجلاسه يعلو دائما امام المتجرحول غلبة الالمان من عدمها اما حين ينصرف الى الداخل فغالبا ما ترى اصبعه يحرك موجه المذياع الصغير من القسم العربي بالاذاعة البريطانية الى اذاعة القاهرة الى راديو بغداد الذي يقول انه يرصد بصعوبة لكن الجميل فيه انه موال لالمانيا ..

وبخطى هادئة نزلت مايكا السلم الاسفل الى حيث مكتب اللواء برونيكو فوجدت وجهه قد تجهم وهو يتتبع محطات اخبارية عدة في ان واحد ..وحين رفع بصره اليها كان المذيع لايزال يتحدث عن سقوط برلين من قبل الجيش الاحمر السوفياتي فوضعت يديها على راسها كما لو انها تتقي هول الفاجعة دون ان تصرخ . لكن برونيكو قال متنهدا بعمق :

ـــ شخصيا لم يفاجئني هذا لان مقدماته

كانت ماثلة للاعين ياعقيـــــــــــد.

وسكتت مايكـــــا اذ ما جدوى الكلام ؟..والتقطا احدى الاذاعات الموالية للاتحاد السوفياتي وهي تلوح باللائمة على المعسكر الغربي الذي تقاعس عن تعزيزالهجوم السوفياتي لان تقاعسه كان سيحقق له هدفين في ان واحد هما القضاء على النازية بشكل مباشر واضعاف السوفيات بطريقة غيرمباشرة ، فعلقت بقولها :

ـــ ذلك يعنيكم كحلفاء ولايهمنا نحن..

الفصل الخامس عشر :

النيران الاخيرة :

في هذه اللحظة قام حارسا باب الغرفة الفولا ذية السفلى بافساح الطريق امام اللواء برونيكو الذي ادهشه المشهد فقال مرتاعا :

ـــ اتبكيان ؟!

فاندفعت فسترمان الى القول من داخل دموعها :

ـــ وهل ترى في ظرفنا الراهن ما يدعو

الى غير ذلك يا حضرة ؟

وحين اكتفت كلارا بصمتها ، هز راسه منصرفا وقد غمغم بدوره :

ـــ لقد كا ن على الفوهرر منذ البداية ان....

وغادر دون ان يكمل كلمته الغاضبة خارج القاعة ..

يشتد القصف على المعتقل الحربي فيؤمر بفتح ابواب الزنزانات ، ويخرج الاسرى في لغط وفوضى ، فيختلطون بالحراس والجند الالماني وقد وضع افراده على افواههم اقنعة واقية ، وفي كل مرة تهوى قذيفة من جهة من الجهات ، فتنفجر لتصيب افرادا وفي هذه المرة تنزل شظية منها فتصيب رجل بوداود الذي كان لايزال خارج بوابة زنزانته ، ويقتل الذي كان يليه ، يغادر الاسرى بوابات المعتقل وقد فتح معظمها تلقائيا بفعل شدة القصف ، ثم يعلن حرس المعتقل استسلامه بعد مقاومة شرسة لم تستمر لامر ما .فيتوقف المهاجمون عن القصف بعد ذلك ، وتقدمت قوات امامية من مشاة الحلفاء ، فاخذت تقتحم البنايات ،جناحا بعد جناح اعتمادا على طلقات نار احتياطية استباقية ، ثم شرعت في اخلاء الجرحى والتوجه بهم فرادى الى حيث اسراب العموديات ، التي ربضت قريبا منذ حين ، وكان من بين الحلفاء فرقة مزيج من الامريكان والانجليز والفرنسيين يقودها الضابط لوكلير ولذلك اندفع افرادها الفرنسيون للتعرف على الاسرى من الجيوش الفرنسية .الذين اخذ بعضهم يعلنون اسماءهم قبل ان يصلوا اليهم :

ـ انا جون.. (القنفذ)

ـ انا العريف اندريه

ـ انا كايتا

.. ـ انا .. انا ..

ـ انا كارول ..انني جريحة ..

ومن داخل المه صاح بوداود :

ـ انا بوداود ..اني مصاب ..

ـ انا الملازم الاول (ربير)..

ولما وصل الجنود الى المعتقل عثروا على بعض الاسرى وقد لفظوا انفاسهم تم التعرف منهم حتى الان على عدة افراد منهم جورج .

كان الاسرى غير المصابين ، يعلنون اسماءهم ويهرعون نحو قوات الحلفاء ، فيتلقاهم الجنود الفرنسيون ، وكان من بينهم الملازم الاول (ربير) الذي ما ان بلغ موقع قيادة الفرقة حتى عاد الى حيث سقط بوداود ، وكان مرفوقا برجلين احدهما ضابط سام والاخر ضابط صف ،بينما سبق رجال اسعاف الى مواقع بقية الجرحى ، تقدم منه الضابط وقال :

ـ بوداود هل انت بخير ؟

فرفع بصره في تعب وقد كان ملقى على الحمالة ، ثم قال فرحا وهو ينظر تارة الى وجه الضابط ، وطورا الى رتبته :

ـ من ؟ بول ؟ اهلا بك حضرة الرائد ..

ثم تقدم منه ضابط الصف الذي انحنى واخذ يقبله ..فقال بوداود :

ـ ياللمسرة .. محمود ..

فصحح الرائد بول قائلا :

ـ بل العريف الاول محمود ..

وبعد بوداود الذي اخذ شبه يهذي من اثر الاصابة عانق محمود القنفذ وهو يقول له بكلمات اصبحت فعلا فرنسية بطول الدربة على الكلام :

ـ اشكرك..لقد ابلغتني بنت لبعيد وصيتك الي

وفهم القنفذ انه يشير الى اصابته في المناورة العسكرية التي ادخلته مستشفى مدينة الساحل حيث كانت نتيجة تامر من العريف اندري الامر الذي جعلها تختلف عن اصابات زملائه الاربعة بحيث جاءت من الخلف.ولم يلبث العريف اندري يومها ان تباهى بذلك بمحضر القنفذ الذي سرعان ما نقل الخبر الى بنت لبعيد.

و بامر من الطبيب الذي حضر للتو كف بوداود عن الكلام ليتلقى اسعافا اوليا قبل نقله على جناح السرعة الى احدى العموديات ..

موجات من اغماء اخذت تعاوده بين الفينة والاخرى كانت من الشدة بحيث لم تسمح له بمعرفة وجهة العمودية التي اقلعت من جوار المعتقل ، و بعد ان اودع احد المستشفيات اخذ يتفطن الى ان . الغرفة التي يوجد بها تتسع لكثير من الجرحى . غير ان حيرته سرعان ما اخذت تنقشع ، لما سمع لغة التخاطب بين الممرضات والاطباء . انه بفرنسا اذن . وكان لابد من مضي بعض الوقت ليتعرف على جيرانه من الجرحى الملقين على الاسرة القريبة منه . كان كايتا يحتل السرير الرابع ، وكانت مدام كارول التي تعرف عليها ايام الاحاد بالبناية الكبرى ، ثم كان على السرير الذي خلفها الجريح المفاجاة القنفذ بالذات ، الذي قالت كارول ان

اصابته على اليد لم تكن ذات بال رغم الضماد الضخم الذي يلف ذراعه ،فاشتط وهددها بالانتقام فضحك بوداود على مضض وقد زايله الاغماء وقال:

ـ انه كوميدي حتى اثناء الحروب ..

فاخذ القنفذ يحيه بذراعه ذات الضماد كما لو انه يطمئنه ان تعليقه قد وصل ، ثم قال :

ــ باعتراف الجراح العسكري ان اصابتي

تفوق من حيث الخطورة كل جراحكم

ايها الجبناء ..

عندها ضحك بوداود رغم حالته الصحية ، وضحكت كارول قبل ان تتحدث بمرارة عن جارتها مدام ميلين معتقدة ان لدى بوداود ما قد يقوله بشانها لكنه لم يزدعلى ان رد على سؤالها بقوله :

ــ اذكرها تلك الثائرة الفاتنة ..

وتنهدت كارول بحسرة وتساءلت :

ــ لادري ماذا صنع الالمان بها

فقد اختفت منذ احالتها على التحقيق ؟

قال بوداود :

ــ *يبدو انها نقلت الى احد معتقلاتهم في "* جروس روزين"و"بوخين فالد" او انهم الحقوها بمعتقل " أوشفيتز " ؟

فصاحت كارول ملتاعة :

ـــ " اوشفيتز " ببولونيا ؟ يا للسماء.

ـــ قد يكون ..

فنبرت في استسلام :

ــ هذا فضيع ..

ثم اختتمت ثورتها وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

ــ ما كان لبعضهم ان يزين لها ما حاولت فعله

اذ كيف لنا ان نتجسس على الالمان وهم

رواد الجوسسة ؟!

وادرك بوداود مغزى كلامها ، حيث سبق لعبد الكبير و القفصي ان اخبراه ان الاسمر هو من شجعها على رصد معلومات صدرت عن الضباط الالمان حول تطورات الحرب ، فسكت

بوداود رغم ان كارول كانت تنتظر ان يبدر منه شيئ بخصوص مدام ميلين تكون مايكا قد ابلغته به . لكنه لم يزد على ما قاله بشانها ..

والى هنا قال مامادو الذي لم يشارك في الحديث من قبل :

ــ هم ايضا حاولوا استدراجنا لذلك ..

فاجاب بوداود وكأنه المعني وحده بكلام مامادو :

ــ حاولوا فقط وانتهى فعلهم في حدود المحاولة يا مامادو ..

وهز هذا راسه ان صدقت ..

هنا اخذ القنفذ يفاخر بترقيته الى رتبة رقيب قائلا :

ــ بوداود..اسمع.. انا رئيس محمود وهذا يكفيني ..

وكاد صدر بوداود ينفجر ضحكا فعاوده سعال حاد..الى ان احتجت مدام كارول على القنفذ..فقال :

ــ وصرت رئيسك انت ايضا ام معك رتبة ؟

فضحكت وقالت :

ــ انت رئيسنا كلنا ..

وتحدث القنفذ عن ايام ثكنة الراس حيث اقترح محمود ترقية هيلين قييمة جناح اللذة ..

وعشية ذلك السبت زارهم الرائد بول والعريف الاول محمود والرقيب القفصي ، ورجل اخر ، وكان بوداود ينتظرهم على احر من جمر علهم يحملون اليه بعض ما انتهى اليه امر مايكا ، غير ان الرائد بول لم يزد على ان قال اثر فترة من جلوس وحوار و ضحك انها توجد ضمن الجرحى الالمان بالمستشفى العسكري.

وساله بوداود جادا :

ــ وما شان مايكا بالمستشفى ؟

وقال الرائد بول :

ــ اثناء هجوم الحلفاء على المعتقل الحربي

اطلقت على نفسها النار محاولة الانتحار

وعلق بوداود في سره : المجنونة ..ثم تذكر تهديدها له بانها ستقتله وتقتل نفسها.

والى هنا تحدث الرجل الذي رافقهم وكان بزي مدني عكسهم وكانه خارج حالات الطوارئ كلها، واستمع اليه بوداود وهو لايزال تحت تاثير المفاجاة ، هل حقا انه وجها لوجه امام الرقيب الاول انطوان ؟ انطوان الذي لم تستوعبه كل الاحداث التي اعقبت ما بعد ثكنة الراس .. ماذا يقول الان..لقد افاد بان لجنة تحقيق تابعة للحلفاء اخذت اقوال الاسرى الالمان قبيل ان يصبحوا في وضع صحي يسمح بمحاكمتهم ، واطمع كلامه هذا بوداود في ان يكون انطوان اكثر

الزملاء اطلاعا على اخبار هؤلاء الاسرى ، لكنه ارجأ استفساره الى وقت لاحق وكأنه يمهله وقتا ليستجمع فكرة ما عن مايكا التي لم يسبق له ان عرفها او عرف شيئا عنها ، وافرح بوداود لقاؤه به لانه سيوصيه بالبحث عنها فقط تاركا له اختيار الطريقة التي ستمكنه من الوصول اليها .. فهو انطوان الذي لايعجزه فعل شيء في نهاية الامر..وطوال حديثه معه كان بوداود يكابد سؤالا اهم وهو اين كان انطوان طوال الحرب ؟ وما ان ساله حتى بدا وكأن الامرلايستحق كل هذا الاهتمام في نظره :

ــ انا الاخر اعتقلت في معركة " ليل"

واودعت سجن " "بوخين فالد"، "..

وابتسم بوداود وهو يساله :

ــ لكنني فهمت انك كنت بشمالي افريقيا؟

فقال بكل برودة اعصاب وبشيء من الابتسام :

ــ وهذا ايضا محتمل ..

عندئذ صاح فيه القنفذ :

ــ هل كنت في " بوخين فالد" سجينا ام سجانا ؟

فقال مصفقا بيديه في زهو :

ــ كليهما معا.يا صغيري ..

ولم يكن من السهل على انطوان فور ذلك ان ينتقل الى المستشفى وان يزور مايكا رغم ان الرائد بول كان برفقته فهي لاتزال تحت طائلـــة التحقيق الذي لم يؤجل الا بسبب وضعها الصحي وصعوبة نطقها هـي وبقية الجرحى الالمان وكانت تلك اول خيبة يمنى بها الرقيـــب الاول اللغز..لكن الاهم بالنسبة اليه انه كان والرائد بول في مقدمة من استقبلوها فور الافراج عنها بعد صدور الحكم ..

ــ انا الرائد بول ..وهؤلاء اسرى سابقون

تعرفينهم ..

وبدا على ملامحها انشغال مزودج فهي لم تكن تعتقد ان اسيرة معادية مثلها ستحظى بكل هذا الاهتمام من قبل عبد الكبير و جوفر و القفصي ومامادو واذا كان موقف هؤلاء قد وجد تفسيره عند مايكا في كونهم اصدقاء بوداود فما بال الرائد وضابطي الصف اللذين يقفان الى جانبه ؟ والى هنا قال الرائد بول وكأنه كان يبادلها خواطرها :

ــ وهذا الرقيب الاول انطوان ..

.. اتسعت ابتسامتها وهي تشد على يده ..وتقول وقد تبللت عيناها :

ــ اهلا بك ..

ثم اكملت في سرها : انت حبيب بوداود..لكم حدثني عنك ..

وهز راسه :

ــ مرحبا ..

وواصل الرائد :

ــ وهذا العريف الاول محمود..

ــ اهلا ..

وتنهدت معلقة في صمت : محمود..ابن بلدة الثيران..بلدة بوداود لم يسبق لي ان اجتمعت به لكنني اعرفه من خلال حديث بوداود عنه ..

اودعت مايكا وبعض المعفى عنهم جناح احدى الثكنات وهي وان الزمت بعدم مغادرة باريس الا انها لم تعدم الحصول على اجازة اسبوعية لزيارة منزل عشيقة انطوان..

وفي احد كازينوهات باريس المتوسطة الفخامة التقت بوداود لامر ما بعد خروجه من المستشفى وكانت قد غادرت مكان الاقامة نحو عنوان عشيقة انطوان ..

لم تاتلف عيناه منظرها لاول مرة وهي ترتدي لباسا مدنيا قوامه سترة سماوية اللون وسروال متوسط الضيق وحذاء ذو كعب عديم العلو، لكن الذي ظل دليلا دامغا على انها هي مايكا هو شقرة عينيها ومخملية شعرها الناعم وصوتها الذي يحسن سمع بوداود التقاطه وتميزه من بين الاف الاصوات .. فقالت تعليقا على اعجاب بوداود بثوبها المدني :

ــ لقد اشتراه لي انطوان وعشيقته ..

فقال بوداود :

ــ بل صارت زوجه كما ابلغني ..

وابتسمت مايكا وهي تاخذ مكانا قريبا وتقول :

ــ هنا لا يحمل الامر كل هذا الفرق الذي

تراه انت..

وعز عليه ان تمثل امامه كنمرة شرسة جرى استئناسها وتقليم اظافرها لتنصاع الى نوع من الخنوع لم يذهب لحسن الحظ بكل قوة شخصيتها وربما ادركت اشفاقه هذا حين حيته وهي تقبله مطولا قبل ان تجلس قريبة منه ، ومن حديثها خيل اليه انها لم تفقد زيها العسكري فقط بل تناقصت رزانتها فصارت متسرعة . في حركاتها و في كلامها الذي اصبح يتسم بالعناد و الاصرار و الغرابة .لم تكن مايكا على هذه الصورة ، تكره الدنيا ومن عليها ، لقد كانت في المعتقل الحربي اكثر من بذلك المعتقل تفاؤلا ، ووثوقا بالحياة ، كان يغيضها سماع اية كلمة تشاؤم قد تصدر حتى عن اسمى الضباط..اما اليوم فقد عصفت بجرأتها رياح الخريف كريحانة القيت سهوا في العراء .. بادرها بوداود بسؤاله :

ــ وتطلقين النار على نفسك ؟

فقالت بجـــــــد :

ـــ اه.. لو كنت قريبا مني ساعتها اذن لالتهمتك

تلك النار معي ..

وابتسم وقـــــال :

ـــ والان هل استعدت عافيتك تماما ؟

ـــ نعم ..وانت ؟

فقـــــــــــال:

ـــ انا ايضا ..قلت لمحمود اما نحن

فلا يصيبنا او يقتلنا الا الفرنسيون حتى

ولو كنا في بلد خارج بلدهم .. فقال لي

لاتزال على افكارك القديمة رغم

ما كابدته في المعتقلات الالمانية ،

صحيح ان الفرنسيين هم من اصابوك لكنهم

هم ايضا من يسهرون على علاجك ..

عندها قالت وشعرها يتمايل في غنج :

ـــ اللئام.. سبقوني اليك كما سبقوني

الى رمقي الاخير..

قال بوداود مجنبا حديثهما هذه الحدة :

ـــ والى ما انتهى اليه امرك ؟

فقالت لـــــــــــه :

ـ لقد افرج عني نهائيا ثم سيسمح لي

بالعودة الى المانيا بعد فترة

اعتقد انها لن تطول ..

فقال وقد سبقته حيرته :

ـــ أتغادرين ؟ وانا ؟

وتراجعت الى الخلف وقالت و هي تطقطق حذاءها:

ـــ خذ عنواني ورقم هاتفي وحين تحسم ولاءك

اتصل بي اما ان ظللت على تذبذبك فانس

انك عرفت واحدة بهذا الاسم ..

واربكه كلامها بل واحزنه فاخذ يتساءل. هل هي صادقة ام انها تمزح ؟.. وسالها :

ــ احسم امري لصالح من ؟

عندها ازدادت غضبا وحملت محفظتها اليدوية وهمت بالانصراف وهي تقول وقد اجهشت بالبكاء :

ــ لكانك تقول لي لقد انتهت المانيا ولم يبق الا

فرنسا ومن ثمة اصبح ولاؤك محسوما ؟

وذهل بوداود ..هل مايكا بكل ثقلها تبكي في لحظة ما ؟ اية عظمة ينالها امر قد يبكى مايكا ؟ ثم ايهما كان ينبغي لها ان تبكي الاخرى ؟ المانيا ام مايكا ؟ ..واردفت :

ــ ارفض المكوث بارض كنا فيها

بالامس اسيادا فصرنا اسرى ..

هل نسيت اننا ابكينا تشرشل يوما اثناء زيارته

لباريس في اوج الحرب ؟

فقال وهو يعتقد ان ما يجري بينهما ليس الا حلما :

ــ اقول لك وانا ؟

ــ انت في بلدك .. اليست الجزائر فرنسية ؟

الم يكن من الصعب عليك ان تقول ان جنسيتك

غير فرنسية ؟ تشبث بالهوية الفرنسية اذن الى

ان تجد غيرها ..اما انا فلي هويتي التي لن

يسقطها لاهجوم الحلفاء ولا غيرهم يا حبيبي ..

ومحتفظا بكل امتعاظه سكت بوداود كما لو ان الكلمات كلها هربت من فمه تباعا بينما تراجعت هي عن فكرة الانصراف مفضلة ان تظل واقفة في صمت متحاشية ان تبادله النظر..لكنها بعد هنيهة عادت الى الجلوس على مقعدها مصطحبة هالة السكوت التي تجللها ..فقال لها هامسا دون ان يرفع بصره نحوها لكيلا تستفزها نظراته :

ــ ما الذي يزعجك ؟ ماذا علي ان افعل لكي ارضيك ؟.

فقالت ويدها تقترب من يده الممدودة على الطاولة :

ــ لن انسى تماطلك الذي اضاع

المهمة التي حاولنا اسنادها اليك ..

ولفها بنظرة استغراب وقال كلمة مصحوبة بزفرة قوية :

ــ لقد انتهى كل شيء يا مايكا ..

وصاحت بصوت اعلى وقد عاودتها حدتها وهي تبعد يدها عن يده :

ـ اكره كلمة انتهى فلا ترددها.. دعها

للحلفاء لانها اصبحت الذ كلمة في افواههم ..

قالتها في غضب وقد احمرت وجنتاها .. ثم اخذت تهدأ ربما بفعل اصراره على الصمت ، الى ان قالت وهي تمسك بيده مرة اخرى :

ــ هنيئا لك الرتبة الجديدة التي حظيت بها مقابل

رفضك تحقيق رغبتي ورغبة المانيا..

وقـــــال :

ــ ومن ابلغك بهذا ؟

ــ خليلة انطوان وقد سرها ان تترقى الى رتبة

مرشح في حين اصبح رفاقك رقباء فقط..

فقال كما لو انه لايعير الامر كل هذا الاهتمام :

ــ اني احاول فقط ان احصل على تسريح من الجيش

فانا لااريد رتبة مرشح ولا رائد..لكنهم يتحججون بان

مدة عقد انتسابي الى الجيش لما تنفذ بعد..

وضحكت تحت وطاة عنادها وقالت باسلوب لم يتبين بوداود مقدار الجد فيه من الهزل :

ــ اذن يضايقك فعلا وجودك في الجيش الفرنسي ؟

وابتسمت مضيفة وقد اتسعت عيناها في تعجب فعلا :

ــ لم اكن اعرف هذا من قبل ..

وانفجر ضاحكا الى ان اضحكها معه ..ثم اضافت متنهدة وعيناها تسرحان بعيدا :

ـ نعم يرقّونك مقابل عدم نزولك عند رغبتي .

رغبة الغيستابو،وانا من ابلغت المحكمة العسكرية

امام قضاة الحلفاء برفضك الانخراط في الجوسسة لصالحنا ..

وسكتت لتتنهد بقوة ثم اردفت :

ـــ استدعتني المحكمة بعد الافراج عني

لرفع شكوك حامت حول موقفك

بعد ان كادت تفهم من كلام بعض رفاقك انك كنت

جاسوسا تنقل الي ما يدور في اوساط الاسرى ..

.

وقال في شيء من العصبية هذه المرة :

ـــ ولكن ما الذي يغضبك ومعظم الاسرى شهدوا

لصالحك مما عجّل بالافراج عنك ؟

وهزت راسها *في تذمر وهمست كما لو انها تحادث احدا اخر غيره :*

ـــ و ما جدوى حريتي وقد سقطت المانيا ؟

ثم اخذت تتفرس في وجهه كما لو انها تجدد معرفتها به وتقول :

ـــ يعود الفضل في تبرئة ساحتي الى تفهم القاضي العسكري

الامريكي اما الفرنسيون والانجليز فلم يعتدوا بشهادات

الاسرى لصالحي لانهم ممن لاتزال تقودهم ثاراتهم واحقادهم. ..

ـــ وماذا فعل هذا القاضي الامريكي ؟

ـــ حين زعم المدعي الفرنسي ان رتبتي كضابط سام

تلزمني بما يلزم من كانوا يصدرون الامر والنهي

ايد القاضي الامريكي حجج دفاعي الذي قال ان الرتب

النسائية في الجيش الالماني كانت رتبا فخرية فحسب

والدليل انه كان ليس من حق المراة ان تصدر

امرا الى رجل.. باستثناء بعض الاسماء طبعا..

وتبسم بوداود وسالها :

ـ وهل كان مدعي المحكمة فرنسيا ؟

وضحكت مايكا قبل ان تتنهد وتقول :

ـــ انت تعرف ان الحلفاء الامريكان والانجليز

يعاملون الفرنسيين من باب جبر الخواطر وحسب ..
على اعتبار ان هؤلاء لاحول لهم ولا قوة

..والدليل انهم لم يحظوا بمحكمة مستقلة

عن الحلفاء كما هو الشان بالنسبة للانجليز

والامريكان والسوفيات..

وقال بوداود ضاحكا:

ــ يعني لم يمنحوهم الا هذا المدعي الذي

حاول ان يقيم عليك الحجة ؟

وضحكت وهي تقول مؤكدة ذلك باشرة من يدها :

ــ كان يخيل اليه ان من تمثل امامه انما هي احــدى

السجانات الشهيرات اما ايرماغريس او ماريا منـــــــدل

او اليزابيث فولكينارث او جيني اينـــــــدا

واولئك لم يكن للفرنسيين اي دور في محاكمتهن .

واضافت مايكا محتفظة بابتسامها :

ــ لعل الحلفاء سمحوا بتعيين هذا المـــــــدعي

الفرنسي هذه المرة لان بعض الجنود الفرنسيين

شاركوا في عملية القاء القبض علينا بالمعتقل

الحربي..اصدقاؤك الرائد بول ومحمود ..الخ

وسالها بوداود :

ــ سيفرج عن زميلاتك اذن ؟

ــ اتمنى ذلك ..لكم يؤلمني امر فسترمان

الفتاة الرقيقة التي لاتزال تبكي فقدان عشيقها

الجنرال "لانج" على جبهات ستراسبورغ

كان هو الاخر المانيا حتى النخاع ..

وواصلت مايكا كلامها في حزن وشجن مريرين :

ــ فسترمان ما فتئت تستنطق عن أهم الاوامر

التي تلقاها جهاز البرق (التيليكس) الذي

كانت تشرف عليه في حين توجه الى نينا اسئلة مركزة

حول الوثائق التي كان يتم رقنها من طرفها

والى من كانت توجه ومن كان يوقعها ..الخ..

وهرب بوداود الى صمته كعادته وقد انصرف تفكيره في هذه المرة الى انطوان ، ما الذي اعاده الى الاحداث بعد غياب طويل ،بل وبزي مدني هذه المرة ؟ هل كان في صفوف قوات فرنسا الحرة بشمالي افريقيا كما ادعى حسبما افاد محمود ؟ كيف حدث ذلك وقد افترقنا في معارك " ليل " ؟ ..ثم لصالح اي طرف كان هناك ؟ هل ظل محسوبا على الفرنسيين طوال مدة الحرب ؟ الم تشر مايكا على بوداود بالتوجه هو الاخر الى جيش فرنسا الحرة بشمالي افريقيا ؟ هل كانت تريد له ان يفعل ذلك اقتداء بانطوان ؟ هل كانت تعرف انطوان ؟ هل هو جاسوس ؟ جاسوس؟ اية كلمة كبيرة تلك ..لماذا فرح ليلة عاقر عشرا من قنن الخمر ..؟ ما الذي تلا ذلك ؟ لقد كتم سر فرحته الى ان خيل لبوداود انها تزامنت مع صدور انذار برلين الذي علمه افراد الثكنة من خطاب الجنرال الفرنسي الذي اجتمع بهم في باحة ثكنة الراس ابان الصباح المباشر لليلة الفرح تلك..كانت فرحة انطوان متزامنة مع صدور انذار برلين اذن ؟؟؟..لكنه نفى يومها لبوداود ان يكون جاسوسا للالمان او انه الماني في مظهر فرنسي ..وهكذا ابقى حقيقته في دائرة الغموض من جديد معللا فرحته بانه تمكن من المراة التي قضى وقتا طويلا في مراودتها بباريس وانها صارت خليلته وهذا ما يفرحه.. ثم جاء بحكاية معتقل " "بوخين فالد" زاعما انه جيء الى هذا المعتقل باسيرة فرنسية لبثت به ليلتين ثم تم ترحيلها ليلا الى معتقل " اوشفيتز" فظن بوداود ورفاقه انها لم تكن سوى مدام ميلين التي لاتزال مفقودة رغم تحرير ذاك المعسكر من طرف السوفيات واعادة معتقليه الى بلدانهم و اشتدت حيرة بوداود.الذي قال لمايكا وقد استزاد مشروبا مما يبيحه لنفسه :

ــ يحيرني امر انطوان ؟

فقالت في لامبالاة وهي لاتزال تضع يدها على خدها :

ــ انت ادري به مني فهو زميلك ..

فانتهز الفرصة ليسالها :

ــ الم تسبق لك معرفة به ؟

وارادت تضخيم شكوكه بقولها :

ــ وهل يسال المخبر عن عملائه ؟

فضحك بوداود وقال وهو يفتح قنينة عصير ويصبها في الكوب :

ــ زعم انه كان في شمالي افريقيا .

وابتسمت وقالت :

ــ اذا لم يكن ضمن كتائبكم هناك فاكيد انه كان

بالفيلق الافريقي

وسالها بوداود صادقا :

ـ وما كانت حقيقة هذا الفيلق ؟

وتنهدت كما لو انه ذكّرها بجزء من المجد المنهار :

ـــ انشء عام 1941 وكان يتكون من المان وايطاليين

وكانت مهمته قتال الحلفاء في شمالي افريقيا.

ومن هنا جاءت نسبته الى شمالي افريقيا

واردفت وعيناها تحاصرانه :

ـــ ثم الم تكن انت من ربط الاتصال بيني وبين

انطوان هذا في باريس بعد ان زارك في مستشفى

ستراسبورغ ؟

ـ بلى ..

ـ واذن كيف لي ان اعرفه من قبل ؟

وتنهد بوداود وهو يشعل لفافة اخذ يدخنها مرددا :

ـــ انه لغز.. انه لغز.. انه لغز منذ ان التقينا

وحاله تتغلز الى يومنا هذا ..

وارادت استفزازه بقولها :

ـــ لغز.. مثلك تماما ..كلكم الغاز من الصعب

تحديد ولائكم..

وهز راسه وهو يعظ على شفتيه وقال :

ـــ ثم الا تلحظين انه هو الوحيد الذي يحتفظ

برتبته كرقيب اول في حين تمت ترقية

الجميع بعد الحرب ؟

لكم اضحكني وهو يؤدي الي التحية على

اعتبار انني اعلوه رتبة ..

وفضلت الالمانية الحسناء اللواذ بالصمت تاركة بوداود يغوص في لجة تفكير عميق حتى نسي مشروبه ..ثم قالت هامسة وهي تمسك بيده :

ـ وهذه بسيطة ايضا لم يرقّ لانه لم يقدم شيئا

لصالح الحلفاء اثناء الحرب ..

ولم يبتسم كما توقعت وهو يسالها وقد انتبه الى خبث ما ترمي اليه :

ـ ماذا تعنين ؟

ـ اعني ان الترقية لم تمس الا من قدموا اعمالا

يستحقون عليها الترقية ..

ـ وماذا قدمت انا مثلا ؟

وابتسمت بسمة خفيفة وقالت وهي تنظر الى الباب :

ـ ظللت وفيا لفرنسا ولم تغضبها وهذا

ايضا انجاز..

ولم يستمر في الحوار..بينما واصلت هي اغفال سهومه واخذت تتناول المشروب الذي امامها ، متحاشية النظر اليه الى ان خطرت على باله فكرة فقال:

ـ انوي الحصول على اجازة قصد زيارة الجزائر..

فهل سترافقينني ؟

وانكفأ فضولها ونظرت اليه دون ان تجيب لتشعره ان امرا كهذا صار يعنيه لوحده ..وقالت بعد ان ارتشفت جرعة من كاسها :

ـ اذن ستجد ذهبية في انتظارك ..

فقال على الفور وكأنه يطمئنها :

ـ ذهبية بصدد الزواج الان..

اكتفى بقول ذلك واكمل في نفسه ((قد يكون زواجا وهميا ماسويا))..في حين نسيت مايكا غضبها وسالته على الفور وهي تضغط على يده :

ـ ومن اخبرك ؟

ـ اخي "علي " في رده على رسالة كنت قد بعثت

بها اليه ايام مكوثي بالمستشفى ..

وكتم بوداود غرابته لاهتمامها بامر زواج ذهبية ، فتجاهل ذلك ولما توهمت ان حيرة ما لا تزال تركبه عادت الى صميم الموضوع وسالته :

ـ ولماذا علي ان ازور الجزائر

مادامت الجزائر تعني فرنسا وها انذا في فرنسا..؟

واستطردت :

ــ ثم هل نسيت انهم الزموني بعدم مغادرة باريس ؟

فقال بوداود :

ـ مكوثك بباريس سيسمح لنا باللقاء فيها دائما ..

وقالت في عناد مشيحة عنه بعنقها وقد سحبت يدها تاكيدا لانزعاجها :

ــ لن اعود الى لقائك ..بل لولا ظروف

بلدي لسافرت الى مدينتي " سانت بيتر

اورد نج " فور انقضاء اقامتي الجبرية

وهز راسه ايجابا ثم قال :

ــ تحنين الى لقاء فتى الاناضول اذن..

وضحكت حتى اغفلت كل احزانها وقالت :

ــ وهكذا سيعود كل منا الى قواعده سالما ..

انت الى حسناء بلدة الثيران وانا الى فتى الاناضول..

كانت ضحكتها تلك ايذانا بعودة الهدوء الى تخوم مشاعرها في نظر بوداود.ولم يخنه حدسه حيث استعادت كلماتها نعومتها ، طراوتها ، سحرها..بينما استانفت عيناها كل اغرائهما وسحرهما اللذين عرفهما بوداود ايام السجن الحربي ، وهي تساله :

ــ وتذهب الى بلدك وتتركني هنا ؟

انها مايكا هكذا هي ، بل هكذا اصبحت ابان فترة ما بعد الحرب ، حاملة كل هذا الشك. هذا الانكفاء. هذا الاندفاع ..هذا التردد. هذا التناقض..ثم ايضا هذا الانبساط ..هذا الانشراح هذا الحنو الدافق الذي ياخذ عذوبته وصدقه من كونه ياتي فجائيا لاتمهيد له .. وجميعها عوارض حالة اصابتها نتيجة عنف الصدمة ، فشقراء المعتقل الحربي لم يدر بخلدها يوما انهيار الرايخ الثالث وانها ستعيش شبه مشردة نتيجة لذلك.. و شعورا منه بثقل الوطاة النفسية التي تكابدها ظل بوداود يتحمل مزاجها المتقلب لايهرب منها الا لصمته وصبره ، او ليست هي المرأة التي حولت سجنه الى فسحة سياحية ذات يوم ؟ وبددت وحدته في الزنزانة بزياراتها الفجائية كلما دخل الليل هزيعه الاخير ؟

ــ انت هنا عند انطوان وخليلته وهي

من اصول جرمانيـــة كما اخبرني...

وتذكرت مايكا ان هذه الخليلة وانطوان قد وقعا تعهدا باقامتها عندهما مرة في الاسبوع كل ذلك تلبية لرغبة بوداود ، مع اثبات حضورها يوميا لدى مصالح الحلفاء..

..قالت لبوداود كما لو انها تحادث نفسها في حسرة وهي تكاد تجهش بالبكاء :

ــ سكان المانيا يغادرونها اليوم افواجا

افواجا هائمين على وجوههم بعد ان

استحالت خرابا ..

واضافت من داخل تشنجات بكائها :

ــ والحلفاء يعقدون مؤتمرا في

بوتسدام امعانا في التحدي ..تصور ان

اقدام تشرشل وستالين و ترومان تطأ

ارض المانيا العظيمة تشفيا فينا ؟

وليخفف عنها من هذا الحزن ادنى وجهه منها وقال :

ــ 45 الف قتيل سقطوا في انتفاضة ماي 1945 عندنا

منذ فترة وجيزة فقط .. وهذا الرقم اذاعته ممثليات

امريكية رسمية كما يقول انطوان بينما اخفاه

الفرنسيون طبعا ..

وكفكفت مايكا بقايا دموعها وهي تقول ممسكة بذراع بوداود :

ــ انها الحقيقة المرة التي اكتشفتموها لكن متاخرين

ولامس يدها وقال لها وكأنه يصرفها عن احاديث الشجن وهي لاتزال تنظر اليه في صمت:

ــ لا توجد مدينة مناسبة لاقامتنا في الوقت

الراهن الا باريس ..

فقالت مشتطة دون ان تسحب يدها من يده:

ــ انتم الافارقة مفتونون بباريس لانها

بالنسبة اليكم عالم اسطوري ..عالم علوي ..

اما انا فقصارى حلمي العودة الـــــى

" سانت بيتر اورد نج " ، مدينة الجسر

الخشبي مدينة لحظة الغروب الفاتنـــة ..

دونكم باريس فالزموها فقد دافعتم عنها متم من

اجلها فاعبدوا عطورها وشقراواتها اذن .

قالت ذلك بحنق ثم اعادت يدها الى حيث يده وكادت تبكي وهي تضيف مطأطئة راسها الى الطاولة :

ــ لاادري ماذا صنعت الحرب بجسر الصبا

يا بوداود..

قالتها ثم اجهشت بالبكاء فعلا..واقر بوداود في دخيلته انه لقبيح بزمن ما ان يبكي واحدة في مثل مايكا بهاء ومكانة .لكنها همست من داخل دموعها وهي تضغط على يده بقوة لتحسسه بوجودها :

ــ سامحني لهجتي قاسية احيانا .. اشكرك حبيبي

.لولاك لكنت همت على وجهي بعد اطلاق سراحي.

اغفرلي حدتي معك احيانا.

ومسح على خدها وهو يقول :

ــ لا عليك ..انا اعرف مقدار ما تتحملين.

اه..يا بوداود واحدة تبكيك واخرى تبكيها ..واخذ يتامل مايكا بكل جمالها الخرافي الرائق الذي اضفى عليه حزنها رونقا خاصا ثم تناول مشروبه من جديد وقد تذكر رسالته الاخيرة الى شقيقه " علي" التي املاها على عبد الكبير وكانت عبارة عن خواطر غير متناسقة..في هذه الاثناء كانت مايكا تترنم ببعض اشعار " جوتة " :

" ها انا بعيدة عن كل متعة عذبة

يحظى بها البشـــــــــــــــر

لاارى الفا لنفسي غير الحــزن

و الاكتئـــــــــــــــــــاب "

فاعتقد بوداود انها تردد كلمات " نوفاليس " التي سبق ان سمعـــــــها منها.وترجمتها له ثم انه لم يسالها لان خياله استمر في التطواف عبر منحنيات بلدة الثيران اه يا بلــدة الثيران، كان يستحضر وصيد الاسطبل وحصان بوحجلة وقامة ذهبيـــة وهي تفتعل اقفال الباب وعيناها تتابعان خطوه دون ان تنبس بكلمة ، وفي غمرة رحيل خياله هذه نسي انه بين يدي مايكا الشاردة بدورها نحو الشعر و التاوهات .وابتسم لانهما لم يعودا عسكريين بالمرة .ما ابعدهما الان عن نقع الحرب ولعلعتها، فذكرته هذه الخاطرة بما كان يقوله العريف اندريه بثكنة الراس ثم أعطاه انطوان بعدا اخر حين سماه تولستوي و هيمنغواي، الشاعرين العسكريين اللذين لم يكن لبوداود سابق عهد بمعرفتهما .

القسم الرابـــــــع:

الفصل السادس عشر :

دورية منتصف الليل:

ظلت ذهبية يومها متحفزة للوثوب الى دار رملية ، تنتظر مرور الساعات بفارغ صبر، يشدها شوق الى مجلس ابن القايد ، الى وسامته ، الى ابتسامته ، ثم الى مبارات العناد الودية التي اخذت تقام بينها وبينه عبر فناجين القهوة ، على مراى ومسمع من ذلك الذي قيل انه خطيبها ، و في حذرتسائل نفسها ، كيف انقلب تفكيرها الى هذه الدرجة ؟ هل ذلك نتيجة شعورها بالوحدة وقد رحل من تحبه؟ ام لانها تعتقد ان الكل يمارس الحياة بطريقته الا هي ؟ ففي قرية الثيران لااحد ينقطع للبكاء و المسكنة وحدهما .. صديقتها جمعة ذاتها ، حدثتها عن عشيق ظهر في حياتها مؤخرا، جمعة التي تسميها فتيات القرية بالقبرة لانها ممتلئة الصدر الى ابعد حد وذات قامة قصيرة وجسد يعكس اندماج جذعيها الاعلى والاسفل بشكل اجمالي لا تفصيل فيه ..

اجل جمعة اصبح لها عشاق ، لانها تحاول اقتحام مجاهيل الحياة ، وترفض اللجوء الى خلوات البكاء السري ..بل ان عشيق جمعة ما لبث ان صار خطيبا ..كما اخبرتها منذ الصباح.. انه " علي" اخو بوداود بالذات ..ومن يدري قد تصبح رضوى الفتاة القصيرة المكتنزة خطيبة فتى ما من فتيان البلدة وما حولها ؟ ولكن لماذا تبدو دائما غير مرتاحة المزاج تجاه ذهبية ؟ هل الامر يتعلق بموقف هذه من شقيقها بوداود ؟ ام انها تغارمنها ؟

غيران السؤال الاهم يبقى حول منتهى علاقة كهذه التي تربط ذهبية بابن القايد؟ وهي تعرف ــ كما تعرف القرى كلها ــ ان ابن القايد ليس باعزب ، بل انه متزوج ومن " غزالة " الجميلة ابنة قايد اخريفوق والده نفوذا عند المتصرف المدني، حتى اصبح يعرف عند العامة بقايد القياد ، رملية حين كاشفتها ذهبية بمخاوفها هذه ، قالت لها : ((عندي راي اخر)) ، لكنها لاترى الوقت مناسبا لمصارحتها به ، هل هي تريد لعلاقة الفتاة بابن القايد مزيدا من الانضاج و الثبات ؟ ام تريد لها ان تصل الى نتائج مخيفة تجبره على عقد قرانه بها مضطرا تحت التهديد؟ ومن يهدد ابن قايد ؟ يا للمصيبة ..ا

وذهبية بصراحة تخشى هذا المزيد ، لانها تبدو كمن يستزيد في الابتعاد عن الشاطئ ، ويتوغل في البحرنحو اعماق اللجة ، مشكلتها ان ابن القائد لم يفاتحها في الامر ، و القرية راسخة الاعتقاد ان زوجها المستقبلي هو (الشمام) ..الابله كما تسميه ..هذا الابله الذي اصبحت تتقبل الانتساب اليه لكونه فقط ظل ابن القايد، هل هي تقره على انصرافه من الغرفة حين تركها وابن القايد وحيدين ؟ هل فعل ذلك لانه لا ينتمي الى بلدة الثيران التي لاتقر سلوكا كهذا على الاقل ظاهريا ؟ كيف لها ان تتزوج من رجل هذا طبعه حتى ولو كان هذا الزواج حبا في ابن القايد ؟ من سيتزوجها عمليا منهما اذن؟ ابن القايد تحت عنوان الابله، ام ابن القايد بمعزل عن الابله ؟

مسالة انصراف الابله من الغرفة ، تؤكد لذهبية اتفاق الرجلين على الفرضية الاولى ، والا لماذا فعلا ذلك بحضورها ؟ وابتسمت ذهبية .. ماذا قالت ؟ اتفاقهما..وهل ابن القايد يعدّ الابله طرفا يعتد به حتى يتفق معه؟ لكن لم لا يكون المسكين قد غادر الغرفة معتقدا ان ابن القايد في اثره بينما انتهز هذا الفرصة وتلكأ في الخروج ؟ ولامر ما مالت الى هذا الطرح رأفة به ..بالابله.

كانت ممددة على حصير بال ، وعيناها الجميلتان مشدودتان نحو باب الغرفة ، لم يسترقها النوم ، كما فعل بوالدتها الناعسة ، انها تغبط كلا من امها و رملية على سرعة النوم ،

وازعجها التفكير.. لماذا التفكير؟ كل الناس تجازف بعيدا عن التفكير، فلماذا تقتل نهارها وليلها في التفكير..؟ التفكير.. التفكير.. التفكير..؟ اللعنة..الا يكفيها سنوات بوداود التي قضتها في التفكير الممض القاتل ؟ كل المطلوب هو المغامرة.. التحرك.. القفز من عل ..فهي في كل الاحوال لا تقع الا بين احضان ابن القايد، دون ان تفكر في كيفية السقوط .. بسرعة وتحت هذا الالحاح ، انصرفت نحو دولاب خشبي قديم كان منتصبا بزاوية الغرفة ، رغم علمها انه لايوجد من بين ثيابها ما قد يسراحدا ، فمنذ ان نفق الحصان وارتمت العربة على القارعة ، شح دخل الاسرة واقتصر على الطعام في ابسط اوجهه ، و افتقدت ذهبية و الناعسة ما كان يفاجئهما به بوحجلة احيانا من البسة متوسطة نادرا ومستعملة غالبا ..

لا حيلة اذن الا الاحتفاظ بما ترتديه الان ، ملاءة سماوية غير باهتة اللون على كل حال ، وخماريميل الى السواد ، وحذاء ابيض جاءها به محمود بن الخالة رملية ، في اخر عودة له الى القرية ، لكنها قبل ان تتقبله منه ، طلبت منه ان يتجه نحو القبلة ويقسم بالله العظيم ان الحذاء ليس صدقة من بوداود ثم ضحكت وقالت له :

ــ من يدري قد يكون هدية منه

بمناسبة خطوبتي ..

ولتطمئن على مستوى هندامها ، احتفظت بذوق جمعة التي قالت لها منذ هذا الصباح فقط ، انك رائعة ، فسواد خمارك اعطى بياض وجهك ووسامته ، بعدا جماليا استثنائيا يلهب المشاعر..

وذهبية لاتريد الهاب مشاعر احد ما، حسبها ان تحظى باعجاب ابن القايد ، اما الخطيب المعلن فعليه ان يتقلبها كما هي راغما..

لكن لماذا ترفض التنازل لقبول هدية ، لمجرد اعتقادها انها من بوداود؟ بينما تتنازل لابن القايد عن كبريائها، عن شموخها ، بل وعن ذلك الرمز الذي تمثله شفتاها ؟ فالقبلة هي منفذ الاستسلام ، هي بوابة الرضوخ ..فلماذا تتنازل له عنها؟ هو ذا السؤال الذي لاتعرف له جوابا ..

وهل تلك القبلة هي اخر ما يمكن التفريط فيه والتضحية به ؟ ليست اكيدة العزيمة .. قد يحدث .. كلا .. لن يحدث .. بل ربما حدث ..

انها شديدة التقلب تجاه ابن القايد ، بحيث لم يعد في وسعها الاستقرار على حال ، هل هي ترحب بعشية يومها وقد اقتربت ؟ ام انها تخشاها ؟ هل ستغادر الى منزل الخالة رملية ؟ ام تمتنع عن زيارتها؟ كيف تمتنع ، كيف تخل بالموعد و الرجل واعد بالمجيء الى هناك ؟ لن تغضبه ، يكفي انها اغضبت بوداود ، لن تعود الى خلوات البكاء السري التي رفضتها جمعة (القبرة)و ضروى وفتيات البلدة كل بطريقتها ..

ولكن كيف لها ان تتحكم في مشاعرها، وفي نوازع جسدها؟ حين تقابله او تنفرد به ؟ كلا..لن تذهب..فلتذهب الى الجحيم رملية المستهترة بقيم القرية ، ومنزلها المشبوه وضيفاها غير المرحب بهما ..ولتمكث هي بغرفتها تساعد والدتها الناعسة المرأة الشريفة في بعض اعباء العمل اليومي..واذا سالتها الناعسة عن عدم ذهابها الى خالتها رملية ، او استفسرها ابوها عن

ذلك ستقول انها مريضة بالصداع ، بل انهاحضرت عصابة امها لتلفها على جبينها ، ان قررت التخلي عن فكرة المبيت لدى رملية ..فهي لم تتخذ موقفا بعد كعادتها، وظلت تتلملم متارجحة بين فكرتين .

لكنها ما ان عمت اجواء القرية دكنة المغيب التي اخذت تشتد حتى انتعلت حذاءها الابيض ، هدية محمود وانصرفت مسرعة ، كانت محمولة على اشواقها الى ليلة اكثر متعة من تلك التي قضتها مع ابن القايد ، ولكنها امنيات سرعان ما يعترضها تخوف يحد من انبساطها في خلدها ، اذ كيف تتزوج من رجل وتسامر اخر في حين ياخذ الزوج صفة الشاهدعلى الخطيئة فحسب ؟ انه سلوك لم تاته حتى بنات المدن الكبرى .

ما ان طرقت الباب حتى فتحت رملية وكانها كانت تنتظرها خلفه ، وقالت وهي تسير خلفها :

ــ لقد خيل الي انك فضلت البقاء هناك.

فخشيت ان انام لوحدي ..

و ابتسمت ذهبية وقالت :

ــ وها اناذا قد جئت ..

ــ مرحبا بك ..

وولجتا المطبخ وذهبية تقول :

ــ اما من ضيوف ؟

ــ ليس بعـــد ..

فور ان تناولتا العشاء الذي احضرته رملية وكان عدسا ، بينما جاءت ذهبية برغيف خبز فرن تقليدي شهي ، حتى سمعتا طرقا خفيفا على الباب ، سرعان ما اخذ يتكرر ، فنظرت رملية الى ذهبية وهي تبتسم ، وكانها تقول لها لقد اقبل الضيوف . ثم قامت غير ان ذهبية طلبت منها ان تجلس لتفتح هي ..وفي الطريق الى الباب قالت الفتاة للطارق الذي ضاعف من قوة طرقه :

ــ الا تنتظر لحظة ..ام اشتقت

الى لعبة القهوة ..؟

كانت تعتقد انها تحادث ابن القائد ، او ربما الابله ، لكنها ما ان فتحت الباب حتى تراجعت وهي تقول في خوف :

ــ ابي ..؟!

ودلف الى المنزل دون ان يجيب او يستاذن حتى ، وبعد المباغتة الاولى جاءت خلفه وهي تقول :

ــ ابي ..لماذا تفتش غرف المنزل ؟

ماذا هناك ؟

وازدادت خشيتها من ان يتذكر كلمتها تلك فيسالها عن هذا الذي يشتاق الى قهوتها ، لكن غضبه انساه التفاصيل كما فهمت ذهبية ، **التي اذهلها انه** لم يكف عن تفتيش الغرف وزوايا المسكن المتواضع حتى و رملية تهرع اليه وتقول :

ـــ عمي بوحجلة ؟

هل بلغك عني ما يريبك في ؟

قالت ذلك بينما اخذت ذهبية تهدد بمغادرة المنزل .وهي تقول :

ـــ لماذا تهينها؟ الانها ارملة ؟

وليس لها من يحميها ؟

. لم ينبس بوحجلة بابنة شفة ، رغم احتجاج ابنته وانزعاج رملية .اللتين كان اخشى ما تخشيانه ان يطرق الباب في هذه اللحظة من قبل ابن القايد الذي يمكن ان الشبهة تدور حوله .

ولن يكون الامر اقل خطورة ان كان الطارق حارسه الابله كما تنعته ذهبية ، لكن لا شيء من هذا قد حدث حتى الان .

وعلق الامران بقلب رملية بكل خطورتهما وما نتج عنهما من تخوف بلغ درجة الهلع ..انها لاول مرة يبلغ بها خوفها حدا كهذا.. ان الاخطر هو ان يزورها ابن القايد في هذه اللحظة هذا الامر اشد عليها من زيارة بوحجلة ..وتوقعت موقف العرباتي البائس من زيارة كهذه لوحدثت في حضوره..ماذا عساه يفعل..؟ يواجه؟ يستسلم ؟ يتظاهر باغفال الامر ؟ وماذا سيكون موقف ابن القايد منه ؟ لاشك انه لن يخسر ذهبية بالاساءة الى والدها وهذا فقط هو الجميل في المسالة ..كانت عينا ذهبية تحتفظان بحيرتهما وسمعها اشد حساسية تجاه الباب الذي لحسن الحظ لا يزال غافيا يجلله الصمت المنعكس عليه من المحيط الخارجي.. وذهبية في نظر رملية تمثل الضحية الاولى اما هي فستتضرر سمعتها كارملة معروفة بعفافها في بلدة الثيران ..

ـــ اه يا بلدة الثيران ..

تمتمت بها رملية وكادت تردد اسمها جهرة ..ايتها القرية المتربصة بكل حركة ..بكل صوت.. بكل تنهيدة ..بكل التفاتة ..رفقا بنا في هذه اللحظات فقط..لحظات بوحجلة..لحظات دورية التفتيش هذه ..

لم يلحظ بوحجلة ما اتعبت رملية نفسها في اعداده من لوازم ضيافة . فهو لم يزد على ان اطلع اطلاعا سريعا على غرف المنزل بما فيها المطبخ الذي يستاثر بفناجين واطباق قد وضعت قريبا من موقد النار.ثم مفروشات غرفة الاستقبال التي امتدت في نظام غير معهود في حياة منزل كهذا ، بل ان رملية تفطنت اليه وهو يتامل ملامحها في امعان حتى كادت تحييه لولا انها فضلت اللواذ بالصمت ..و مجئ الرجل في هذه الساعة وعلى هذه الصورة يرسم تساؤلا كبيرا في ذهني المراتين اللتين لا تكفان عن تبادل النظرتعبيرا عن اشتداد الحيرة ، انهى بوحجلة زيارته التفتيشية بالتاكد من وضعية فناء خلفي شبه ملحق بالمنزل ، متلمسا بابه الجانبي الذي دفعه بقوة وكانه يختبر قوة انغلاقه ثم زفر بصوت مسموع وهو يغادر منزل الارملة في غير تعليق ، مما جعلها تحس بخوف .وتتوعد في نفسها بعدم استضافة احد منذ الان بمن في ذلك ذهبية التي لحقت تلقائيا بابيها مسرعة مقررة عدم البقاء ، انصرف بوحجلة وفي اثره ابنته دون

ان يكلف نفسه تعليل سبب مقدمه بكلمة واحدة قد تردع شكوك رملية التي انحطت على اقرب مفروش لها وكانها لاتستطيع الحراك..

رملية بكل مكانتها في البلدة تصبح محل شكوك ؟ وممن ؟ من بوحجلة ؟ كما لو انها لم تكن والدة محمود وشقيقـــــة الصواف ؟ والى هنا بكت الارملة بغزارة دمع..فلو كان ابنها معها او شقيقها قريبا منها ما استطاعت طيورالسماء ان تحوم حول حرم منزلها. ولكنها امراة وحيدة ليس لها من يذود عن حماها .. وفي لحظة الغيظ تلك حدثتها نفسها بتحريض ابن القائد ضد بوحجلة الذي داس كرامة منزلها ، لكنها ما لبثت ان تراجعت ، اذ في ذلك ليس ما يغضب ذهبية فحسب بل وفيه ما يحزنها ، فضلا عن امها الناعسة تلك المراة التي تفرحها زيارة رملية اليها فتحسن استقبالها دائما رغم ضيق ذات يدها..

اما بوحجلة فعلى الرغم من ان لحاق ابنته به اثناء انصرافه كان قد عمّق ندامته ، لكنه واصل خطاه في صمت دون حتى ان يلتفت نحو الفتاة، وقد خشيت ردة فعله فلم تبادره بالكلام تاركة ذلك الى والدتها ، فالناعسة هي من سيستنطقه عن مغامرته الفجائية تلك و بالتعنيف المطلوب ايضا ..توقف بوحجلة عند عربة حصانه المسندة الى جدار الاسطبل على قارعة الطريق، كما لو انها بقايا عربة حربية تذكره بمجد

عسكري منهار، ورغم ان ذهبية شاركته احساسه بالمرارة لمشهد العربة واصلت خطوها على عجل الى ان ولجت المنزل باكية فهرعت اليها والدتها وقد اذهلتها عودتها في مثل هذا الوقت :

ــ ذهبية .. ما الذي جاء بك ؟

و مؤقتا انقطع شهيقها وهي تقول :

ــ ما دمت محل شك ..

ورددتها الناعسة في غرابة:

ــ محل شك ؟ومن يشك فيك ؟

وزايلها البكاء وهي تقول في جد :

ــ هل قلت لوالدي شيئا بشاني

او بشان رملية ؟

قالت الناعسة :

((فقط انتظرت انصراف رملية ثم زففت اليه الخبر السعيد خبر تطوع ابن القايد بتعويض حصاننا النافق، غير انه ما ان سمعه مني حتى قال في تبرم : ((ولكن ما سر هذه الهبة ؟))، فارتعت وهو يضيف : ((لم اعهد لدى هؤلاء عطفا على احد قبل هذا ..))عندها نبست بصوت خافت اريد اقناعه : ((حالنا تلين الحجر يا بوحجلة ..)) فصاح في غاضبا: ((لن اتقبل هدية كهذه قبل ان اعرف سببها.)).. قالها بغضب و خرج دون ان اعرف وجهته ..

وبعث كلام الناعسة في نفس ذهبية تخوفا لاحد له ، الى ان اخذت تتساءل هل بلغت والدها الاشاعة التي تحدثت عنها جمعة ؟ فجاء ما بدر منه كرد فعل ؟هل اخذت تلك الاقاويل تعم بيوتات القرية ؟ تساءلت الفتاة وانتظرت من والدتها ان تستطرد ، غير ان الناعسة لاذت بصمت كالذي ركن اليه بوحجلة في منزل رملية ، ثم سالت ابنتها :

ـ لكن لماذا تساليننى ؟

والى هنا اخبرتها ذهبية بزيارة ابيها المباغتة الى منزل الارملة وتاكده من خلوه الا من المراتين ..فقالت وهي في منتهى الاضطراب :

ــ او فعلها ؟

في هذه الاثناء كانت رملية قد اقفلت ابواب منزلها باحكام وتمددت على مفترش بقاعة الضيوف لتنام لولا ان امر بوحجلة اصرفها عن النوم ، ماذا دهاه ؟ ولماذا فضل التمعن في وجهها لبرهة من الزمن دون ان يبادلها ولو كلمة واحدة ؟

ما ان انهت خاطرتها تلك حتى سمعت طرقا خفيفا على الباب ، من ؟ سالت نفسها في حيرة . هل هي ذهبية وقد عادت ؟ ام ذلك الشبح خطيبها الشكلي جاء مرفوقا بسيده ابن القايد ؟ ام من يا ترى ؟ اعيد طرق الباب وحينما اقتربت منه وقالت :

ــ من الطارق ؟

جاء الصوت خافتا مرتبكا :

ـ افتحي انا بوحجلة ..

وقالت ساخرة قبل ان تفتح :

ـ لعلك تذكرت زاوية في المنزل

لم تطلع عليها فظننت ان بها..

وقاطعها ملحـــــــــفا :

ـ اقسمت عليك ان تفتحي..

ــ اعرف انك جئت معتذرا ..

ـ افتحي فقط..

وفتحت ، فتقدم منها بشكل اعتقدت انه سيقبل راسها لكنه احتضنها بقوة وهو يقول :

ــ اريدك زوجة او خليلة ..

فقالت وهي تبتعد :

ــ كانت حيلة منك اذن لكي

تبقيني وحدي فتباغتني ..

فابتسم لكنها اشاحت عنه بوجهها ..كانت من رباطة الجاش بحيث لم يركبها أي ذهول او خوف ، فقط انها قالت له :

ـ ماذا سيكون عليه موقفك لو ان

ذهبية عادت الي الان للمبيت معي ؟

فقال وهو يتراجع نحو الخلف :

ــ على كل حال فكري

في ما سمعته مني ..الناعسة لم

تمنحني ولدا ذكرا .ثم..ثم.. انك اجمل بكثير

ــ انا بدوري اطلب منك

شيئا واحدا ، وهو الا تعود

الى هذا المنزل، فانت تعرف

ان كلام القرية لايرحم ..

فقـــــــــــــال :

ــ اعاهدك ..لكن فكري ..

قالت بلهجة شبه صارمة وكانها تنهي هذا اللقاء الذي فرض عليها فرضا :

ـ لاتضطرني الى اللجوء الى الشيخ

عبد الدايم او العم بوجمعة

لافضحك عندهما ..

قالتها ثم فضلت السكوت متجهة نحو الباب لتغلقه بعد ان انصرف بوحجلة ..الجميل في دعوته انها ربما انقذتها من شعورها بياسها القاتل كامراة تجاوزها الزمن وهي لما تبلغ بعد سن الخمسين . واذن لايزال لمحياها وقع ما على قلب ما ،أي قلب حتى ولو كان قلب العرباتي بوحجلة ، وهذا يكفي..لكم ظلت تديم الاعتقاد ان بنات الجيل الاوسط كابنة شقيقها الصواف وذهبية وجمعة وضروى...واخريات هن وحدهن مدار الاهتمام الوجداني في القرية.لكن تجربة الليلة اكدت لها ان الحياة لما تنغلق بعد على هذا المقياس الضيّق..

لقد تبدد كل الغيظ الذي اندفع في نفسها نتيجة الزيارة الاولى التي قام بها بوحجلة ، وقد كانت في نظرها زيارة شك او تفتيش ، لكن يبدو انها كانت تمهيدا لمهمة اهم في نظره .. غير انه رغم ذلك لايمكنها ان تنام هكذا وحيدة ..من يدري قد يعيد العرباتي كرته ،سيما وقد اخافت رملية شحنات الشهوة التي طفحت بها عيناه الضيقتان اثناء امعانه النظر في قوامها منذ حين.. لقد كانتا تعكسان جوعا شبقيا مكبوتا كما لو ان صاحبهما يغادر سجنا لبث به نصف قرن..على كل حال فكرت رملية في جهة قد تنصرف اليها لقضاء ليلتها في امان ،ووقع اختيارها على منزل العم بوجمعة فهناك زوجته الزينة التي لم تلتقها منذ ايام ..فضلا عن ابنته جمعة التي ستسالها بما فيه الكفاية عن الالمانية خطيبة بوداود بل وعما ورد في رسالة هذا الاخير بخصوص ابنها محمود وربما استفسرت العم بوجمعة شخصيا عن ظروف اعتقال شقيقها الصواف. كل ذلك خطر ببال الارملة وهي تشق طريقها نحو منزل صاحب المتجرالمتواضع الذي لم يبخل عليها هي الاخرى بما تحتاج اليه ولو بشكل غير مستمر.

و في ضحى اليوم الموالي انصرفت ذهبية لفتح الباب بعد ان تلقى طرقات متتابعة فاشتدت دهشتها وهي تجد رملية تستقبلها بابتسامة عريضة ،ورحبت بها رغم الاسئلة التي انفتحت في صدرها ، كانت كل اسئلتها تصطف خلف سؤال عاجل ، كيف سمحت رملية لنفسها بزيارة منزل بوحجلة رغم كل الذي فعله البارحة .. ؟ ام تراها جاءت لنقل ما حدث الى الناعسة واشعال فتنة في هذا المنزل الذي لايحتاج الى مزيد من البؤس ؟ ..

كيف ان مداهمة البارحة لم تؤثرعلى صلتها بعائلة الرجل؟ اما بوحجلة فعلى النقيض من ابنته فقد وقعت الزيارة من قلبه موقعا حسنا سرعان ما ذهب به الى الاعتقاد انها لا تنم الا عن قبول لمطلبه ، سيما وان الارملة ردت على تحيته بابتسام ، ثم لو كانت زيارتها تتضمن ما يخشاه لما اخذت مكانها للجلوس في حديث ودي مع الناعسة كعادتها.. لكن الذي يبعث على الارتياب انها اقبلت صحبة جمعة ابنة العم بوجمعة فهل نفذت الارملة وعيدها باشعار التاجرالصغيربالامر ؟ تساءل بوحجلة وقد صار في عجلة من امره ليغادر المنزل قبل الانفجار..

استقبلت ذهبية ووالدتها الفتاة جمعة ، وقد حملت بعض حلويات من متجر والدها ترضية لنفس صديقتها بعد ان ظنت انها انصرفت مغاضبة لها اثناء زيارتها الاخيرة ، بل ان جمعة اشارت بعد ان تشعب الحديث الى رسالة تلقتها عائلة بوداود قبل امس، تضمنت عودته من المانيا ومغادرته مستشفى ستراسبورغ وتفكيره في زيارة الجزائراثناء اجازة قريبة ، لكن الخبر الاهم انه بصدد الزواج من فتاة المانية ، ويبدو ان ذلك هو ما شغل ذهبية التي تسارعت حركات رموشها دون ان تستقر على حال ،وما كان لذلك ان يفوت رملية التي كانت تسترجع حوارا دار بينها وبين الفتاة جمعة البارحة :

ــ خالتي رملية الم يبلغك خبر

ما عن عمي الصواف ؟

وافزعها السؤال وهي تقول:

ــ كلا .. لماذا ؟ ماذا هناك ؟

ــ سمعت ابي يقول انه اعتقل..

وتراجع خوف رملية واستعادت ملامحها سابق عهدها وهي تقول:

ــ وما الجديد في ذلك ؟ انه يعتقل

بمعدل مرة او مرتين في الشهر..

وقالت جمعة :

ـ يقول والدي ان الاعتقالات

هذه المرة اشد و اوسع لانها

مرتبطة بمظاهرات شهر ماي الماضي

و مذابحه ..

وجاء صوت العم بوجمعة من غرفة مجاورة كما لو انه يطمئن الارملة على اخيها :

ــ الصواف يعرف الفرنسيين والفرنسيون

يعرفون الصواف ومن ثمة لاخوف عليه

منهم يا رملية..

وشكرت للعم بوجمعة اهتمامه بها وبامر شقيقها.

لما بلغت الارملة هذا الحد من استرداد احاديث البارحة التفتت صوب ذهبية التي اعربت عن سؤال ظل يسكنها :

ــ كيف يتزوج بوداود من المانية بعد ان

كان يحارب الالمان ؟ هل فهمتن شيئا؟

وواصلت رملية حديثها عن شقيقها الصواف متجاهلة سؤال ذهبية ، او انها لم ترد لها ان تنشغل بامر بوداود من جديد..

لكن قلب ذهبية سرعان ما ازاح كل مشاغله الاخرى لينفرد بامر بوداود وحده، كما لو ان جميع ما عرفه هذا القلب من اضافات اعقبت رحيل بوداود كان مجرد حشو لا معنى له املته الوحدة و البوار العاطفي ، وتمكن التفكير من عزلها نهائيا عن احاديث النسوة حولها ، فراحت تتخيل هيئة الفتاة الالمانية ملامح وقامة وجسدا وشعرا وصوتا وشقرة ، انها الشقرة ، التي لطالما استهوت الجودام واخرين وجعلت محمودا يهدد بالمانية او فرنسية ، بل ربما كانت هذه الالمانية اشد شقرة من فرنسيات المعمرين واسبانيات الكولون ؟ و تمنت لو تصير وحيدة لتتناول مراتها الصغيرة فتتامل ملامحها وقسمات وجهها لتقارن ذلك بالصورة التي وضعتها للالمانية في مخيالها ، وبدون ترو اندفعت نحو جمعة :

ــ الم يتلق "علي" صورة هذه الالمانية

ضمن رسالة اخيه ؟

وتبادلت النسوة نظرات سريعة في اندهاش . وقالت جمعة :

ــ لم تتحدث والدته لامي عن صورة

بل ذكرت الرسالة فحسب..

عندها اندفعت الزينة والدة جمعة الى الكلام وكانه فرض عليها فرضا :

ــ قد تكون سبية كما قال بوجمعة

فالالمان صاروا في وضع المشردين.

وكادت رملية توقن ان ماضي الفتاة ذهبية استعاد سلطانه على وجدانها بشكل لم يترك للتفكير في الحاضر أي سانحة.

وعندما همت جمعة بالانصراف اوصتها ذهبية سرا ان تطلعها على الصورة ان عثرت عليها لدى علي او والدته ..

ــ اسمعي.."علي" ..خطيبك ولن يبخل

بها عليك..ثم لاتقولي انني انا من تطلبها.

وضحكت جمعـــة :

ـــ اطمئني ..ان كان قد تلقاها فعلا من

شقيقه بوداود لسوف اتيك بها..

وبدورها اخذت رملية تتهيا للخروج ثم قالت لها الارملة بصوت جهير غير هامس كما في السابق :

ــ انتظرك طبعا ؟

ــ لا ادري ان كان بوحجلة سيسمح لي ..

وضحكت الارملة معلقة كما لو انها اصبحت تحوز على بطاقة بيضاء من بوحجلة المغرم :

ــ لن يعترض على مبيتك في منزلي فلا تتحججي اذن..

قالتها وغادرت المنزل خلف جمعة التي ودعتها قريبا من عربة الحصان الملقاة بجوار جدار الاسطبل..

انتقلت الناعسة نحو المطبخ وهي تفكر في الطعام الذي ستهيئه للعشاء فاتجهت راسا الى سلة كان بوحجلة قد جاء بها وهي تحتوي على اهم ما يحتاجون اليه من مواد غذائية وخضراوات..والناعسة كلما فتحت السلة الا ورفعت يديها بالدعاء للعم بوجمعة ..

ــ اللهم ارزقه ووسّع في بضائعه

فانتهزت ذهبية فرصة وجود ابيها بالمنزل لتناديه قبل ان يغادر :

ــ ابي .. هل ابيت عند رملية كالعادة ام ؟

ولم يزد على ان التفت نحوها وقال محتفظا بتجهمه :

ــ انت وشانك ..

وهربت عيناها نحو والدتها التي لم تعلق ..اما هو فكان قد اختفى خلف الباب الخارجي يلفه الظلام الذي اخذ يخيم ايذانا بحلول المغيب.. واطمئنانا من ذهبية الى قوة شخصية رملية في الدفاع عنها امام ابيها اذا اقتضى الحال لم تتاخر جميلة بلدة الثيران عن اقفال الباب خلفها منصرفة نحو دار الارملة كعادتها..

اكملت رملية طهو عشائها وجلست تنتظر قدوم ذهبية كانت تفكر في الامر الجديد الذي يكون قد احدثه في نفس الفتاة كلام جمعة عن الالمانية وتمنت من قرية الثيران لو تترك ذهبية لتفكر في مستقبلها بدل ان تعود الى ما انتهى او هو في حكم المنتهي..لكن ما ظل يشغل الارملة بحق هو تساؤل الفتاة ..

ــ كيف يتزوج بوداود من امراة المانية

وهو يحارب الالمان ؟

لكم كانت ذهبية محقة في تساؤلها ذاك..ام تراه جاء بسبية كما استدركت الزينة انذاك ؟

استغرق السؤال من رملية وقتا ليس بالقصير الى ان تنبهت الى تاخر الفتاة عن الحضورفتنامت حيرتها ..هل منعها والدها من المجيء؟ رملية تدرك انه لن يفعل.. قالتها في تصميم وقد تاكدت من اطماعه ليلة البارحة فهو في حاجة الى كل رابطة تشد الاسرتين الى بعضهما .

وما ان بلغت هذا الحد من التفكير حتى ارتجفت..مؤكدة لنفسها انها لن تنام وحيدة ..فاذا كانت وحدتها قد اغرت واحدا في مثل وضعية بوحجلة بؤسا و عوزا فما بالك بمن هم اسعد حالا ، ومع ذلك كانت في كل دقيقة تتوقع ان الباب سيطرق ..وان ذهبية ستحضر لكن شيئا من ذلك لم يحدث فغادرت باتجاه كوة قريبة منها وتطلعت براسها الى الخارج .كان الليل قد حضرليخيم على انهج القرية الغافية ..لم تطاوعها نفسها على تناول ولو لقمة من عشائها بل احكمت اغلاق القدر ثم ارتدت مئزرها واقفلت الباب باحكام ثم انصرفت نحومنزل بوحجلة الذي كان قد عاد بعد انصراف ابنته بزمن ليس بالقصير وكانما ليجيب على سؤال الناعسة التي كانت في انتظاره :

ــ كيف بلغ بك الامر ان تتهجم على

رملية وتهاجمها في دارها ؟

وحدجها بنظرة افرغ فيها كل ما علق بذهنه من غضب نتيجة الاخفاق في كل مساعيه ..ثم ابتسم في وجههاعلى مضض وقال :

ــ لم افعل شيئا غير انني بحثت عن ابن

القايد هناك لا شكر له مشاعره نحونا فلم اجده..

وانفجرت الناعسة ضاحكة وهي تتمتم :

ـــ لقد اضحكتني فعلا ..

ـــ لم اعثر عليه رغم ان غرفة الاستقبال

كانت تنم عن انتظارضيوف ..

وقالت الناعسة وقد احست بتراجع نقمتها على بوحجلة :

ـــ غرف رملية دائما نظيفة وجاهزة ..

وبينما هما كذلك اذ تتابع طرق قوي على الباب فاسرع بوجحلة نحوه وهو يقول :

ـــ من ؟ انتظر لحظة ..

وما ان فتح حتى فغر فاه ..وقال بدهشة :

ـــ رملية ؟

وقالت وهي تكشف المئزر عن مقدمة راسها :

ـــ مساء الخير ..اين ذهبية ؟

هل منعتها من المجيء ؟

وكاد ينهار ..وهو يقول لها :

ـــ كيف امنعها وهي غادرت

مع المغيب في طريقها اليك. ؟

ومن الداخل تاوهت الناعسة ولطمت وجهها :

ـــ ومصيبتاه..اين ابنتي ؟

وقالت رملية كما لو انها عثرت على راس الخيط :

ـــ لعلها عند جمعة ؟

وقلبت الناعسة شفتيها في ياس وهي تنبس :

ـــ وماذا تصنع عند جمعة وهذه كانت

هنا عندنا كما تعلمين ؟

وتحرك بوحجلة نحو الباب وهو يقول :

ـــ لنتاكد..

فاسرعتا خلفه ..وبوصولهم الى عائلة العم بوجمعة اخذ نطاق اللغط والحيرة والتساؤل في الاتساع ،الى ان اشارت جمعة خفية للناعسة ورملية باهمية البحث عنها لدى" علي " اخي بوداود، فربما ذهبت اليه لمعرفة المزيد عن امر المراة الالمانية او الحصول على صورة هذه المراة عنده.كان بوحجلة يحادث العم بوجمعة حين انطلقت النسوة الاربع الناعسة ورملية وجمعة ووالدتها الزينة نحو " علي" وهن يتصورن ضخامة شاربيه مسبقا، وفي الطريق التقين الصغير مصطفى الذي نفى مجئ ذهبية الى منزلهم وهو ما سيؤكده "علي" ووالدته ايضا.

الفصل السابع عشر :

المتصرف لوران :

مرت ليلة اختفاء ذهبية على بلدة الثيران كليلة غريبة اليمة موحشة كما لو انها وفدت عليها من خارج يومياتها الهادئة الراكدة ركودا كاد فيه المرء يستشف ما سيحمله غده فضلا عن يومه ، ففي هذه الليلة عاش الكل صدى هذا الفعل بثقله ووطأته وببالغ تاثيره كما لو انهم لايريدون لمنزل بوحجلة ان يستاثر وحده بالاحزان والبكاء ولم تكن تلك من الشيم الجديدة عند اهل الريف فهم جبلوا على مشاركة بعضهم بعضا في المسرات والاتراح معا..ولم يقتصر الامر على تبادل النظرات ومكابدة الحيرة بل ان العم بوجمعة بادر بلقاء الشيخ عبد الدايم وبالقاسم ابي بوداود على عجل ثم اتجهوا نحو بوحجلة وقد استعار منزله صفة الماتم الجمعي لسكان القرية وسرعان ما استقر امرهم على ايفاد الفتى "علي" الى مدينة الراس لابلاغ الجودام بما حدث فالجودام خير من يلجا اليه في مثل هذه الملمات ..وهكذا استقل "علي" الحافلة التي سبق لها ان نقلت بوداود ومحمود يوم رحيلهما عن القرية فابلغته محطة القطار الذي غادره في المساء مسرعا نحو المتصرفية لم يكن الجودام بالباب كما توقع "علي" فالضحاك لم يعد من (خفر) الابواب وقد صار جوداما وزوجا للارملة (فيرجين) بل كان على "علي" ان يستاذن في الدخول عليه..وهكذا فعل مطمئنا الى كونه سيمثل بين يدي احد ابناء قرية الثيران ..وتواضعا منه قام الجودام لاستقباله تاركا قبعته على الطاولة كضابط محترف .

ــ علي.. مرحبا بك..هل جئت لتسالني عن بوداود..؟

في رسالة له قال لي انه منذ عودته من المانيا

اصبح يكاتبك باستمرار..

فقال علي بصوت شبه مبحوح وهو يشير بيده ويدنو من المكتب :

ــ بل مصيبة ..حدثت يا الضحاك..

وارتد الى مقعده كما لو ان قواه خارت وهو يقول :

ــ ماذا حدث ايضا ؟

وتهالك "علي" على اقرب مقعد وهو يمسك بجبينه :

ــ تقول ايضا ؟

ــ الم تسمعوا بمحاولة اغتيال ابن القايد ولد المخالفي ..

ــ متى حدث هذا ؟

ــ ليلة امس ..

ــ ليلة اختفاء ذهبية ..

وقام الجودام ثانية من شدة الصدمة :

ـــ ذهبية ابنة عمي بوحجلة ؟

ـــ اجل لقد اختفت ..

ـــ حدثان في ليلة واحدة ..كيف يفسران..

تساءل الجودام وهو يستعيد بعض وعيه وينادي شخصا ما غير "علي ":

ـــ فنجانا من الشاي للضيف يا خالتي الساخية ..

وادرك " علي" على الفور ان الساخية هي من تعرف بطاهية القياد ، وما هي الا لحظات حتى جاءته تحمل كاسين من الشاي على صحنين صغيرين دون ان تكلف نفسها احضار اي شيء اخر مع الشاي ..كانت بدينة متوسطة القوام تميل الى السمرة وعلى جبينها بقايا وشم قد تدلى الى ما فوق عينيها السودوين الواسعتين..اخذ "علي " يرشف من فنجان القهوة وباله منصرف نحو كلام الجودام :

ـــ ابن القايد لايزال فاقدا للوعي نتيجة الطعنة التي تعرض لها ..

ـــ تقول طعنة ؟

ـــ اجل..والجاني مجهول لحد الان ..

وتناول جرعة من كاس الشاي وقال في تنهد مسموع :

ـــ كشف الحقيقة مرهون بافاقة ابن القايد..

اوصى " علي " الجودام بالتحري ما امكن قائلا وهو يغادر المقعد :

ـــ تذكر دائما ان ما يهم بلدة الثيران هو ذهبية ..

وتطوع الجودام ليوصله الى محطة القطاروالصمت يخيم على خطوهما احيانا واحيانا يعودان الى حديث تطبعه الحيرة .. كيف اختفت ذهبية ؟ وكيف تطاول اختفاؤها ؟

وعاد "علي" يحمل خبر محاولة اغتيال ابن القايد بدل اي جديد تنتظره بلدة الثيران عن ذهبية وظل الاغرب في كلامه هو تزامن الحدثين ..لكن اهتمام اهل الثيران بات معلقاعلى زيارة موعودة للجودام شخصيا بعد تحر سيقوم به..ونبر الشيخ عبد الدايم :

ـــ عجبا ..كيف تختفي ذهبية من بلدة الثيران

في الوقت الذي يطعن فيه ابن القايد بضواحي

بلدة الثماد ؟

وظل العم بوجمعة يعلك الامر عله يصل الى نوع من علاقة بين الحدثين مؤسسا تخمينه على ما اشيع من لقاءات سبقت بين الفتاة وابن القايد بمنزل رملية ..لكن كيف تختفي هي ويطعن هو ؟ لو تعلق الامر بشخص عادي لامكن القول انه هوجم فطعن ليتم الاستيلاء على الفتاة ان كانت معه ..لكن الامر يتعلق بابن قايد وكلمة قايد ترعب الاسماع من بعيد.

ومرت صبيحة يومهم ذاك مشحونة بالشك والحيرة والهمس والاضطراب بل ان الناعسة لا تلبث ان تعاودها نوبات بكاء منذ لحظات الاختفاء الاولى بكاء غالبا ما شاركتها فيه رملية و جمعة وضروى واخريات رغم محاولة نصحها بالصبرو الادهى من ذلك ان ترتيبات عرس " علي" قد توقفت نتيجة ما يجتاح البلدة من حزن على ذهبية..وفي المساء استقبلت رملية طارقا على الباب فاندفعت نحوه بصورة تلقائية وهي تقول :

ــ الشمام ؟!

ــ خالتي رملية طمئني الجميع ان ذهبية عندي

مع والدتي وهي بخير..

ــ كيف جاءتك ؟ حدثني ..

ــ لا استطيع قول اكثر من ذلك تصبحين على خير..

قالها وانصرف مسرعا كما لو انه يخشى عين رقيب و التفت مضيفا :

ــ لا تحاولوا الاتصال بي الى ان يتكشف الامر..

.وسقطت رملية على اقرب مفروش اليها خائرة القوة وهي تردد:

ــ الحمد لله.. الحمد لله..انها حية ..

ثم اختطفت رداءها مسرعة نحو الناعسة .سيضاء هذا المنزل الشاحب اللون

كانت جمعة وضروى لما تنصرفا بعد الى ان تلاحقت طرقات على باب بوحجلة فالتاعت الناعسة لانها لا تتوقع الا الاسوأ، وما ان فتحت جمعة حتى دلفت رملية مسرعة وهي تقول :

ــ الناعسة سابشرك..ذهبية حية وهي بخير..

واقبلت عليها الناعسة مجهشة فرحة واخذت تقبلها وتسال :

ــ رملية ..حبيبتي.. وجهك دائما فأل خير ..

ولم تتخلف الفتاتان جمعة وضروى عن الاحتفاء بالارملة التي سرها ان تزرع جوا من الفرح في افق عاش كله على الكابة و توقعات المجهول وجلس ثلاثتهن يستمعن الى الخبر الذي حملته الارملة ..طوال حديثهن كانت عينا ضروى لا تستقران على حال محاولة ان توحي الى جمعة ان هذا الكلام لا ينطلي عليها غير ان جمعة لم تفهم عنها وهي في غمرة السرور بما انتهى اليه امر ذهبية ..وما هي الا لحظات حتى دخل بوحجلة الذي جعله وجود رملية يعيد اصلاح وضع عمامته على راسه قبل ان يرحب بمقدمها .. لكنه ما ان ابلغته ما حمله اليها الشمام حتى جن جنونه رغبة في الانتقام منه وهو يردد في حنق :

ــ ثم ياتي ويعترف صراحة بانه يحتجز ابنتي عند والدته..

واستقبلت ضروى غضب بوحجلة بارتياح لكنها ظلت تحاول مع الناعسة وجمعة ورملية تهدئته الا انه اصر على التوجه اما للقايد ولد المخالفي اوالى الدرك الفرنسي للتبليغ عن الشمام ولما اعياهن اصراره اقبلت عليه رملية وهي تقول :

ــ افرض ان الشمام انكر مجيئه الي واخباري بامر ذهبية

فمن سيكون ساعتها المدان؟ اليس انا ؟

فقال وقد تراجعت حدة لهجته :

ـ ليس في وسعه ان ينكر سيعرف القايد والدرك كيف

يتعاملان معه ..رملية ارجوك لا تعترضي طريقي لن

يحدث ما تتوقعين لا تخافي ..

ولما ارتدى جلبابه على عجل نبست الناعسة في اثره قائلة في مسكنة :

ــ كان عليك ان تستشير العم بوجمعة والشيخ عبد الدائم على الاقل..

وتظاهر بعدم الاستماع وانصرف فهرعت جمعة الى والدها ليتدارك الامر غير ان بوحجلة كان قد اخذ طريقه دون تردد الى بلدة الثماد المجاورة حيث مثل بين يدي القايد ولد المخالفي وقد وجده في قمة غضبه فنبس بوحجلة وهو يهم بالبكاء :

ــ سيدي القايد..اهانني الشمام حارس ولدك واحتجز ابنتي ..

فقال القايد بصوت متشنج غاضب تصطحبه نظرات ساخطة كادت تقتلع حوذي حصان العربة من مكانه :

ــ ابنتك هي سبب ما لحق بابني ..

ثم تراجع صوته وهو يكمل في حنق وقد اصرف نظره عن بوحجلة :

ــ لولاها ما طعنه ذلك الابله كما تسمونه..

وجثا بوحجلة قرب قدمي القايد الذي كان يجلس على مقعد طويل المسند وهو يقول :

ــ سيدي لاافهم ..كيف يتاتى ذلك ؟

فاشاح عنه بوجهه وقال :

ــ لست انا من يفهم الرعاع ..اذهب الى والدة الشمام وخذ ابنتك

انهم لا يحتاجون الى مزيد من اقوالها في التحقيق..

وقام بوحجلة وهو يصارع معاني هذه الكلمات المستجدة.. اقوال. تحقيق..ما الذي حصل ؟ما دخل ابن القايد في ما حدث لابنتي ؟ وما شاني انا ان طعنه حارسه الابله فليموتوا جميعا ؟ وحثه احد حراس القايد على الاسراع بالانصراف، لان وجوده يعطل مصالح الرعية كما فهم.. اخذ الحوذي السابق طريقه معتقدا ان ذهبية انما خطفت من قبل الشمام او انها فرت اليه عن طيب خاطر وفي كلا الامرين معرة ستتحدث عنها بلدة الثيران جيلا بعد جيل ..ثم..والى هنا التفت بوحجلة الى هذا الخاطر الذي طرا على باله منذ حين وكانه خاطر استثنائي ..اليس لرملية يد في ما لحق بالفتاة ذهبية ؟ رملية ؟ واخذ يقلب الامر على كل وجوهه..يستحيل ان تضحي الارملة بسمعة الفتاة المحببة لديها بل وبسمعة بوحجلة و سمعة البلدة ..وطمان نفسه

لانه لايريد ان يستقبل جرحين في ان واحد ومن اعز شخصين عليه ذهبية و رملية معا..لم يستقل اي وسيلة نقل بل فضل السير على قدميه محاذيا طريقا ضيقا ملتويا تحفه اشجار الزيتون والى جانبيه حركة دائبة للمزارعين والمعمرين و الدواب. كان منظر الخيول يستولى على اهتمامه ان بعضها ليشبه حصانه ايام عزه قبل ان يصير حصان عربة خانعا مستسلما لوحشة انهج البلدة ..صدق الشاعر بن قيطون حين قال في مرثاة حيزية :

صدّو صد الـــوْداع لزرق واختي قـــــــــاع .

كان ذلك ما يشغل بال بوحجلة بينما تثير الكلمات المحدودة التي قالها الابله امس لرملية حفيظة القرية وشوقها الى معرفة المزيد..وكان السؤال العام لا يختلف عن ذلك الذي طرحه الحوذي السابق على نفسه منذ حين : من الذي رحل منهما الى الاخر ذهبية ام الابله ؟ وغالبا ما وجدت رملية نفسها معنية بمزيد من التفسير لامور هي في الواقع لا تعرف عنها اكثر مما يعرف السائلون ..

واصل بوحجلة السيروهو يتوقع مواجهة ساخنة ستحدث بينه وبين ذلك التافه الشمام .واحس تخوفا من كون الابله مسلحا صحيح ان سلاحه بندقية غير حديثة لكنها من مزدوجات الماسورة الاقرب الى السلاح الحديث ، وما ان حان منتصف النهار حتى اخذ المزارعون يدعونه الى مشاركتهم طعامهم وقد تحلقوا هنا وهناك على امتداد الطريق لكنه اكتفى بالاعتذار الامر الذي دفع باحدهم الى القدوم اليه ليناوله رغيفا من الخبز وبعض الزيتون و تمرومواد اخرى اجّل بوحجلة الاطلاع عليها والحق انه لم يتناول من ذلك شيئا فهو قد فقد الشهية منذ اختفاء ذهبية ثم ان منزل الشمام حسب الذين حددوا له موقعه اخذ يتراءى من بعيد شبه منفرد الا من بعض الحقول التي تمتد قريبا منه ، وندم على انه جاءه اعزل لايصطحب خنجرا او عصا على الاقل فربما لاقاه هذا السفيه بتهجم واهانة واعتداء حتى ..فالمسالة مسالة شرف والشرف لايتم التنازل عنه بالتوافق عادة في ارياف مدينة الراس وانبرى احد الكلاب بالنباح فايقن بوحجلة انه اصبح على مشارف المنزل بل انه بلغ الباب دون اعتراض من ذلك الكلب الذي اخذ يبصبص بذيله بعيدا ، وكانت ذهبية هي من فتح اثر طرقات خفيفة ثم ارتمت على صدر ابيها :

ــ ابـــي ..ا

وقذفها بعيدا وهو يقول :

ــ لست بابيك ..لست بابي احد..

وظلت واقعة على الارض وهي تنظر اليه بريبة وتقول :

ــ لماذا ؟ ماذا فعلت ؟

وبكت في حين ظل واقفا يعلك حيرته ..ثم وكانه افاق من سهو :

ــ اين ذلك الخبيث ؟

ــ ايهما ؟

وضحك ساخرا :

ــ وهل هما اثنان ؟

واخذت تستجمع قواها وتنهض وتقول :

ـــ الحكاية اطول مما تتصور يا ابي ..

وبلهجة لاتخلو من قوة :

ـــ قلت لك اين الابله ؟

ـــ الشمام في السجن الان..

ـــ ذلك هو جزاء من يعتدي على بنات الناس ..

ـــ يعتدي عليهن ام يخلصهن من الاعتداء ؟

وجلس مسندا ظهره الى الجدار قرب الباب وارسل بزفرة قوية وهو يقول كما لو انه يكاد يبكي :

ـــ ذهبية ماذا تقولين ؟

وبكت على ركبتيه قائلة :

ـــ الشمام انقذني يا ابي انا اختطفت من بلدتنا

وكدت اتعرض الى الاغتصاب لكن الابله الشهم

هو من طعن ابن القايد انتقاما لي ..

وكادت الارض تنفلت من تحت قدمي بوحجلة بعد ان وقف ممسكا بذراع ابنته :

ـــ واين الوغد ابن القايد ؟ انا من سيقتله ..

ـــ هو في المستشفى ..لاتعرض نفسك لكلاب ضارية ..

حسبي رجلا افتداني فلا اطلب المزيد..

ـــ ولكن الامر يعنيني انا ..انا ابوك ..

ـــ هو ايضا ....

وسكتت لان لحديث بنات الريف قواعد اقتضت سكوتها ..ففهم بوحجلة واكمل :

ـــ هو ايضا خطيبك..اعرف ..ونعم الخطيب ..

في هذه اللحظة سمعت ذهبية صوتا من داخل المنزل :

ـــ ذهبية ..من هذا الرجل ؟

ـــ انه ابي يا خالتي ..

واقبلت العجوز والدة الشمام قائلة :

ـــ وتتركينه خارج المنزل ؟ تفضل..تفضل..

وتقدم منها بوحجلة فقبّل راسها وهو يقول :

ــ بل سنرحل ..

قالها والتفت الى ذهبية وكانه لا يستسيغ بقاء العجوز بمفردها ..فقالت الفتاة :

ــ بل سياتيها ابنها (العارف) اخو الشمام..

وتحرك الحوذي السابق وخلفه ابنته التي التفت نحوها وهو يكاد يحضنها وحز في نفسه ان يكون قاسيا عليها كما قست عليها ظروفها ومشى بضع خطوات ثم توقف ينتظرها وقد دمعت عيناه :

ــ ذهبية سامحيني..لقد فهمت ما حدث خطأ..

الشمام لم يخبر رملية بما فيه الكفاية فاعتقدت

كما اعتقد اهل البلدة انه هو من..

والى هنا ضحكت ذهبية لاول مرة منذ ان التقيا وقالت :

ــ لو كان هو من فعلها ما اخبركم اني مقيمة بمنزله..

ــ هذا صحيح يا ابنتي ..حبيبتي.. وحيدتي..

قالها كلمات مترادفات وربت على راسها ..وراعه ان ملامح ذهبية لم تحتفظ بكل ذلك الوهج الفاتح الذي عرفت به بل ان مسحة من ذبول تعلوها بينما خيم على جفونها ازرقاق ثقيل نتيجة طول السهر..

ــ ولكن ما الذي جاء بك الى هنا ؟

ــ انا اختطفت يا ابي فور خروجي

من منزلنا في طريقي الى دار رملية..

ــ ومن فعلها ؟

ــ رجلان عرفهما الشمام احدهما يدعى

المجذري و الاخر يسمى المهر.

وكاد يضحك وهو يعترض كلامها :

ــ واين كانت تنتظرنا هذه الاسماء الغريبة ؟

واضاف قبل ان تجيبه ذهبية :

ــ وماذا كانا يريدان منك وهما لا يعرفانك ؟

فقالت وهي تصلح شالا قد رمت به على كتفيها :

ــ كانا ماجورين من ابن القايد لذلك..وحين اوصلاني

الى حيث كان ينتظرني اصرفهما بعد ان اعطى كلا منهما

مبلغا من المال..ولما همّ بــالاقتراب مني وكان ثملا

عاجله الشمام (الابله)بطعنة من خنجره ثم هربنا وتركنـــــــاه

يتخبط في دمه ظنا من الشمام انه سيموت ..

ولما قطعا مسافة لايستهان بها من الطريق نحو بلدة الثيران ناولها بوحجلة الزاد الذي كان قد تلقاه من مزارعي الحقول فاكتفت باكل بعض الفاكهة وهي تقول مبتسمة :

ــ انهم كرماء ..

فقال والدها في تاكيد :

ــ اذا لم يكن الكرم عند الفلاحين فاين نجده يا ابنتي ..

فاكدت مؤيدة راي ابيها :

ــ وهذا ما لمسته فعلا عند والدة

الشمام ايضا على ضيق ذات يدها ..

وقال لها بوحجلة مغيرا مجرى الحديث :

ــ قال القايد انهم اتموا معك التحقيق ؟ا

ــ ذلك الوغد قايد القياد لطمني على خدي هو وابنته

غزالة زوجة ابن القايد بينما تعامل معي

" الجدارمية " بمنتهى الادب..حتى ان الدركي

لما قلت للمترجم ابلغه اني انا من طعن

ابن القايد دفاعا عن شرفي ابتسم وقال لو لم يسبقك

الشمام الى الاعتراف لاعتقدنا انك الفاعلة ..

ــ تعاملوا معك برأفة لانهم اثبتوا عدم ضلوعك في الجريمة..

وضحكت وهي تلتفت اليه وقد انهت الفاكهة التي كانت بيدها :

ــ ابي لا تسمها جريمة واين يكون العمل

الشريف اذا لم يكن ما فعله الشمام.

ــ صدقت... صدقت ..هي جريمة في نظرهم هم .

قطعت ذهبية ووالدها الطريق الضيق الذي اخذ المزارعون يغادرونه مع المساء ثم استقلا الحافلة بعد ان بلغا موقفا تميزه بعض الحجارة المطلاة بالجير الابيض ليقفلا عائدين الى بلدة

الثيران وبفزع كانت تتذكر اخطر الاوقات التي مرت بها وهي لحظة الهروب التي تلت طعن ابن القايد من قبل الشمام كان المنظر مخيفا و المكان مرعبا و الليل ممزجة ظلماؤه بالسكون الرهيب..

اثناء فرارهما كان اول ما قالته ذهبية للابله وهما يسيران في صمت تثقله قتامة الطريق وهي ترتجف من اثار الصدمة :

ــ انت شهم ..سافخر بك ..سانسب الطعنة الى نفسي

كما لو انني قمت بها دفاعاعن شرفي ..انت افتديتني بنفسك

بوظيفتك بحياتك بكل شيء وانا سافتديك سادخل السجن

عوضا عنك ..

وقبل ان ينبس ببنت شفة اقتربت منه دون ان تتوقف عن السيرثم رمت بذراعها عليه كقضيب من نور ولفها صمت من يحتمي بوثن من عاقبة يخشاها ..لم يكن ما تفعله الان عناقا او دعوة مبيتة لامر ما بل كان فقط عربون تقدير وامتنان ..وبادلها الابله حركة كالعناق في صمت ايضا وفي ادب جم مكتفيا بوضع ذراعه على ظهرها بعد ان تناول بندقيته بيده الاخرى وكأنه يتيح ليدها عرض كتفيه معا لتسرح عبرهما واخذ يثقل خطوه لكيلا يتعبها ان هو اسرع في السير .وفي روعها ادركت انه لم يكن يتصور ان الذراع التي تطوق عنقه هي ذراع ذهبية ..صحيح ان اقدامه على طعن ابن القائد كان موقفا يفوق مفاخر كبار المعتدين بانفسهم لكن ان تطوقه ذهبية بذراعها هكذا طواعية وببادرة منها فامر ظل خارج الاحلام ..خارج التوقع.. بل وخارج الاماني حتى ..هناك اشخاص يسبغ عليهم تفكيرنا الطويل فيهم هالة من القدسية تجعلهم في نظرنا خارج مصاف البشر في حين يبقينا تفكيرنا هذا نحن في مرتبة البشر فقط فيوسع بذلك الفارق المعنوي والنفسي بيننا وبينهم ..لم يمسس ذراعها ولا يدها لان لمس أي زاوية من جسد ذهبية يعني الاساءة الى تمثالها الذي شغل بلدة الثيران والقرى من حولها هكذا فسرت موقفه ..ثم قال لها ويد كل منهما حيث هي :

ــ لن تدخلي السجن يا ذهبية..انا طعنت ابن القايـــــد

وانا من سيعدم ان مات اوسادخل السجن ان لم يمت

هذا اذا حددوا هوية الجاني طبعا فلحد الساعة لايوجد

شاهد على الوقيعة الا نحـــن الاثنان فابن القايد قد اصرف

الخاطفين بعد ان ناولهمـــا ما كانوا قد اتفقوا عليه من مال

كما تعلمين والحمد لله انه فعل قبل ان يحاول الاعتداء عليك

والا كنت قتلتـــه في حضورهما اوربما استخدمت البندقية عوض

الخنجر وقتلت الثلاثة معا ..

واحست بيدها تضغط على قفاه بقوة ثم على عنقه اكثر من ذي قبل بل انها مررت راحة يدها على ذقنه الامرد واخذت اصابعها تداعب عضلة حلقه في تدليك غالبا ما تحول الى بسط يدها على عنقه كله وهي تقبض عليها ..ثم قالت :

ــ انت بطل..من حق بلداتنا كلها ان تنظر اليك كبطل ..

وخيل اليها انه يلتقط كلماتها كما لو انها تاتي من مصدر اسطوري..انها همس قادم من خارج المنظور ..من وراء المحسوس به .. ففي نظره لم تكن الكلمة تتميز لا بجرسها ولا بمعناها بل بمصدرها الذي هو ذهبية كانت الاحاسيس تغلب الكلمات لانها احاسيس اناس لاقدرة لهم على التنميق و الفلسفة و التحليق في الخيال ..

مرت الحافلة بالعديد من المداشر والقرى المجهرية مما اطال مدة سفرهما وجعل ذهبية تعيد في خيالها لحظات مثولها بين يدي قايد القياد وابنته المتجبرة غزالة

فبعد ان طلب امتثالها امامه ارتعدت لانها لم تقابل كبير قوم طوال حياتها ومع ذلك رضخت للامر والغريب انه فضل ان يتم ذلك في منزله بدل مكتب رئاسة القياد..ولما ادخلت عليه وجدته يجلس بصدر غرفة ممتدة ومؤثثة بافرشة وقطع من نحاس و الى جانبه سيدة انيقة المظهر تبدو دون الاربعين غير انها لم تبادلها النظر.. وما هي الا لحظات حتى اشار قايد القياد الى احد خدمه لياتيه بحذاءه من زاوية الباب ثم قام ولطم به ذهبية على وجهها فتاوهت ثم بكت في صمت وهو يقول عائدا الى مجلسه :

ـ يا ابنة الرعاع تتطاولين على زوج "لالّاك"(10)

فانتظرت ذهبية من المراة الجالسة ان تتكلم لصالحها لكنها عوضا عن ذلك تقدمت منها مقطبة وصفعتها بدورها وهي تقول في حنق :

ـــ أنا لالّاك غزالة ألم تسمعي بهذا الاسم

الذي لا يخفى على أحد أيتها الراعية..؟

.بعد ذلك زمجر قايد القياد في وجهها غاضبا :

ــ هيا انصرفي الى ان انظر في امرك.

وارتاعت لوعيده وهي تغادر مكفكفة دموعها و تسارع الخطـــــى خلف حارسين كلفا باعادتها الى منزل الشمام بعد ان كانا قد اتيا بها منه الى مكتب قايد القياد وكان الحزن الذي يعتصر ملامحها يكفي عن اي كلام او غضب كان ثلاثتهم يسيرون صامتين بينما انصرف تفكيرها في ما ال اليه امرها مستعيدة لطمة قايد القياد وصفعة ابنته ..اه ابنته غزالة..التي لاتمت لنعومة الغزال باي صفة ..وابتسمت ذهبية على مضض معلقة في سرها ان دمامتها هي ما رغّب مشاعر زوجها في العدول عنها والسعي خلف جمال ذهبية ..؟ اه.. ابن القايد قيل انه افاق من غيبوبته لكنه لايزال بين يدي اطباء مدينة " الراس" التي نقل اليها على جناح السرعة ؟ و (الابله) الذي ما لبث معدنه الاصلي ان غلب على ما سواه و في الوقت المناسب . ماذا فعل به القايدان وزبانية المتصرف المحلي ؟ يا له من شهم جنبها معرة الدهر والا صارت مادة لسمر الاوانس والارامل في بلدة الثيران.. وحين انتهت الى هذا الحد من التفكير بكت ..اجل تبللت عيناها الجمليتان لاول مرة حزنا على الابله والابله اعترف بطعنه لابن القايد بعد ان افاق هذا

الاخير واخبر بمن اعتدى عليه محتفظا بالسبب الذي دفع الشمام الى ذلك لكن استنطاق الابله ادى الى اتساع رقعة التحقيق لتشمل الخاطفين ..

وتساءلت ذهبية في قرارة نفسها وهي تسير الى جانب الحارسين هل اختطفها ابن القايد انتقاما من والدها بوحجلة حين ابلغته رملية انه زارها ليلا بحثا عنه ..؟

فانذاك لم تعرف حسناء بلدة الثيران كيف تستقبل هذا الخبرمن رملية وهي تطلعها عليه هل كخبر مفرح ام كخبر ينطوي على ما بعده ؟ وبعينيها الحائرتين كانت رملية تتتبع اثار كلامها على محيا الفتاة التي سالتها يومها هامسة :

ــ رملية ..وكيف كان رد فعله ؟

ــ لاادري..لكن ليس في الامر حيلة..

ـ كان عليك الا تخبريـــــــــــه ..

ــ تصوري ماذا كان سيحدث لو انه التقى

هو ووالدك في منزلي ..

وسالت ذهبية نفسها وكأنها تذكرت شيئا ذا بال :

ــ ولكن..من علم بامر ابن القايد حتى

تم نقله الى المستشفى في تلك الليلة ؟ من انقذه ؟

كان ذلك هو بالذات ما نقله قائد كتيبة الدرك الى المتصرف المدني (لوران) ضمن محضر التحقيق في لقاء مطول لهما تم صبيحة اليوم الموالي للحادث فبعد ان اخذ مقعدا امام مكتب المتصرف الذي بدا متجهما قلقا وهو يناوله المحضرالمتوسط الحجم ويقول :

ــ ذه حصيلة التحقيق سيدي المتصرف ..

واشاح بوجهه محتفظا بما يشبه الغضب وقال :

ــ اخشى ان يكون الجانب الجنائي

قد استحوذ على التحقيق يا حضرة..

وتراجع قائد كتيبة الدرك في جلسته وسال :

ــ وهل تعتقدون ان للمسالة وجها اخر ؟

وهزالمتصرف راسه وابتسم ساخرا او جادا..بينما اضاف قائد الكتيبة :

ــ في اول الامر اخفى كل من الضحية

(ابن القائد) و المتهم وهو الشمام (الابله) حضورالفتاة ذهبية

الواقعة..

قال ذلك ثم لجأ الى الصمت حين راى عيني المتصرف توغلان في صفحات المحضر..كان يقرأ وهو يهز راسه احيانا واحيانا يجمع شفتيه كما لو انه بصدد اطلاق صفير، ثم توقف عن القراءة واشعل لفافة (باسطوس) قبل ان يواصل..الى ان استخلص ان السياق الذي ادرجت ضمنه الافادات لا يجلي الامر الا من زاويته الجنائية عكس ما يتوقع هو .

كان يقرا يتقدمه انفه الطويل ثم يقارن بالرواية الشفوية التي ابلغه بها قايد القياد قبل لقاء الضابط الدركي **:((فجاة تلقيت الخبر من ابنتي غزالة زوج الضحية ابن القايد التي اخبرتني ان زوجها يختلي الان بالمدعوة ذهبية في ضيعة والده وقد نقلها اليه رجلان من مساعديه غير الرسميين هما المجذري والمهر.وان المجذري هو من اخبر غزالة بذلك لانه كان عينا لها على زوجها ..فانتقلت شخصيا الى عين المكان بهدف تعنيف الزوج الخائن وتحذيره وزجر الفتاة الزانية لكنني وجدته وحيدا مصابا بطعنة خنجرفي عاتقه الايسر والدماء تنهمر من جسده..فصحت في معاوني ان احملوه بسرعة الى اقرب مستشفى ففعلوا وعدنا دون ان نعثر معه على اي شخص غيره ..))**

وقال قائد كتيبة الدرك مكملا :

ــ كل هذا منصوص عليه في المحضر

يا سيدي مضافا له افادتا الرجلين الخاطفين..

وساله المتصرف :

ــ هل هما خاطفان ؟

ــ اجل.. فالفتاة اختطفت ونقلت الى

حيث كان ابن القايد في انتظارها فسلماها اليه

ثم انصرفا بامر منه بعد ان تقاضيا مبلغا من المال ..

وضحك قائد الكتيبة مستطردا :

ــ ثم اتجه احدهما وهو المجذري الى

زوجة ابن القايد بالخبروهكذا تقاضى

اجره منها مقابل ذلك بالاضافة الى ما تسلمه

من زوجها ثمنا لاختطاف الفتاة ..امرعجيب

وعاد المتصرف الى سيجارته قبل ان يقول :

ـ ومن كل ذلك لم تتوصلوا الى قاتل بل الى متهم فقط.

ــ في اول الامر ..لان الخاطفين اختلفت اقوالهما..فاما

المجذري فقد ادعى انه رأى الشمام(الابله) الذي يقال

مرة انه زوج الفتاة عرفيا وطورا خطيبها ..رأه في

بالضيعـــــــــــة اما رفيقه المهر فنفى رؤيته للرجل ..

لكن رغم ذلك كثفنا التحقيق مع المتهم.اعني (الشمام)

يقودنا احتمال ان غيرته على زوجته او خطيبته تكون

قد دفعته الى طعن ابن القايد ..

ـــ كانا يعرفان الفتاة اذن ؟

ـــ المهر هو من راها قبل ذلك في منزل المدعوة رملية..

ثم ترصدها رفقة زميله قبل الخطف فعرفا طريقها ..

وحك المتصرف ناصيته الخفيفة الشعر وقال :

ـــ ما يهمني ان الفتاة ذهبية عميقة الصلة

بارملة في بلدة الثيران يقال لها رملية

وخطورة هذه الارملة تكمن في كونها شقيقة الصواف

ابن الـــ ppa المعروف (11).اذن فابن القايد انما اصيب

من طرف واحد هو زوج او خطيب فتاة على صلة

بهذه العائلة المشبوهة. ليست المسالة بالقدر الذي اضفي

عليها من الحياد الجنائي يا حضرة ..

وهز قائد الكتيبة راسه بالموافقة رغم انه لايذهب الى الحد الذي ذهب اليه المتصرف الذي اضاف :

ـــ خذ معي فقط الظرف الزمني الذي

تقع في اعقابه هذه المحاولة..

واردف المتصرف كما لوانه يرمي الى اقناع محدثه بالنظر الى طعنة ابن القايد في بعدها الاعمق :

ـــ ان حوادث شهر ماي قد اكسبت الاهالي جرأة غير

مسبوقة فقبلها لم تصب حتى كلاب القياد بسوء فضلا

عن ان يصاب ابناؤهم.

وعاود نفسا من سيجارته " الباسطوس " واكمل :

ـــ ما يهمنا ليس موت ابن القايد من عدمه بل

الابعاد التي يكتسيها هذا الفعــل وظرفه الزمني ودوافعه

الحقيقيـــــــة..فنحن لسنا في بيئة طبيعية يا حضرة ..

و اظهر قائد الكتيبة اقتناعه رغم انه كعسكري ظل يضع كلام المتصرف المدني في خانة التهويل فحسب فالمسالة عنده لا تتعدى كونها ناتجة عن لحظة انتقام سببها ما اقدم عليه ابن القايد .

واستمر المتصرف في قراءة المحضر الذي تضمن استنطاق كل من الابله والفتاة ذهبية و بن القايد المصاب ..وقال معلقا :

ــ الفتاة تعترف بانها هي من طعن الضحية دفاعا

عن شرفها لما هم باغتصابها ..

وقال الضابط الدركي :

ــ جاء ادعاؤها هذا بعد اعتراف الشواف بفعلته

ثم تراجعت موضحة انها قالت ذلك فداء

للرجل الذي ضحى من اجلها..تماما كما توقعنا

الفصل الثامن عشر:

عطر الوداع :

كل هذه الاحداث اصبحت في طي الماضي ببلدة الثيران عودة ذهبية و اعتقال الابله والخاطفين المهر و المجذري ومعافاة ابن القايد بينما اصبح جديد البلدة هو انتظار زيارات من سيتقاطرون عليها لحضور عرس " علي " من "جمعة " ، كبوداود والجودام و ربما محمود حسب بعض الاخبار ، وانصراف النسوة الى ما يمكن ان يكنّ عليه من تانق في هذا العرس..

قبل كل ذلك كانت بلدة الثيران قد استقبلت انسة في العشرين من عمرها متعلمة وعلى قدر من الجمال سرعان ما اسمتها بنات القرية ببنت المدينة انها " امنة " ابنة الصواف وقد جاءت تزور عمتها رملية هكذا بصورة فجائية جعلت ضروى تعلق :

ــ ترفض الزواج من محمود ثم تزور داره ؟

ليس هذا من تقاليدنا..

وقالت لها ذهبية :

ــ هي ابنة خاله سواء حدث زواج او تمنع..

فقالت ضروى كما لو انها كانت تريد لذهبية بالذات ان تتكلم :

ــ نحن نتحدث عن الاصول ... الاصـــــــول..

وعلى الرغم من ان ذهبية فهمت تعريضها الا انها لاذت بالصمت نزولا عند رغبة والدة ضروى التي اومات اليها بعينها الا تتمادى في جدال هذه الفتاة السليطة اللسان قائلة لابنتها :

ــ ضروى..كفي عن ملاسنة الضيوف ..

فضحكت بخبث وهي تنظر الى ذهبية :

ــ من الضيوف ؟ ذهبية ابنتنا وليست ضيفة ..

وراق كلامها الجميع بمن فيهن ذهبية التي ابتسمت في وجهها.

و ليلا نزل بوداود بقريته..قرية الثيران..التي لم تكن نفسيات اهلها قد تخلصت من اثار احداث شهر ماي 1945 وكابوس ذهبية ولو انها تستقبل في عرس " علي " مناسبة للنسيان المؤقت كان مجئ بوداود قبيل موعد الزفاف بليلتين فقط بل ان بعض الوجوه كالسي عبد الدايم و العم بوجمعة وبوحجلة الذي بدا متعافيا من اثر الصدمة و اخرين قد وجدها رفقة ابيه كدليل على قرب هذا الموعد وبدوره ظل جناح النساء دائم الحركة والاحاديث..وتلقى بوداود تهاني الجميع بالسلامة بمن فيهم ذهبية التي ينفرد فؤادها بسؤال يسكنه منذ ايام عمن تكون زوجة بوداود الان ..اهي الالمانية التي تحدثت عنها بلدة الثيران يوما ما كما لو ان امرها صار حقيقة ، ام فرنسية ..ام من هي من خارج الجنسيات المعروفة ..؟ وكانت رملية ترقب

تغير ملامح الفتاة التي تحبها ، كانت ملامح جميلة بلدة الثيران قد استضاءت بوهج طارئ من جديد بعد ذبول عرفته منذ ان انكسر بها الدهر اثر حادثة ضيعة ابن القايد حيث فشلت محاولة اغتصابها..بل وعلت شفتيها بسمة رضا وفي عينيها اشعاع افتقدتاه منذ ايام اللقاءات العابرة قريبا من اسطبل الحصان النافق ..كل هذا الانقلاب عرفته ملامحها وهي تقف الى جانب بوداود حين زار مقصورة الطبخ التي الحقت بالمطبخ التقليدي الضيق بحكم متطلبات الطهو التي اتسعت ... أه.. يا ذهبية انك الان تستاثرين بالحديث مع بوداود كما لو انك تنتقمين لسنوات الصمت و الكتمان التي اغتالت حبك واستبدلته بما يشبه العهر العلني بعد رحيله..وكان الرجل ـ رغم ما بلغه عنها حتى الان من كلام مبالغ فيه غالبا كعادة اساطير الارياف ـ سعيدا باقبالها عليه .وتفتّح نفسها على محادثته..الى ان نادته رملية من داخل المطبخ القديم و كان قد طمانها عن محمود وابلغها سلامه :

ـــ متى تعود الينا نهائيا.. الى بلدتك ؟

وكسؤال يتعلق بمستقبل بوداود اعتقدت ذهبية انه يهمها لوحدها فانتظرت جوابه بفارغ صبر..غير انه جاء مقتضبا ملتبسا :

ـــ لن امكث كثيرا حتى اعود الى قريتي..

وكادت ذهبية تضع كلمة (حبيبتي) مكان (قريتي) لكن ليس في وسعنا ان نتصرف في كلام الاخرين حتى ولو كانوا احبتنا ..كانت حسناء البلدة تخشى على قلبها من ليلتها تلك ،ليلة لقاء بوداود بعد طول غياب بل ومحادثته راسا ..فنحن قد نامن بعد الحبيب على قلوبنا لكننا لا نامن قربه على نفسياتنا .. لاسيما من كان في طبع ذهبية التي دائما لاتخشى الفعل ولكنها تخشى ردته ..سيفترسها طيف ملامح بوداود ووقع كلماته القليلة وسؤالها المركزي ..ولذلك لن تعود الى منزلها كما تفعل غالبا بل ستصطحب رملية لتبيت عندها فهناك يمكن ان تتحدث ان تناقش ان تبكي ان تحزن ان تفرح حتى بحضور ابنة الصواف " امنة "..

وحين عاد بوداود الى الغرفة التي حل بها في الاول اقبلت خلفه النسوة بمن فيهن ذهبية التي ما ان استقر بهن الجلوس حتى بدا لها ان ضروى تستفزها حين اقدمت عليهن وهن جالسات الى بوداود والدته و رملية والناعسة والزينة وذهبية واخريات وقالت وهي تعانقه :

ـــ حدثنا عن خطيبتك الالمانية ..

وامتقع لون ذهبية كما تغيرت ملامح بوداود وهو يقول :

ـــ نحن الان في عرس " علي "يا ضروى..

وضحكت وهي تدني فمها من خده وتقول :

ـــ ارنا صورتها اذن..

واضطرب بوداود ربما رافة بمشاعر ذهبية وقال :

ـــ من اخبركم بهذا ؟

وحافظت على ضحكها وقالت :

ـــ انت طبعا..من خلال رسائلك الى " علي"

فلماذا تنكر الان ؟

وتدخلت والدتهما :

ــ ضروى ..انصرفي الى المطبخ لاحضار

القهوة ..هيا.

وامام دقة هذه اللحظة وعنفها كادت ذهبية تنصرف هكذا دونما تقيد بواجب الترحيب لكنها كتمت غيظها متسائلة عن ماذا يعنيها من امر بوداود وزواجه او عشقه ؟ ورغم ذلك استقبلت ساعة انصرافها بفارغ الصبر حين اخذت رملية و الناعسة تتحفزان للمغادرة وخلفهما الفتاة " امنة " ابنة الصواف ..والغريب ان ذهبية تخلصت في بيت رملية من امعان التفكير في بوداود وضروى حيث اتجهت مشاعرها نحو الشمام (الابله)..لقد اصبحت تحسن الانتقام .في معناه الفعلي وليس النظري فحسب..لن تفكر فيمن لا يفكر فيها ..ولعلها القاعدة الذهبية المقتبسة من تجارب رملية ..انها الان تفكر في بنية الشمام (الابله.) القوية ولو عن بعد وتبتسم اما لاحاديثه القليلة او لتفكيره البسيط ..لكنها تكبر فيه كونه الرجل الذي ثأر لها وجسد معنى الشرف فقفز من موقع مهمشي قرى مدينة الراس الى مصاف اشدائها ..ابطالها.. كم قرية تتحدث عنك ايها الفتى الصنديد؟ كم دوارا؟ كم حلقة سمرتعلي من شانك؟ لكن هل ترى الامر بلغ مسمع بوداود؟ امر محاولة الاعتداء عليها وموقف الشهم الشمام ؟ كان بوداود قد تلقى اشارات عن الموضوع من شقيقته ضروى وشقيقه " علي" لكنها اشارات مبهمة مقتضبة بحكم انشغال الناس بالزفاف الى ان التقى بوداود العم بوجمعة الذي دافع عن ذهبية دفاع محام متمرس محملا ابن القايد وزوجه غزالة تبعات ما حصل للفتاة البريئة التي اقرت ان قلبها وقلب بوداود قد اتفقا ضمنيا على عدم الاكتراث ببعضهما فهو لايعتقد انه لا يزال يهمه طهرها او عهرها وهي لايضيرها الان ان يعلم بالذي حصل سواء في حقيقته او في صورته المشوهة ــ التي قد تلفقها شقيقته ضروى ــ بعد ان رست مراكبه بميناء الفتاة الالمانية وركنت سفنها هي بمرفأ الابله..وما لبث بوداود ان تذكر ذلك النعت الذي اطلقه العم بوجمعة على ذهبية حتى قبل ان تتعرض الى ما تعرضت له حينما وصفها **بسلطانة النحل التي سيموت كل الساعين خلفها قبل ان يمسكوها** .. وضحك وهو يعدد هؤلاء فاما بوداود فقد هاجر الى اقاصي الارض واما ابن القايد فطعن الى ان كاد يلفظ انفاسه واما الشمام (الابله) فسجن اية نبوءة تنبأها التاجر الصغير بخصوص الفتاة ؟

لكن الذي اثار غرابة بوداود في كلام العم بوجمعة ليس اغفاله ايحاءاته التي حملها اليه بخصوص ذهبية حين زاره بثكنة الراس قبل الحرب فحسب بل ان المثير في التاجر الصغير انه من بين الذين اثارت حماسهم احداث شهر ماي فاصبحوا منسجمين مع رؤى الصواف ولو من باب توارد الخواطر ..ليس ذلك فقط بل انه قال له ساخرا حين فرغوا من تناول طعام العشاء وهو يهامسه ضاحكا :

ــ لقد تحصلتم على نفس جائزة سلفكم

الكولونيل بن داود..

فابتسم بوداود وقال :

ــ هل لا تزال تذكر هذا الكولونيل ؟

وتنهد العم بوجمعة وهو يقول :

ــ اصحاب الكلام الخالد يخلّدون يا بوداود.

فقال له بوداود :

ــ تصور ان ابي لم يغيّر فكرته من

انضمامي الى الجيش ..فهل انتم من

طينة الصواف ؟

وساله العم بوجمعة :

ــ الصواف ؟ وما به ؟

واخبره بوداود عن الوصية التي حملها محمود من خاله ايام تجندهما .فقال العم بوجمعة :

ــ والى اي حد بلغ وفاؤكما بها ؟

ــ تذكرتها حين رايت ابنته " امنة "

ــ اذن نسيتها ؟

ــ لم انس مع اننا محمود وانا لم نفهم الهدف منها..

ورفع العم بوجمعة حاجبيه في تساؤل هو الاخر .

اما ذهبية فلم ترد ريوق مزاجها في هذه الليلة الى لقاء بوداود لانها لا تريد ان تنسب اليه امرا ايجابيا يخص وجدانها بل انها كانت الليلة اكثر ضحكا ومرحا من رملية وابنة اخيها " امنة" الى ان قالت لها الارملة بعد ان دلفوا الى المنزل واغلقوا الباب خلفهم :

ــ ذهبية ..لقد جاءتني امنة بمبلغ من المال

اوصى الصواف باعطائه الى والدة الشمام..

وقالت ذهبية مبدية بشاشتها وهي تلتفت الى " امنة " التي جلست قبلهما :

ــ وهل افرج عن عمي الصواف ؟

وهزت امنة راسها بالنفي وهمست :

ــ حين زارته والدتي في السجن واخبرته

بواقعة الشمام اوصاها بذلك..

واكملت رملية :

ــ ولك انت ايضا من غنيمة عمك نصيب ..

ــ انه رجل شهم وطيب ..جزاه الله عنا خيرا ..

قالتها ثم انتقلت الى غرفة موالية لتصلي.

وبعيد غروب اليوم الثاني وعلى قارعة نهج مقابل لمنزل العم بالقاسم وعلى الهواء الطلق حيث اسدلت افرشة صوفية وقماشية اخذت الجموع اماكنها شيبا وشبابا بينما اكتفت النساء بتجمع بعيد نوعاما لمتابعة سهرة العرس التي برز طاقمها الان متكونا من البراح المعروف بـــ (الرقبة) والشيخة التي استعارت اسم (سهر الليالي) و قصابيها " حمو" و " بووذن" وراقصتها الفتاة الرشيقة (عود الزان) التي تعود اصولها الى مدينة الراس وقد اكتسبت اسمها هذا من شاعر شعبي جوال هام بها في شيخوخته ..تناهت الاشارة الى القصابين فزفر " حموّ " مسترعيا اهتمام الجميع ليلحق به " بووذن" الذي تميز بشاربين اقل طولا من شاربي " علي" العريس فاخذت انغام القصبة قوة لافتة ترنح على ايقاعها الكثيرون جلوسا في اول الامر الا البراح " الرقبة " الذي كان واقفا وقد انبرى صائحا باعلى صوته :

ـ فرّج يا ربي على من ضاقت به حبس الرومي لا اتبيّت مسلم فيه

فما كان من ذهبية في جناح النساء الا ان شهقت شهقات متتاليات كانت من حيث الحدة و القوة بحيث لفتت اليها انظار من كن حولها لقد جاء بكاؤها معاكسا لتيار الفرح الذي يغمر منزل العم بالقاسم وما حوله انها لا تبكي بوداود الذي يبدو ان حبه قد تصرم و لا ابن القايد بعد فعلته التي فعلها معها لكنها بالتاكيد تبكي شخصا اخر صار رجلا كاملا في نظر بلدة الثيران وربما في نظر كثيرين خارجها .. فالبلدة لا تلهج السنة كبار وجوهها في هذه الايام الا بفعل الشمام (الابله).العم بوجمعة و الشيخ عبد الدايم و بالقاسم والد بوداود فضلا عن شبابها .بل ان بعضهم اعتقد في هذه اللحظة ان البراح " الرقبة " لا يعني بكلمته تلك الا الابله رهين معتقل مدينة الراس منذ شهور.. لم يكن يعني ذهبية امر النساء وقد لبسن افخر ما عندهن من ثياب وبعض الحلي وان كان اغلاها ما ارتدته ام بوداود وابنتها ضروى لان بوداود جلبها من فرنسا بل حتى رملية تبدو بلباس ارسله لها محمود لم تعرضه حتى واجهات اكبر المتاجر في مدينة الراس .. وكل شيء ياتي من فرنسا فهو جميل الا رصاصها حين يوجه الى صدورنا كما حدث في شهر ماي..هكذا علقت ذهبية لكنها سرعان ما ابتسمت لانها وجدت نفسها تتحدث بلغة العم بوجمعة .. اما هي فقد كان لباسها متواضعا لعل اجوده الحذاء الابيض الذي اهداه اياها محمود ذات يوم وكادت ترفضه اعتقادا منها انه من بوداود..لكن لماذا لم يثر ذلك في نفسها اي شعور منتظر ؟ ألانها الاجمل وجها وجسدا ؟ ام لان قلبها سلا بوداود لدرجة لم يعد فيها تجملها يشكل اي مطلب لها وهي تمر بين ناظريه ؟ ام لان فرنسا اصبحت وحدها مصدر الاناقة وهي التي اخذت منها الانسان الذي شعرت بامتلاكه لزمن طويل ؟ خمنت ذهبية في ذلك كله وقد صارت حتى ثياب عرسها التي تحتفظ بها منذ ان اشترتها من مدينة الراس لا تثير رغبتها في التانق لمن تتانق وقد خسرت كل الراغبين فيها تباعا ؟ صدقت الشيخة " سهر الليالي " التي غنت منذ حين :

" ودّرت قاع احبابي في عام السنا "

وفي ضحى الغد اخذت تتجمع نسوة البلدة ببيت العرس بعد دعوتهن الى قصعة الزينة ام العروس التي بدت في هذه الساعات وكانها انشط من في المطبخ والى جانبها ضروى واخريات ..وكان بوداود بعد ان حلق ذقنه قد جلس بغرفة مقابلة الى ان فتح الباب الخارجي ودلفت رملية تليها الناعسة فذهبية ثم " امنة " فحيينه وهن في طريقهن الى حيث تقيم والدته لا ستقبال الوافدات واسرعت ذهبية كما لو انها تنكر . على وجدانها محاولة استئناف عادته في الحنين .. لكنها تساءلت بعصبية كاد يعكسها وقع قدميها كيف نشتاق اليهم بعادا عنا

ونرفضهم حين يكونون قريبين منا ؟ كيف نستطيع فعل ذلك يا ربي ؟ ثم دنت من بوداود مستغلة وقوف "امنة" بالقرب منه وقد اخذ يسالها عن والدها وهي تساله عن محمود ابن خالها ..وعجبت ذهبية كيف تساله عن رجل خطبها ورفضته ؟ لكنها انتهت الى قناعة بان ذلك لا يمثل أي احراج في ذهنية بنات المدينة ..اما بوداود فقد جعله منظر " امنة" يستعيد وصية ابيها لمحمود بكل حذافيرها **((التجنيد في هذا الجيش هو وسيلتنا لاتقان استخدام السلاح الحديث الذي سنحتاج اليه يوما ما)) ..**وعلق بوداود.. ها قد اتقنّا استخدام السلاح الحديث رماية وتفكيكا بما فيه الكفاية ثم ماذا بعد ؟ .

وهمست ذهبية كانما تريد ان تلفته الى وجودها:

ــ هل اعجبتك بلدتنا ؟

وضحك وهو يرفع بصره نحوها..كيف سيجيب ؟ انها ذهبية التي اشتاقت نفسه الى همسة منها طوال سنين ..اه.. لماذا كان عليهما ان ينتظرا انتصاب كل هذه الفواصل بينهما ، الجيش و المانيا ثم فرنسا لكي يتحادثا وجها لوجه ؟ كيف لانت الحياة بعد ان ضمنت انها بلغت من التعقيد ما لا فكاك منه ؟ كم وجها مر بعينيك يا بوداود قبل ان تعودا لتستقرا على محياك من جديد يا ذهبية ؟، ثم قال لها :

ــ وهل اسقطتم انتسابي اليها ؟

وضحكت ذهبية اكثر وهي تقول وقد تخيلت ان جواب بوداود لايعني البلـــــــدة :

ــ وهل نستطيع ذلك ؟

فهز راسه موافقا وقال :

ــ اعرف ذلك ..الحمد لله اذ لازلتم عند

حسن ظني بكم ..

والى هنا جاء صوت رملية من الداخل :

ــ ذهبية .. امنة ..اين انتما ..هيا الى المطبخ..

فتحركت ذهبية وهي تقول :

ــ لماذا نحن ايضا الستن اكثر من عشر نساء هناك ؟

وجاء صوت الزينة ام العروس (جمعة) من خلف الباب دون ان تظهر :

ــ انما نريد لمسة من لمسات المدينة تضفيها

" امنة "على " القصعة " فتكون وجبة غير مسبوقة..

في بلدة الثيران ..

فصاحت ضروى من خلف الصحون :

ــ ولكن لمسة المدينة تحتاج الى مواد من المدينة ..

فقالت الزينة ضاحكة :

ــ اسكتي انت ..اشتغلي في ما هو بين يديك..

وتقدمت " امنة " من الزينة لتسالها ماذا احضرت حتى الان كقوام قصعة فاخذت تعدد ما اوجدته من كسكسي وسمن وحلويات وسكر و لحم وطعام وبيض و... فقالت الفتاة :

ــ لا يكاد الامر يختلف عن قصعتنا في مدينة الراس..

فقالت ضروى :

ــ خالتي الزينة ..الم اقل لك ..ان "امنة" فقط لاتريد

احراجك بمواد لاتتوفر عليها بلدتنا..

وضحكت امنة وهي تقول :

ــ لا..لا .. هنا لا تنقص الا الفاكهة لكنها ليست

ضرورية حتى في قصعة المدينة الا بالنسبة للبعض..

ثم انكم تكثرون من لحم الضان عكسنا.

كل ذلك المرح ساده شحوب بانتهاء ايام عرس " علي" الذي كان الجودام قد حضر جانبا منه على عجل لينصرف بدعوى كثرة اشغاله ، وعادت بلدة الثيران الى سابق عهدها لا جديد فيها الا بوداود الذي لم يبق من اجازته سوى يومين على ما تناقل الى سمع ذهبية التي لا تخفي ان وجوده بالبلدة اوقعها في ارتباك عنيف حتى انها احيانا كانت تتمنى لو انه رحل وحين صارحت جمعة التي لاتزال تحمل صفة العروس رغم ما انقضى من ايام على عرسها سالتها هذه :

ــ هل صرت تكرهينه الى هذا الحد ؟

وقالت هامسة :

ــ كلا ..لكن لااعرف ان كان الحب ايضا

ينتج هذا الذي اشعر به نحوه.

ولم يمر كثير من الوقت على محاورتهما هذه حتى اخذ بوداود يشد حقائبه في يوم كان عاديا الا بالنسبة لذهبية التي اندلعت مشاعرها من جديد..هل سيرحل فعلا؟ وهل ستستمر الحياة في البلدة دونما اضطراب ؟ الى من ستهرب اذن بشوقها بتعلقها بعلة وجدانها بعد رحيل بوداود ؟ هل ستخضع لقبضة الاغتراب النفسي كما كانت ؟ ام انها ستهرب للتفكير في الابله ؟ وقالت لرملية :

ــ الا نذهب لوداعه ؟

فضحكت الارملة ضحكا مدويا وهي تقول لها :

ــ هل عادت ريما الى عادتها القديمة ؟

واشتطت ذهبية في عصبية غير معهودة فيها :

ــ رملية ..هيا نذهب اليه ؟

ــ بل سننتظر قد ياتينا هو ..

واستحسنت ذهبية الفكرة وهي تسترجع وقائع ما فعلت في الوداع السابق .فسكتت رغم ان سؤالا ظل يمخر قلبها... هل سياتي ؟ تساءلت ثم قلبت شفتيها في استياء قد ياتي او ستذهب اليه لكن ما جدوى كل ذلك ؟ فهو عائد الى الالمانية خطيبته او زوجته وهي ستنتظر سراح الابله .. فحين لايعود الطريق واحدا يستحيل ان تجمعنا محطات عبوره ولو طال زمانها احيانا ، ومر يوم وما بقي الا واحد ترى كيف سيكون امرها ليلة انقضائه حين تخلو القرية من بوداود؟ هل صحيح ان القرويين سيواصلون حياتهم العادية وكأن شيئا لم يحدث؟ ام ستتوقف دورة الحياة تلقائيا في بلدة الثيران الى اجل غير مسمى ؟ لماذا تتقزم الحياة الى هذا الحد فتتجسم في شخص واحد رغم انها تتسع لملايير البشر ؟ ما هو السر الذي يجعل شخصا ما يحل محلها كلها على كبرها وتنوعها وهدوئها واضطرابها ؟

رغم تعلق سمع ذهبية بالباب طيلة ذلك الليل لم تسمع طرقا كما توقعت واستمر الوضع في الصباح الموالي رغم انها لم تغادر منزل رملية خوفا من ان ياتي بوداود ثم لايجدها هناك..لكن لما تدرج الضحى نحو منتصف النهار استاذنت رملية وامنة في الذهاب الى منزلها وكأنها تعلن اخفاق الوعد الذي قطعته الارملة ليلة البارحة حينما اعتقدت مجيء بوداود ..ولكم حز في نفسها ان تلتقي اباها قريبا من هيكل العربة الملقاة على الجدار ويقول لها :

ــ مسكين بوداود لقد غادر البلدة بعد ان

جاء لوداع العم بوجمعة بالمتجر مع

الصباح..

وتذبذب وقع خطواتها كما لو انها اصيبت بشلل لكنها سارت خلف والدها في صمت وكأن الامر لايعنيها ولسان حالها يردد: رحل اذن..كانت رجلاها لا تطاوعانها على السيروقد لعنت حظها العاثر الى ان دلفت وراء بوحجلة الى الدار وكانت المفاجاة ان تجد ضروى هناك على غير العادة فرحبت بها وجلست قريبا منها كان هناك شيء يبدو مكوما قرب الناعسة التي احضرت الشاي ..وبعد تناوله قامت ضروى وهي تقول :

ــ جئت فقط لا بلغكم وداع بوداود ..

ثم قالت ضاحكة كعادتها :

ــ لقد خصكما بذلك وحدكما وليس معكما

الا خالتي رملية ..

وابتسمت ذهبية في فتور بينما سارعت والدتها الى القول :

ــ ربي يحفظه ان شاء الله..

وما ان غادرت ضروى حتى اقبلت الناعسة على الكومة تبحث محتواها فاذا هي ثلاث زجاجات عطر متفاوتة الاحجام وهمست الى ابنتها :

ــ اوصتني ضروى ان نعطي رملية احدى

الزجاجات..

وعلقت ذهبية في سام :

ــ اعطها الثلاث كلهن فنحن لا ثياب لنا تليق بعطر

فرنسا.. انما خلقت ثيابنا للعرق يا الناعسة...

وجهلا بحالتها النفسية انتهرتها الناعسة بعنف :

ــ ما الذي تريدينه من الناس ؟ كل من اقترب منا

الا وتقابلينه بالرفض والتعالي والشموخ الكاذب..؟

وكان على بوداود ان يقضي يوما بليلته مسافرا ليصل الى باريس وبعد تناول قهوة الصباح باحدى المقاهى انتهز ما بقي لديه من وقت فزار منزل عشيقة انطوان وما ان دق الباب حتى فتحت ثم سارعت الى الاتكاء على ذراعه باكية :

ــ بوداود ؟ا حمدا للرب انك جئت ..

واذهله ذلك فلفها بنظرة قوية تاركا عينيه تنقلان اليها استفهامه ..فمسكته من يده وادخلته وهي تقول بتلعثم والشهيق يقاطعها :

ــ انطوان اعتقل اعتقل يا بوداود ..

وتوقف تحت وطاة المفاجاة والحيرة تشل خطوه :

ــ اعتقل ؟ا ومن اعتقله الالمان ام الفرنسيون؟

وتعالى بكاؤها :

ـــ بل الحلفاء .. اجلس .. اجلس ..

ــ الحلفاء ؟ الم يكن احد ضباطهم ؟

وقالت بعد ان عرضت على بوداود تناول فنجان قهوة فرفض :

ــ حسب الرائد بول فان التهمة خطيرة فهي اختفاء

غير ماذون اثناء معركة " ليل" كما انه لم يكن في

معتقل " بوخين فالد " الالماني كما ادعى والادهى انهم

اثبتوا وجوده بمدينة فيشي يوم ان كانت عاصمة لفرنسا.

وسكت بوداود لسكوتها قبل ان تضيف :

ـ ولم يكتفوا بذلك بل تعرض منزلي للتفتيش وتم

التحقيق معي انا ايضا كما لو انني لست فرنسية ..

وامام ما تكابده عشيقة صديقه لم يكن من اللائق ان يسالها عن مايكا بل لزم الصمت ..ثم اخذ يتحفز للانصراف فقالت له وهي تقوم من مكانها :

ــ انتظرني كدت انسى . هناك رسالة لك ..

وعاد الى جلوسه وسالها :

ــ رسالة ؟ وممن ؟

ــ من مايكا ..لقد سافرت الى شقيقتها بالنمسا..

وكما لو انه تلقى رصاصة ثانية بعد خبر اعتقال انطوان :

ــ سافرت ؟ا الم تكن تحت الاقامة ؟

ــ تم اعفاء من بقي على انتهاء مدة اقامته

شهر او اقل فكانت من بينهم لحسن الحظ..

وهز راسه مجاريا كلامها في غم :

ــ لحسن الحظ ..

وقام منصرفا وهو يقول :

ــ صعب ان تفقد عزيزين في لحظة واحدة ..

فقالت :

ــ لن نفقدهما ..

و في الثكنة حين قرأ عبد الكبير رسالة مايكا على بوداود لم يجدا فيها ما يخرج عن موضوع اشعاره برحيلها .فقال له محمود مقهقها كما لو انه يستفزه :

ــ يبدو ان بنت لبعيد كانت اوفى من كل هؤلاء ..

فنظر اليه القنفذ الذي كان هناك وضحك دون ان يفهم من كلامه سوى بنت لبعيد ثم حياه ممسكا بقبعته رغم انه لم يكن بعيدا منه ..

اما بوداود فكان يفكر في شيء اخر ولعله لذلك قال :

ــ الم يتعرض احد اصدقائنا للتحقيق

بشان علاقته بانطوان ؟

ولما نفوا ذلك واطمان قال له القفصي:

ــ ومن يتجاهل المدة الطويلة التي فرقت بيننا

وبين الرقيب الاول اقصد نحن اسرى المعتقلات

الالمانية؟

فقال محمود :

ــ ونحن الذين مكثنا في فرنسا هل كان لنا به صحبة

بعد عهد ثكنة الراس وهل عثرنا له على اثر ؟

وضحكوا جميعا الى ان انتهرهم بوداود :

ــ لا تتندروا بانطوان ايها الاشقياء..

.اذن فتشبع بوداود بالروح الفرنسية في نظر دوائر التحقيق لايطاله اي شك.. وابتسم لان هذا فقط ما كانت مايكا تريد له ان يعترف به بعظمة لسانه بيد انه ظل يكابر.

ودنا منه محمود هامسا :

ــ هل تصالحتما ؟

ــ من تعني ؟

ــ انت و ذهبية ؟

وعوض ان يجيب قال :

ــ اه..لم اخبرك..ان ايفا براون حلت ببلدة الثيران

وتفاجأ محمود فعلا :

ــ هل فرت من برلين ؟

ــ بل جاءت بصورة عادية دون هرب

و ضربه على كتفه قائلا :

ــ هل انت تمزح ؟

ــ لا امزح ..

ــ وهتلر؟

ــ تركته و اقبلت بمفردها..بل ربما يكون قد مات

وكاد محمود يغضب وهو يقول :

ــ بوداود..اخبرني من هي ؟

ووضع يده بيد زميله قائلا :

ــ بل التي حلت ببلدتنا هي " امنة "

وساله فرحا :

ــ ابنة خالي الصواف ؟

ــ اجل.. هي ..

ــ اذن ستكون رملية قد ذبحت اكبر الخراف ..

وضحكا معـــــــــــــــــــــــــــــا ..

هوامـــــــــــــش :

(1) مقولة "العربي يبقى عربيا حتى ولو كان الكولونيل بن داود "

مقولة شهيرة قالها محمد بن داود، المعروف باسم الكولونيل بن داود، وهو عسكري جزائري ولد في 1837، وكان أول جزائري تمدرس في المدرسة العسكرية سان سير التي أسسها نابوليون ومن أوائل العسكريين المسلمين في الجيش الفرنسي آنذاك ، قبل أن يتحصل على الجنسية الفرنسية. وسبب إطلاقه لهذه المقوله هناك روايتان :

الاولى : أنه اراد ان يحضر احدى الحفلات الراقصة التي كان يقيمها الفرنسيون فرفضوا أن يسمحوا له بالدخول الى مكان الحفلة بدعوى أنه عربي والعرب ممنوعون من حضور حفلات الفرنسيين فخرج غاضبا وقال مقولته المشهورة.

الثانية : تفيد ان احد جنرالات الجيش الفرنسي قام بعملية تفتيش لاحد الكتائب التي كان الكولونيل بن داود قائدا لها فلما حضر الجنرال قدم له ضابط فرنسي برتبة رائد الكتيبة للتفتيش بصورة مباشرة متجاهلا المرور بالكولونيل بن داود كرتبة عسكرية تتوسط بين هذا الرائد وبين الجنرال فرمى العقيد بن داود بقبعته الى الارض وقال قولته الخالدة تلك..

(2) اي ان السوق مكان للنزهة وللتمتع حتى بالنسبة لمن لا يبيع فيها ولا يشتري منها ..

(3) القصيدة للشاعر ابن العبادي الفها سنة 1906 وغناها الشيخ المدني عام 1938 ومطلعها:

ياعودي واش بيك راك اللا هانـــي كي ابغيت اتريح والريم في اعقابك ؟

وتظل مع الوطا اتسدي وتقانـــــي

معنى كلامه يا جوادي كيف هناؤك وخلودك الى الراحة ، اذا كانت اعباء لحاقك بالحبيبة تقف لهنائك و راحتك بالمرصاد ..(تسدّي بمعنى تمد خيوط النسيج و تقاني(بقاف مفخمة) تلف الخيوط على اصابعك..و يبدو ان الصورة مزاجية تعكس سير الحصان سيرا بطيئا ثم خببه و سرعته اي في مد وزجر..او ذهابه وايابه عبر طريق واحد كل يوم وكأنه يراوح مكانا معينا وربما هذا الاقرب.

(4) اي اذا هاج الجمل فاحذر ان تقع تحت كلكله بل حاول ان تتزحزح نحو ابطـــــــــــه والا رفسك بصدره .

والمعنى لاتواجه الاقوى بل خذ بالسبل الممكنة لمرضاته وتجنب بطشه واثارة غضبه .

(5) " ما جابك لينا حتى البراح " : اي ها انت ذا قد عدت الينا صدفة ونحن لو بحثنا عنك بواسطة المنادي ما عاد بك الينا..

(6) اي اني اخشى ان ياخذونا ويعبروا بنا (البحر) بواسطة الباخرة وقد وزعونا في شكل

راجمات (وحدات) حيث المشاركة في الحرب الضروس ..

(7) اي بماذا عادوا وليس كم غابوا..وهو قريب من المثل ((عاد خالي الوفاض او عاد بخفي حنين)) اذا لم يحصل على شئ من اهداف رحلته ..اي ان الرحلة لاتقاس بمدة الغياب بل بالنتائج المحصل عليها منها..

(8)- المقطعان الشعريان من " نشيد الخريف " للشاعر الفرنسي "بـــول قارلان " وهو من شعراء القرن التاسع عشر ..

(9)هو الشاعر الالماني فريدريش فون هارد نبرغ نوفاليس ولد في 1801 وتوفي في 1772..من كبار الرومانسيين وقد عنيت فلسفته بالجسد الانساني ..

(10) لّالّا بتشديد اللامين تعني السيدة او العالية المقام او الشريفة ..كما تقال عادة لوالدة الزوج .

(11) الـــ PPA او Le Parti du Peuple Algérien هو حزب الشعب الجزائري الذي اسسه ميصالي الحاج في 11 مارس 1937 بعد حظر نجم شمال افريقيا (ENA)

الفهرس:

القسم الاول :

الفصل الاول : ذهبيـــــــــــــة

الفصل الثانـي: الجـــــــــــودام

الفصل الثالث : اوكتافيـــــــــــا

الفصل الرابع : الفتاة مـــــــــــاري

الفصل الخامس :جنرال السادسة صباحا

القسم الثاني :

ـ الفصل السادس : اثار على الشـــــفاه

ـ الفصل السابع : " مايكا " شقراء المعتقل الحربي ..

ـ الفصل الثامن المفتش كـــــــــلاوس

ـ الفصل التاسع : سر العسكري الاسمر..

ـ الفصل العاشر : اناشيد الجـــــــــراح

القسم الثالــث:

ـ الفصل الحادي عشر: جسد على بيـــاض

ـ الفصل الثاني عشر : مدام ميليـــــــــن

ـ ـ الفصل الثالث عشر : همسات نوفاليـــــس

ـ الفصل الرابع عشر : هــدأة المســـــدس

ـ الفصل الخامس عشر : النيران الاخيــرة

القسم الرابع :

ـ الفصل السادس عشر : دورية منتصف الليل.

ـ الفصل السابع عشـــر : المتصرف لـــــوران

ـ الفصل الثامن عشر : عطر الـــــــوداع

انتهى بمديـــنـــة سعيـــدة (الجزائر) في اوائل عام 2017

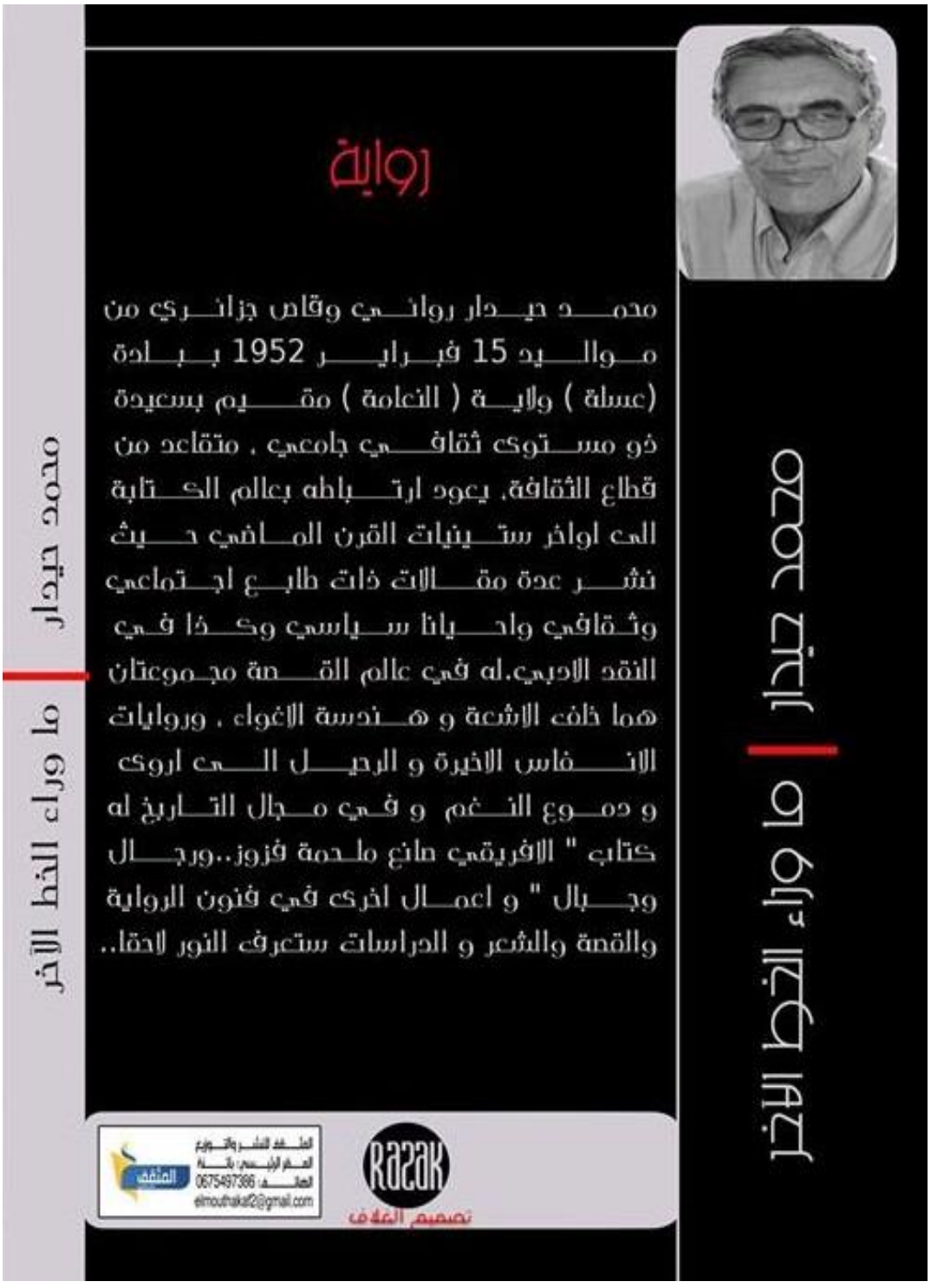
محمد حيدار | ما وراء الخط الآخر
رواية
محمد حيدار ما وراء الخط الآخر
محمد حيدار روائي وقاص جزائري من مواليد 15 فبراير 1952 ببلدة (عسلة) ولاية (النعامة) مقيم بسعيدة ذو مستوى ثقافي جامعي ، متقاعد من قطاع الثقافة، يعود ارتباطه بعالم الكتابة الى اواخر ستينيات القرن الماضي حيث نشر عدة مقالات ذات طابع اجتماعي وثقافي واحيانا سياسي وكذا في النقد الادبي.له في عالم القصة مجموعتان هما خلف الاشعة و هندسة الاغواء ، وروايات الانفاس الاخيرة و الرحيل الى اروى و دموع النغم و في مجال التاريخ له كتاب " الافريقي صانع ملحمة فزوز..ورجال وجبال " و اعمال اخرى في فنون الرواية والقصة والشعر و الدراسات ستعرف النور لاحقا..
RAZAK
تصميم الغلاف